

د. عباس مصطفى الصالحي




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الصيد والطرد في الشعر العربي

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨١ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف: ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣/٦٣١١ بيروت ـ لبنان

د. عباس مصطفى الصالحي



المقدمة

الطرد فن جذوره عريقة ، فانه واكب أولى النصوص الشعرية التي استطاعت أن تقاوم الضياع والنسيان ، ووصلتنا عبر قرون وأجيال ، ولقد قدم شعراء الجاهلية أوصافاً لحيوان الصيد والطرد ومعاركه، لم تخلُ من دقة ونضوج ، مما يحملني على الاعتقاد أن محاولات متعددة قد سبقتها ، ولكن لم يكتب لها البقاء شأنها شأن أغلب تراثنا .

وما انفك معظم شعراء العصور الاسلامية عن وصف ذلك الحيوان وطرده على نحو تتشابه سماته ، وتتقارب صوره ، وحين حل العصر العباسي شهد وصف الطرد اهتماماً واضحاً ، وبات فناً من فنون الشعر العربي .

ولقد تناولت بالبحث هذا الفن منذ محاولات امرىء القيس حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، لتقديري أن الطرد قد وجد له مكاناً واضحاً بين أغراض القصيدة العربية ، واستمرَّ يدرج معها ، يتلقى التأثيرات ويستجيب لها استجابات بطيئة ، حتى كتب له الاستقلال على يد الشمردل ثم بلغ مرحلة النضوج والكمال في أواخر القرن الثاني الهجري على يد أبي نواس ، خاتم شعراء الطرد المبتكرين ، فقد استطاع هذا الشاعر أن يضع اللمسات الأخيرة على سمات هذا الفن ، بعد أن صار ذا كيان محدد المعالم والأركان .

ولم يكفَّ الشعراء عن وصف الطرد ، ولكنهم كانوا في الغالب مقلدين حتى بلغ الأمر بأبي فراس الحمداني أن نظم طردية مطولة ذات طابع تعليمي مفتعل بعيد عن الروحية التي طالعتنا في شعر العصور السالفة .

اني حاولت تقصِّي جذور هذا الفن في شتى البيئات والعصور الأدبية ، وتوضح لي

أن الشعراء قد تعددت اهتماماتهم ، وتلونت أوصافهم للصيد والطرد وحيوانه ووسائله وشؤونه ، لذا ارتأيت تقسيم البحث الى أبواب أربعة ، ليتسنى لي البحث العلمي الدقيق ، فدرست في الباب الأول أموراً تتعلق بالدوافع التي حملت العربي على الصيد ، وعكفت على دراسة مكانة الصيد عند العرب ، مظهراً كلفهم بالصيد وتقديرهم للصائد ، ثم اجتهدت في تحديد المواسم التي مارسوا فيها الصيد والطرد وبيان الأوقات المحببة في الخروج اليه ، وعرضت بعض عاداتهم في الصيد كالتخفي والملابس والتبكير .

أما الباب الثاني فعالجت فيه الطرائد وأنواعها ، فكانت نوعين حيواناً وطيوراً ، متناولاً الصور التي رسمها الشعراء لها ، وطبائعها وطرق صيدها .

وفي الباب الثالث درست وسائل الصيد ، وهي متنوعة ، فكان منها الحيوان والطيور والأسلحة والحيل وغيرها .

وفي الباب الرابع قدمت دراسة فنية لشعر الصيد والطرد ، شملت الفكرة وناقشت فيها وصف الحيوان وكيف تناوله الشعراء أقصداً أم استطراداً ثم متى اتخذ فن الطرد شكله المستقل ؟ وهل توفرت وحدة الموضوع وكيف ؟ ، وما هو موقف الشعراء من نهاية الطرد ؟ .

وبحثت أيضاً العاطفة ومدى استجابة الشعراء لموضوعات البحث عاطفياً ، ثم الخيال وأنواعه ، الابتكاري والتأليفي والتفسيري ، واستطعت أن أتلمس تلك الأنواع في نماذج من شعر الطرد ، وبينت أثر البيئة في هذا الخيال ، وعرضت بايجاز الصدق الفني ومدى توفيق الشعراء في الملاءمة بين جوهم الشعوري والتعبيري واستشهدت بنماذج أيضاً ، ثم قدمت دراسة مجملة للأسلوب وأثر شخصية الشاعر فيه ، وعللت محافظة شعر الطرد على بدويته حتى في البيئة العباسية المتحضرة ، وأخيراً تكلمت على نهج القصيدة حيث عالجته في دراسة للرجز وصلته بوصف الصيد والطرد ، ثم في بنية الطردية ، اذ استطعت أن أكشف عن أركان وملامح التزم الشعراء بتوفيرها ، وختمت البحث بملخص له ، عرضت فيه أبرز نقاط الموضوع ، مع مقترحات اعتقدت بأنها جديرة بالأخذ والتطبيق .

ومهدت لتلك الأبواب بدراسة حددت بها مناطق البحث والحيوان ، وذكرت بعض الذين مارسوا الصيد من ملوك وأمراء ورؤساء العرب وشعرائهم وعلمائهم ، وبينت أن

الصيد من شؤون الرجال ، فلم تمارسه النساء فخلا شعرهن من وصفه ، ثم جئت بتمهيد لغوي شرحت فيه بعض الألفاظ التي يكثر ترددها في البحث مستخلصاً معانيها الحقيقية من المعجمات .

وحصرت دراستي بجزيرة العرب والعراق والشام ، لأنها الميادين التي نشأ فيها هذا الفن وازدهر ، عصر كانت مصر والأندلس بعيدتين عن الاهتمام بالأدب العربي ، والشعر بصفة خاصة .

كانت الدواوين والمجموعات الشعرية مصادر دراستي الرئيسة ، فلقد استطعت أن أستمد نماذج شعرية من حوالى ثمانين ديواناً ومجموعة ، واني عوّلت بالدرجة الأولى على الدواوين ، ما استطعت الى ذلك سبيلاً ، فكانت جل الأفكار والحقائق التي توصلت اليها مستخلصة من مصادر الشعر تلك ، ووجدت الشعراء فريقين : فريقاً يصف الصيد بدافع المعاناة الواقعية ، وفريقاً بدافع التقليد ، كما أن وصف الطرد قد مر بمرحلتين الأولى : كان فيها غرضاً ، والثانية : صار فناً مستقلاً ، وظهر أن للطردية بنية معينة ، وأركاناً بارزة ، كما أن لها مدخلاً ومخرجاً ملتزماً بهما .

ولقد صنف في هذا الميدان كثيرون ، ولكن مصنفاتهم لم يكتب لها البقاء ، ومن أولئك ابن المعتز اذ ألف كتاب (الصيد والجارح)(1) وكتاب (الجارح من الطير) لجهم بن خلف المازني(2) ، وكتاب (الحمام) لأبي عبيدة(3) ، وألف كتاباً في الوحوش أبو زيد النحوي(4) ، والأصمعي(5) وأبو حاتم السجستاني(6) ، وهشام بن ابراهيم الكرماني(7) وسعدان بن المبارك(8) ، كما ألف ميرم جلبي(9) (931 هـ) كتاباً اسمه : (منية الصيادين)

---

(1) الفهرست لابن النديم : 176
(2) الفهرست : 76
(3) الفهرست :86 .
(4) الفهرست : 87 .
(5) الفهرست : 88 .
(6) الفهرست : 93 .
(7) الفهرست : 111 .
(8) الفهرست : 111 .
(9) كشف الظنون : 2-1886 .

وللشيخ تقي الدين حمزة بن عبد الله الناشري(10) كتاب اسمه : (انتهاز الفرص في الصيد والقنص) ألفه سنة916 هـ ، ولقد اطلعت على مخطوط عنوانه : (مناهج السرور والرشاد في الرمي والسباق والصيد والجهاد)(11) لمصنفه الشيخ عبد القادر الفاكي ، واخر عنوانه : كتاب (الجوارح وعلوم البزدرة)(12) من تصنيف أبي بكر بن يوسف القاصمي ، وكلاهما يبحثان في أمور تتعلق بالصيد وحيواناته وبيزرتها .

وثمة مصادر مهمة اعتمدت عليها ، وسهلت أمامي البحث ، منها كتاب الحيوان للجاحظ ، والمصايد والمطارد لكشاجم ، والبيزرة لمؤلف مجهول يظن أنه بازيار العزيز بالله الفاطمي أبو عبد الله الحسن بن الحسين ، والبيزرة تبدو أنها تقول عن المصايد والمطارد .

وكتاب الحيوان يعد بحثاً علمياً دقيقاً في الحيوان وطبائعه وما يتعلق به ، بأسلوب لم يسلم من الفلسفة والاجتماع والمناقشة ، ولقد أورد نماذج شعرية كثيرة لشعراء لهم دواوين ولآخرين ليس لهم ، بل أن بعضهم ما كان مشهوراً شهرة واسعة ، ويختلف الحيوان عن المصايد والمطارد بأن الجاحظ أورد من النماذج في معرض التخفيف وازالة الملل عن القارىء ، بينما وجدت كشاجم كان يبحث عن الحيوان وطبائعه وأمراضه وعلاجها وطرق صيده ، ثم يستشهد بالشعر في المكان الملائم له ، والذي من شأنه أن يدعم الأشياء التي جاء بها .

لقد تحدث بعضهم عن الطرد ، وكان أغلب الحديث يرد أثناء الكلام على أبي نواس وغيره من الشعراء الذين وصفوا الطرد ، ولم أقف على دراسة شاملة عالجت وصف الصيد والطرد في الشعر العربي ، منذ كان غرضاً في العصر الجاهلي حتى صار فناً مستقلاً له سماته وأصوله ، وبهذا المعنى تعتبر دراستي المتواضعة هذه محاولة مبتكرة لدراسة هذا الفن ، ولا سيما وقد تكللت بتلك الدراسة الفنية التي توصلت بها الى أشياء أعدها مهمة بالنسبة لأدبنا العربي ، منها : تحديد مرحلتي وصف الطرد ، وابراز دور الشمردل اليربوعي ، ثم تسويغ اصطناع الرجز في الطرديات ، وأخيراً تحديد أركان الطردية وملامحها .

ومن الوفاء أن أسجل شكري الجزيل للأستاذ الدكتور أحمد محمد الحوفي رئيس

---

(10) كشف الظنون :1 -175 .

(11) المكتبة الوطنية بباريس : 2834 .

(12) المكتبة الوطنية بباريس : 2831 ، وهما مصورتان في المجمع العلمي العراقي ببغداد .

قسم الدراسات الأدبية في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، فقد نالني شرف اشرافه على هذا البحث ، ولم يدخر جهداً في توجيهي ، واشراكي بخبرته الوفيرة ، فنلت به الماجستير في الدراسات الأدبية بدرجة جيد جداً في 2 -10 -971 .

ولعلي قد وفقت في دراسة فن الطرد واظهار معالمه ، وحسبي أني حاولت ومن الله التسديد .

بعقوبه **ذو الحجة 1393**
كانون الثاني 1974

عباس مصطفى الصالحي

التمهيد
مناطق البحث

تشمل دراستي شعر شبه جزيرة العرب ، والعراق ، والشام أما مصر والأندلس فلن يدخل شعرهما ضمن بحثي ، فلقد بقيت مصر محافظة على شخصيتها غير العربية ، فليس فيها طيلة العصر الأموي (سوى أشعار كانت تقال في المناسبات والأحداث المختلفة ، أمَّا ما بعد ذلك فليس لها شاعر ممتاز يمكن أن تضعه في صف الشعراء الممتازين للحجاز والعراق والشام) (1) وفي العصر العباسي نجد (مصر تأخذ بأسباب النهضة الفنية التي ستقبل عليها في العصر الفاطمي) (2) وفي معرض تعليق الدكتور شوقي ضيف على منافسة الشعراء لأبي نواس حين زار الخصيب في مصر يعلن : (أن مصر حتى عصر أبي نواس لا تظفر بشاعر ممتاز يقاس اليه والى أضرابه من شعراء العراق) (3) وذلك العهد هو الذي تنتهي به فترة بحثي .

أما الأندلس فالشعر فيها (بدأ يتكون حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطرق بين مذهبي أبي تمام والبحتري) (4) ويقول غارسيا

---

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الدكتور شوقي ضيف : 463 (ط6 ، دار المعارف بمصر) .
(2) المصدر السابق : 463 .
(3) المصدر السابق : 464 .
(4) تأريخ الأدبِ الأندلسي « عصر قرطبة » الدكتور احسان عباس : 34 (بيروت 1960) .

غومس : (لم يصل الشعر الأندلسي الى أوجه الكامل وسمته الجمالي الا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية (317-929)[5] ، وقبل ذلك أي في عهد الولاة الذي سبق الخلافة (فليس له من الأندلسية الا أنه قيل في الأندلس ، فقائلوه في الحقيقة مشارقة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده)[6] .

الحيوان :

أما حيوان المناطق التي تجول فيها الدراسة فان فيافي الجزيرة العربية والعراق والشام والأودية والجبال كانت من المواطن لحيوانات كثيرة ، منها ما ذكره المؤرخون في حديثهم عن هذا المكان من العالم[7] ومنها ما ورد ذكره في الشعر العربي ، فهناك النمر والذئب والفهد والضبع والثعلب والأرنب والضب والقرد وغيرها . وتكثر فيها كواسر الطير كالعقاب والبازي والصقر ، اضافة الى الهدهد والعندليب والحمام والقطا . ودجَّن العرب الكلاب للحراسة والصيد ، وبالأخص السلوقية منها ، ناهيك عن الخيل التي كانت موضع اعتزاز العربي وفخره .

أما النعام والمكاء والحمر والبقر الوحشية والظباء والوعول ، فلن نلقى صعوبة في ايراد الأشعار الكثيرة التي ورد فيها وصفها في الفصول المقبلة .

ونعلم أن للأسد ذكراً كثيراً في الشعر ، وليس حديث أبي زبيد الطائي معه عنا ببعيد ، واشتهرت بيشة بأنها مأسدة ، ولكن هذا الحيوان قد انقرض الآن .

وقد يقال : أن جزيرة العرب بوضعها الحالي وكما نراها الآن ليست صالحة لأن تعيش بها الأسود والنمور والفهود وحمر الوحش من حيوانات الصيد ، ولكن الرد على هذا ميسور ، فان جزيرة العرب ـ في عهود بعيدة ، استمرت الى ما بعد العصر الجاهلي ـ كانت مسرحاً لهذا الحيوان والا ما وجدنا هذه الأوصاف المتعددة من شعراء في مختلف العصور للصيد وللحيوان المصيد .

---

(5) الشعر الأندلسي ، غارسيا غومس : 34 (ترجمة دكتور حسين مؤنس ط2 القاهرة1956) .
(6) الأدب الأندلسي ، الدكتور أحمد هيكل : 59 (ط3 القاهرة1967) .
(7) تاريخ العرب ، فيليب حتي : 1/23-25 (ط3 دار الكشاف1961) . وانظر :
Huting as practised in arab cou[illegible]ies, By Dr. Zaky M. Hassan: 2 (Cairo 1939).

ولا يصحُّ أن ننكر الماضي بناء على ما نراه في الحاضر ، فان الغزلان التي كانت تملأ جزيرة العرب آخذة في الانقراض ، لكثرة ما يصاد منها بالوسائل الحديثة ، حتى أن بعضهم يصيد بسيارته ومدفعه الرشاش ما يناهز الخمسين غزالاً في اليوم . وليس من المستبعد ـ اذا استمرت الحال على هذه الوتيرة ـ أن تنقرض الغزلان بعد قرن أو أقل من قرن ، وربما يتشكك بعض الناس في المستقبل في أن جزيرة العرب كانت عامرة بالغزلان ، لأنه لا يراها حينئذ ، ولا تزال بعض المناطق بناحية الطائف ، وناحية جيزان ملأى بالقرود ويراها الزائرون اليوم .

ويحدثنا سنت جون فيلبي عن مشاهداته أثناء ارتياده للجزيرة العربية ، من خلال مذكراته بقوله : (كان الوقت قد أصبح متأخراً في ذلك الحين ، فانصرف تفكيرنا الى بقعة تصلح لانشاء مخيم نبيت فيه تلك الليلة ، وكنت أقوم بجولة في البقعة المجاورة ، عندما بدد صوت طلقة نارية ذلك السكون الشامل الذي كان يلف الجبال ، ولم تمض الا لحظات قليلة حتى برز أمامي رجل من المرتفعات القريبة ، يطلب الينا أن نعينه في احضار وعل اطلق عليه النار فأصابه)(8) .

ويقول فيلبي أيضاً : (ولقد أخبرنا الرجل الذي صاد الوعل ، أنه وعل لقيه ضمن سرب ضخم يضم خمسة آخرين ، وكان قرنه الأيسر من الطول بحيث يزيد على ثلاثة وثلاثين انشاً . والغزلان في هذه المنطقة أسعد حظاً من غيرها من الحيوانات ، اذ لا يتسنى الا للصياد الماهر أن يصيد أحدها فهي سريعة العدو ، كما أنها خبيرة بوسائل تفادي رصاص الصيادين)(9) .

وهذا مثل آخر يصلح أن يكون دليلاً على وجود الحيوانات التي ورد ذكرها في الشعر فمنها ما بقي الى عصرنا الراهن تصوب له الضربات ومنها ما انقرض ولم يبق الا اسمه يحتفظ به الشعر ، فثمة وحش وجرة وأورال ، وعنيبسات والصيفيين والشيطين وغيرها .

وأخيراً بعد هذا يحق لنا أن ننفي دعوى من يحاول أن يتهم الشعر بالنحل بحجة ذكره لحيوانات لا نجدها الآن ، والحقيقة التي يمكن أن نجدها مقبولة ، هي الاستدلال

---

(8) أرض الأنبياء (مدائن صالح) : 8 (تعريب عمر الديراوي ، ط2 بيروت1965) .
(9) المصدر السابق : 9 .

بالشعر على أن حيوانات كانت ترتع في الجزيرة وغيرها ، ولكن عدت عليها العوادي ، فانقرضت ، ونستدل بالشعر سائدين رأينا فهو صدى البيئة ونابع منها ، ويحمل ما يمكن أن نجده فيها .

بعض الذين مارسوا الصيد والطرد :

مارس الانسان الصيد والطرد منذ دهور سحيقة ، باحثاً عن قوته أو مدافعاً عن نفسه ، أو ناشداً الرياضة والمتعة ، وفي أقدم النصوص البشرية نجد صدى لهذا الصراع بين الانسان والحيوان ، فلقد عرضت ملحمة جلجامش(10) لذكر الصياد ، وصيد الظباء وحمر الوحش ، كما أن التوراة(11) قد أخبرتنا بأن نمرود وابنه كوش قد مارسا الصيد ، ومثلهما اسماعيل .

ومن حديث لابن الكلبي(12) عن دخول الخيل جزيرة العرب نفهم أن سليمان (ع) كان لهجاً بالصيد ، حاذقاً فنونه ، لم يكتف بممارسته وحده ، وانما سعى الى تعليمه غيره .
ومن ملوك العرب في الجاهلية الذين لهجوا بالصيد ، ذو يزن الحميري ووكدة سيف ، والمنذر ملك الحيرة ، والحارث بن معاوية وهو أول من صاد بالصقر ، ومرثد بن عبد كلال(13) .

وأما رؤساء العرب فمنهم لقيط بن زرارة ، ومنهم عمرو بن الجون الكندي ، ومنهم معد بن عدنان ، وهو أول من طرد الوحش على الخيل ، ومنهم همام بن وبرة ، ومنهم مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ، ومنهم أخوه طابخة(14) .

وشغف بالصيد أيضاً عدي بن زيد (ومنهم كليب بن ربيعة الذي يضرب به المثل في العز فيقال : أعز من كليب . . . وكان يحمي الصيد فيقول : صيد كذا وكذا في جواري ،

---

(10) ملحمة جلجامش : 78, 40 (ترجمة طه باقر ، ط1 ، بغداد1962) .
(11) سفر التكوين : الاصحاح العاشر ، الاصحاح الحادي والعشرون (بيروت1962) .
(12) انساب الخيل : 14, 13 (تحقيق المرحوم أحمد زكي باشا القاهرة1946) .
(13) مناهج السرور ، عبد القادر الفاكهي (مخطوط) ورقة : 63 (المكتبة الوطنية بباريس رقم2834) .
(14) المصدر السابق ، الورقة : 64 . ومدركة : هو عامر بن الياس ، وأما طابخة : فهو عمرو بن الياس ، وسبب تسمية كل منهما بما ذكر لأنهما كانا في ابل يرعيانها ، فاقتنصا صيدا ، فقعدا عليه يطبخانه ، فعدت عادية على أبلهما ، وبقي عمرو يطبخ الصيد ولحق عامر الابل فجاء بها ، وأخيراً أخبر أباهما بالقصة ، فأسماهما بذلك .

فلا يصاد ، بل لا ينفر)(15) ، ومن الصيادين عرف الكسعى الذي يضرب به المثل في الندامة ، وممن اقتنص طرفة بن العبد في صباه ، فقال في ذلك وهو ابن سبع :

يا لك من قنبرة بمعمرِ خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئتِ أن تنقّري قد رُفع الفخ فماذا تحذري
ورجع الصائدُ عنكِ فابشري لا بد من أخذك يوماً فاحذري(16)

ومن الصعاليك السليك بن السلكه ، والشنفري كانا يسبقان الخيل ، ويصيدان الظباء عدوا ، وتأبط شراً ، فقد اصطاد في حداثة سنة كثيراً ، الضب واليربوع ، وممن عرف بالقنص كذلك المنتشر ، وأوفى بن مطر وعامر بن عنترة ، كان يعنى بماشيته وكلابه شديد العناية ، حتى روى أنه عندما أدركته المنية لازمت كلابه قبره حتى ماتت عنده ، ومنهم بنو جماز ابن مالك بن النصر الأزدي ، وكانوا عشرة ، خرجوا يتصيدون فأهلكهم المطر فكفر ابوهم بالله ، ودعا قومه الى الكفر ، وكان يقتل من عصاه وكان مثلاً يضرب في الكفر(17) .

واقتنص الحمزة (رضي) ، وعدي بن حاتم ، وأبو قتادة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكلهم من الصحابة(18) .

ومن الخلفاء كان معاوية ، كما ذكر ، وابنه يزيد ، وسليمان بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وقد نشرت مجلة سورية(19) الصادرة باللغة الفرنسية رسوماً جدارية اكتشفت في تشرين الثاني1936 ، في حفريات قصر أومياد ، تمثل صياداً يمتطي جواداً يطارد غزالاً راكضاً أمامه ، وهو يدير برأسه نحو صياده ، وثمة غزال آخر ذكر يميز بقرونه الكبيرة ، قد صرع وسقط بوضعية غير طبيعية ،وكان الفارس قد شرع قوسه متهيئاً للرمي وفي يمينه جعبة من الجلد فيها ثلاثة أسهم ، وقد رجّح كرزول أن تكون هذه الصورة

---

(15) مناهج السرور ، ورقة : 64 .

(16) ديوان طرفة بن العبد : 46 (دار صادر ـ دار بيروت1961) ، وروبت لكليب في اللسان (قبر) معمر ـ فتحتين بينهما ساكن : قال ياقوت : موضع بعينه ، واستشهد ببيت طرفة هذا ، معجم البلدان : 8-99 .

(17) مناهج السرور ، الورقة : 64, 65 .

(18) مناهج السرور ، الورقة : 63 ، البيزرة : تأليف أبي عبد الله الحسن أبن الحسين « ظنا » : 40 (تحقيق محمد كرد علي ، دمشق1372 -1953) .

(19) SYRIA, Revue d'art oriental et D'Archeologie tome XXV. Paris 1946- 1948 .

الجدارية ممثلة للخليفة هشام بن عبد الملك(20) .

ومن خلفاء بني أمية عرف بالاقتناص الوليد بن يزيد ، ومن العباسيين السفاح اذ أنه لهج بالصيد شاباً وكهلاً ، وأخوه المنصور ، ولقد عبر جسر بغداد مرة ، وقد شمر كمه ، وعلى يده باز ، وحين عاد سأل الربيع عما قاله الناس ، فأخبره بعجبهم قال الخليفة : أنه سيأتي من أبنائنا من يحب الصيد والتبذل فيه ، فأحببت أن أفعل ما رأيت ، حتى اذا فعله منهم فاعل قال الناس قد فعله المنصور ، ومع اشتهار المهدي بالتحفظ في الهزل لكنه لم يترك الصيد ، ومما يرتاح اليه الرشيد حضوره الصيد ، حتى كان يركض فرسه ركضاً شديداً في أثر الطريدة ، وأما الأمين فأغرم بالصيد أكثر من أبيه ، ورافقه في ذلك أبو نواس ، ونظم أغلب طردياته في ضواديه وجوارحه ، ورغب في الصيد وأولع به المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، والمعتز بالله ، والمعتضد ، والمكتفي ، والمقتضي بن المستظهر(21) .

واشتهر من الأمراء الصيادين : الحجاج ، وأبو مسلم الخراساني وأبو دلف العجلي ، والأمر بحكم الله ، والفضل بن يحيى البرمكي ، وصاد معه ذات يوم الأصمعي محمد بن يزيد العقيلي ، والحسن بن هانيء(22) .

وقد اصطاد من العلماء ، اضافة الى الأصمعي ، الخليل بن أحمد الفرهودي(23) ، أما الشعراء فكثيرون منهم أمرؤ القيس ، وزهير ، والعرجي وغيرهم ممن سنستشهد بشعرهم ، ولقد طرد أيضاً أبو حية النميري(24) ، وله طرائف في هذا الشأن ، وكذلك محمد بن بشير الخارجي(25) .

وما زلنا حتى اليوم نلمح الكثير من هواة الصيد ، أو ممن تضطرهم بيئتهم الى التماس

---

(20) K. A. C. Creswell, Bibbiog raphy of Architecture arts and crafts of islam to 1 st. Jan. 1960. Published by the american university at cairo press 1961

(21) مناهج السرور (مخطوط) ، الورقة : 63 (بتصرف) ، البيزرة 41 -48 ، المصايد والمطارد ، كشاجم : 3 -8 (تحقيق محمد أسعد طلس بغداد 1954) .

(22) مناهج السرور (مخطوط) الورقة : 64 .

(23) البيزرة : 19 .

(24) الأغاني (دار الكتب) : 16 -309 ، وكل اشارة لهذه الطبعة أي طبعة دار الكتب ما لم أثبت خلاف ذلك .

(25) الأغاني : 16 / 112 - 125 .

الرزق في القنص ، يهتمون بضواري الطرد وجوارحه ، ولا سيما الكلاب ، والبزاة ، والصقور ، الى جانب البنادق الفتاكة ، فالكلب نافع في التقاط الطرائد بعد أن تصاب باطلاقات البنادق ، والجوارح قادرة على الامساك بصغار الوحش والطيور .

ويزداد اهتمام الأعراب بالكلب وجوارح الطير في السعودية وامارات الخليج ، بل وحتى في مصر والعراق والشام ، فلماً تزل تلك الأصقاع مرتعاً خصباً لكثير من الطرائد . وصرنا نسمع عن تأسيس نواد تلم شمل هواة الصيد في العراق ومصر وغيرهما ، فيها يجتمعون للتعارف والتعاون وتبادل الخبرات والتجارب .

أما النساء فانني وجدت شعرهن خالياً من وصف الصيد والطرد وتلك ظاهرة جديرة بالبحث والتعليل وتحديد دوافعها ، ولا سيما اذا كان بين أيدينا أكثر من ديوان لبعضهن ومجموعات حوت شعراً واخباراً لهن .

ولكن نستطيع التعليل المقبول يجمل بنا أن نعود الى ما كانت تؤديه في المجتمع ، فمنذ القديم انصرفت الى تدبير شؤون البيت ومنها توفير الطعام ، فبينا كان الرجل في صيده كانت هي تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ ، لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول)(26) ولعل المرأة العربية لم تكن حالها غير ذلك في ظروف السلم ، أما في أيام الحرب فيقول استاذنا الدكتور أحمد الحوفي : (كان المعروف عن العرب أن القتل والقتال للرجال ، وعلى الغانيات جر الذيول ، فان شاركن في الحرب فانما يقمن بما تطيقه الأنثى من تحميس وتضميد واطعام وسقي)(27) وهي أعمال تكون في المرتبة الثانية من حيث الأهمية عادة .

وكانت للمرأة صناعات وأعمال في العصر الجاهلي ، لم يكن الصيد والطرد واحداً منها ، فكانت تعنى بابنائها وتقوم بتربيتهم ، وتتولى مهام الاسعاف والتضميد ، ومارس بعضهن الطب ، وعرفت بأنها تغزل وتنسج واحترف بعض النسوة بالتجميل والتزيين ، والارضاع ، والقبالة ، والخفض ونسج الحصر ، وتقويم الرماح ، ورعاية الابل والغنم ، وكن لا يجدن غضاضة في طلاء النوق الجرب ، واجتناء الكمأة ، وكان قسم منهن يرقين

---

(26) قصة الحضارة : 1/15 ـ16 .

(27) المرأة في الشعر الجاهلي : 433 (ط2 القاهرة1963) .

وفيهن الفكهة المزاحة ، والكاهنة والعرافة[28] ، ومثل هذا يصدق على المرأة في العصور الاسلامية الى حد كبير .

لهذا كان الطرد من شؤون الرجال ، لحاجته الى القوة ، ورصد الوحش الذي يتطلب الابتعاد عن المسكن ، والانصراف عنه أياماً ، وفي ذلك ابتذال للمرأة حرص العربي على أن يصونها منه ، فكان الرجل يصطاد ويأتي لها بالصيد ، فتتولى أمر طهوه وأعداده طعاماً شهياً تقدمه لأبنائها ولضيفانها .

ومما يدعم رأيي علمنا أن الصيد والطرد وسيلة تُضرَّى ، وسهام تشذب وتبرى ، وقترة تتخذ عنه موارد الوحش لرصدها ومخاتلتها ثم رميها ، وما وقفت على خبر يروي خروج امرأة برمحها على فرس ، أو طاردت بكلابها الضارية ، أو اصطنعت الجوارح في قنصها ، أو احتفرت لنفسها قترة فتوارت فيها زمناً ، أو نصبت الشباك والفخاخ .

وثمَّة شواعر عديدات اشتهرن في الجاهلية ، سبيعة بنت عبد شمس[29] ، والفارعة بنت شداد[30] • وليلى بنت سلمة[31] ، وهند بنت الخس[32] ، وجل شعرهن في الرثاء .

لقد وجدت للخرنق شعراً في رثاء زوجها ، أطرت به خروجه على فرسه للصيد ، لطرد الوحش ، والتقاط بيض النعام :

يا رُبَّ غيثٍ قد قرى عازبٍ ... اجش أحوى في جمادى مطيرِ
قادَ به أجردَ ذا ميعة ... عبلاً شواهُ غير كابٍ عثورِ
فألبسَ الوحشَ بحافاتهِ ... والتقطَ البيض بجنبِ السديرِ[33]

والخرنق هنا لم تدع خروج الصيد لنفسها ، وانما عدته من فضائل زوجها ، مما

(28) المرأة في الشعر الجاهلي : 398-409 .
(29) شاعرات العرب : 155 (جمع وتحقيق عبد البديع صقر ، الدوحة1967) .
(30) نفس المصدر : 291-293 .
(31) نفس المصدر : 372 .
(32) نفس المصدر : 458-460 .
(33) ديوان الخرنق : 34-35 (تحقيق الدكتور حسين نصار القاهرة1969) .
* غيث : مطر ، مطر عازب : أي بعيد الموقع ـ أجش : صوت الرعد ، والجشة : البحة ـ أحوى : ما يضرب الى السواد ، وهو أغزر لمائه ـ أجرد : فرس قصير الشعر ـ الميعة : النشاط ـ شواه : قوائمه ـ عبل : غليظ ـ ألبس الوحش : طاردها ـ البيض : بيض النعام ـ السدير : موضع معروف بالحيرة ، معجم البلدان : 5-54 .

يؤيد رأيي في أن الصيد والطرد من شؤون الرجال ، ولم تمارسه النساء ، وهذا ما شجعني على اعتبار شعر الخنساء في رثائها لأخيها ، ثم تشبيهها ناقته بثور الوحش الذي طورد بكلاب الصيد ، وصراعه إياها ثم فتكه بابطالها ، انه من قبيل الشعر التقليدي الذي نظم فيه أغلب الشعراء أظهاراً لقدرتهم على هذا اللون من الوصف ، واستكمالاً لاغراض بعض قصائدهم التي أفتقرت لظروف معينة الى وحدة الموضوع .

تمهيد لغوي

الصيد

صـاد الصيد يصيده ويصـاده صيداً اذا أخـذه[1] ، وتصيَّده (بتشـديد الياء المفتوحة) ، واصطاده وصاد اياه[2] ، ولقد قيد الزبيدي[3] معناه بالأخـذ في الحبالـة أو بايقاعه في الشرك .

ويقال : خرج فلان يتصيد الوحش أي يطلب صيدها . وقولك : صدت فلانـاً صيدا ، اذا صدته له ، كقولك بغيته حاجة أي[4] بغيتها له .

صاد المكان واصطاده : صاد فيه : قال :

أحب ما اصطاد مكان تخليه .

أي أنه جعل المكان مصطاداً كما يصطاد الوحش . قال سيبويه : ومن كـلام العرب صدنا قنوين ، يريد صدنا وحش قنوين ، وانما قنوان اسم أرض .

والصيد : ما تُصيِّد (بالبناء للمجهول) ، وقوله تعالى : (أحل لكم صيد البحر وطعامه)[5] يجوز أن يعنى به عين المتصيد ، ويجوز أن يكون على قوله صدنا قنوين ، أي

---

(1) اللسان (صيد) ، تهذيب اللغة ، الأزهري : 21/ 220 .

(2) اللسان (صيد) .

(3) تاج العروس (صاده) .

(4) اللسان (صيد) ، تهذيب اللغة : 12- 220 .

(5) المائدة : 96 .

صدنا وحش قنوين . قال ابن سيده : قال ابن جنى : وضع المصدر موضع المفعول . ومما حكاه ابن الأعرابي : كل وحش صيد ، صيد أو لم يصد ، وعدّ ابن سيده هذا القول شاذا[6] .

وفي الحديث تكرر ذكر الصيد اسماً وفعلاً ومصدراً ، فيقال : صاد يصيد صيدا ، فهو صائد ومصيد .

ومن قوله تعالى : (لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم)[7] يفهم أنه قد يسمى المصيد نفسه بالمصدر .

والمصيدة والمِصْيَدَة والمَصيَدَة ، التي يصاد بها ، وهي من بنات الياء المعتلة ، وجمعها مصايد (بلا همز) مثل معايش جمع معيشة . والمصيد والمصيدة (بالكسر) : ما يصاد به[8] .

والعرب تقول : خرجنا نصيد بيض النعام ونصيد الكمأة ، واعتبر ابن الأعرابي قولهم : صدنا كمأة ، من جيد كلام العرب ولم يفسره . وعند ابن سيده انه يريد استثرنا كما يستثار الوحش . وحكى ثعلب : صدنا ماء السماء أي أخذناه[9] .

والافتعال منه الاصطياد . يقال : اصطاد يصطاد مصطاد ، والمصيد مصطاد أيضاً .

وقولهم : خرج فلان يتصيد الوحش أي يطلب صيدها[10]

كلب وصقر صيود ، يتساوى في ذلك المذكر والمؤنث ، وجمعها صيد ، وحكى سيبويه عن يونس صيد أيضاً .

الطرد

بفتح فسكون ، ويحرك : الأبعاد والتنحية ، طرده يطرده ، من الباب الأول ،

---

(6) اللسان (صيد) .
(7) المائدة : 95 .
(8) اللسان (صيد) ، تهذيب اللغة 12 -220 .
(9) اللسان (صيد) ، التهذيب12 -220 .
(10) المصدران السابقان .

طرْداً وطَرَدا بسكون الراء وفتحها(11) .

والطرد (بسكون الراء) : الشل ، طرده يطرده طرْدا وطَرَداً وطرده قال :

فاقسمُ لولا أنَّ حدبا تتابعتْ علىَّ ولم ابرحْ بدين مطردا

حدبا : يعني دواهي ، وكذلك أطرده ، قال طريح :

أمست تصفقها الجنوب وأصبحت زرقاء تطرد القذى بحباب

ويقال طردته فذهب ولا يقال فاطرده ، قال الجوهري : لا يقال من هذا انفعل ولا افتعل الا في لغة رديئة ومثله في المصباح ، وقال سيبويه طردته فذهب لا مضارع له من لفظه(12) ، واقتصر في الأساس على أفعل(13) .

والطرد (بسكون الراء) : الأبعاد ، وكذلك الطرد (بالتحريك)(14) . وطردت الابل طردا (بسكون الراء) ، وطردا (بتحريكها مفتوحة) أي ضممتها من نواحيها ، وأطردتها(15) : أمرت بطردتها أي ضمها .

والماء الطرد (بفتح فكسر) : هو الماء الطرق (بفتح فسكون) لما خاضته الدواب ، لأنها تطرد فيه وتدفعه ، أي تتتابع(16) .

والطَّرد (بفتح الراء) : مزاولة الصيد(17) ، وطردت الكلاب الصيد طردا : نحته وأرهقته(18) ، ومن المجاز : خرج فلان يطرد حمر الوحش أي يصيدها(19) ، وكذلك قولهم : الريح تطرد الحصى ، والأرض ذات الآل تطرد الصحاب طرداً ، ورمل متطارد يطرد بعضه بعضا ويتتبعه ، قال كثير عزة :

ذكرتُ ابنَ ليلى والسماحة بعدما جرى بيننا مورِ النقا المتطاردِ

---

(11) تاج العروس (طرد) .
(12) اللسان (طرد) ، تهذيب اللغة : 13-311 .
(13) أساس البلاغة للزمخشري (طرد) : 277 .
(14) اللسان (طرد) .
(15) تاج العروس (طرد) .
(16) اللسان ، القاموس ، تاج العروس (طرد) .
(17) القاموس ، تاج العروس (طرد) .
(18) اللسان (طرد) .
(19) تاج العروس (طرد) .

المطاردة في القتال : أن يطرد بعضهم بعضا . والفارس يستطرد ليحمل عليه قرنه ثم يكر عليه ، وذلك أنه يتحيز في استطراده الى فئته وهو ينتهز الفرصة لمطاردته ، وقد استطرد له ، وذلك ضرب من المكيدة وفي الحديث : كنت أطارد حية أي أخدعها لأصيدها ، ومنه طراد الصيد ومطاردة الأقران والفرسان وطرادهم : هو أن يحمل بعضهم على بعض في الحرب وغيرها . يقال : هم فرسان الطراد[20] .

المطرد (بكسر الميم وسكون الطاء وفتح الراء) : رمح قصير تطعن به حمر الوحش ، وقال ابن سيده : المطرد (بالكسر) رمح قصير يطرد به وقيل : يطرد به الوحش[21] . وللثعالبي ، المطرد : بين العصا والرمح[22] .

والطِراد (بالكسر) : الرمح القصير لأن صاحبه يطارد به[23] .

وطراد ، ككتان : سفينة صغيرة سريعة السير والجري ، ومن المجاز الطراد : المكان الواسع فيقال فضاء طراد ، وبلاد طرادة واسعة يطرد فيها السرب ، ومن المجاز أيضاً الطراد من السطوح : المستوى المتسع[24] ، ومنه قول العجاج :

وعر تساميها يسير وهس والوعس والطراد بعد الوعس

الطريدة : ما طردت من وحش ونحوه[25] ، . وفي تاج العروس : ما طردت من صيد وغيره[26] .

القنص[27]

قنص الصيد يقنصه (من باب ضرب) قنصا (بسكون النون) وقنصا (بفتحها) واقنصه وتقنّصه : صاد كقولك صدت واصطدت .

وتقنصه : تصيده .

---

(20) اللسان (طرد) ، تهذيب اللغة (طرد) : 13 -310 .
(21) اللسان (طرد) .
(22) فقه اللغة ، الثعالبي : 119 (مطبعة الاستقامة القاهرة) ، تهذيب اللغة (طرد) : 13 -311 .
(23) اللسان (طرد) .
(24) التاج (طرد) .
(25) اللسان (طرد) .
(26) التاج (طرد) ، تهذيب اللغة (طرد) : 13 -310 .
(27) اللسان (قنص) .

والقنص والقنيص : ما اقتنص (بالبناء للمجهول) .

قال ابن بري : القنيص الصائد والمصيد أيضاً .

والقنيص والقانص والقناص : الصائد ، والقناص (بضم القاف وتشديد النون) : جمع قانص .

وقال عثمان بن جنى : القنيص جماعة القانص ، ومثل فعيل جمعا : الكليب والمعيز والحمير .

والقنص (النون ساكنة) : مصدر قنصه أي صاده .

وفي حديث علي : قمصت بأرجلها وقنصت بأحبلها أي : اصطادت بحبائلها . وفي حديث أبي هريرة : وان تعلو التحوت الوعول ، فقيل : ما التحوت ؟ فقال : بيوت القانصة ، كأنه ضرب بيوت الصيادين مثلا للأراذل والأدنياء ، لأنها أرذل البيوت .

وللصائد مواضع يتوارى فيها مخاتلاً الصيد منها :

القرموص

جاء في لسان العرب : القرموص : حفرة الصائد . قال الأزهري : كنت بالبادية فهبت ريح غربية ، فرأيت من لاكِنٍّ لهم من خدمهم يحتفرون حفرا ويتقبضون فيها ويلقون اهدامهم فوقهم يردون بذلك برد الشمال عنهم ويسمون تلك الحفر القراميص ، وقد تقرمص الرجل في قرموصه .

والقرموص : وكر الطائر حيث يفحص في الأرض ، وأنشد أبو الهيثم :

عن ذي قراميص لها محجل

قال : قراميص ضرعها : بواطن افخاذها في قول بعضهم ، قال : وانما أراد انها تؤثر لعظم ضرعها اذا بركت مثل قرموص القطاة اذا جثت ، وفي القاموس المحيط : وفي وجهه قرماص أي قصر الخدين .

وفي اللسان : القرموص : عش الطائر ، وخص بعضهم(28) به عش الحمام ، قال الأعشى :

---

(28) القاموس (القرمص) ، وانظر ديوان الأعشى (دار صادر) : 101 .

وذا شرفات يقصر الطرف دونه ترى للحمام الورق فيهن قرامصا

حذف ياء قراميص للضرورة ولم يقل قراميص ، وان احتمله الوزن لأن القطعة من الضرب الثاني من الطويل ، ولو أتم لكان من الضرب الأول منه .

والقرموص : حفرة يحتفرها الرجل يكتن فيها من البرد ويأوي اليها الصيد ، وهي حفرة واسعة الجوف ضيقة الرأس ، وتقرمص السبع اذا دخلها للاصطياد .

القترة

القترة (بضم فسكون) : كثبة من بعر أو حصى تكون قتراً قترا ، قال الأزهري : أخاف أن يكون تصحيفاً وصوابه القمزة ، والجمع القمز ، والكثبة في الحصى وغيره[29] .

وقتر (بفتح القاف وتشديد التاء المفتوحة) الصائد للوحش اذا دخن بأوبار الابل ، لئلا يجد الصيد ريحه فيهرب منه .

وقتر (مضعف الوسط) للأسد وضع له لحماً في الزبية يجد قتاره . . . . والقتار (بضم القاف) عند العرب ريح الشواء اذا ضهب (بالبناء للمجهول) على الجمر . . . . ، قال لبيد في مثله :

ولا أضنَّ بمعروف السنامِ ، اذا كانَ القتارُ كما يُستَروحُ القُطُرُ[30]

أخبرنا أنه يجوز باطعام اللحم في المحل اذا كان ريح قتار اللحم عند القرمين[31] كرائحة العود يبخر به .

وقتره : صرعه على قترة . وتقتر فلان أي تهيأ للقتال مثل : تفطر وتقتل للأمر تهيأ له وغضب ، عن الفارسي ، والتقاتر : التخاتل ، عنه أيضاً[32] .

ويقال : تقتر فلان عنا وتقطر اذا تنحى ، قال الفرزدق :

وكُنا به مستأنسينَ ، كأنَّهُ أخٌ أو خليطٌ عن خليط تقتَّرا[33]

---

(29) القاموس (القرمص) .

(30) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : 48 (دار القاموس الحديث بيروت) .

(31) القرم (بفتحتين) : شدة شهوة اللحم . انظر القاموس (القرَم) .

(32) اللسان (قتر) وكذا في القاموس ، أساس البلاغة (قتر) : 354 .

(33) لم أجده في ديوانه بطبعتيه .

والقتر (كسر فسكون) : سهم صغير وقال أبو حنيفة : القتر من السهام مثل القطب واحدته قترة ، والقترة والسروة واحد .

الناموس

الناموس قترة الصائد التي يكمن فيها للصيد ، قال أوس بن حجر :

فلاقى عليها من صباحٍ مدمِّرا لناموسِه من الصفيحِ سقائف[34]

قال أبن سيده : وقد يهمز ، قال : ولا أدري ما وجه ذلك .

والناموس : بيت الراهب .

ويقال للشرك ناموس ، لأنه يواري تحت الأرض ، وقال الراجز يصف الركاب يعني الابل :

يخرجنَ منِ ملتبسٍ ملبس تنميس ناموس القطا المنمس

يقول : يخرجن من بلد مشتبه الاعلام يشتبه على من يسلكه كما يشتبه على القطا أمر الشرك الذي ينصب له .

ومن معاني « الناموس » أيضاً :

ما ينمس به الرجل من الاحتيال ، والمكر والخداع ، ودويبة كهيئة الذرة تلكع الناس ، ووعاء العلم ، وجبريل (ع) ، والسر ، وصاحب السر ، والكذاب ، والنمام وهو النماس[35] .

---

(34) ديوان أوس بن حجر : 70 (تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم دار صادر بيروت 1967) .

(35) اللسان ، والقاموس ، وأساس البلاغة : (نمس) .

الباب الأول

دوافع ومواسم وعادات

الفصل الأول
دوافع الصيد

للصيد عدة دوافع وبواعث رددها الشعراء في أشعارهم :

أ ـ تحصيل القوت :

من وسائل ابتغاء الرزق ، والسعي في تحصيله ذكر ابن خلدون : (أن يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه ، وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا)[1] .

وقد اتحد الانسان مع اخيه الانسان على صيد الحيوان الأعجم ، فاغتذوا بلحمه ، واستغلوا شحمه في الاضاءة وعظمه في التدفئة ، واتخذوا جلده سترا ، ومن وبره وشعره وصوفه ملابس وصنعوا منها اشراكاً لصيد آخر وأخبية ، يلجأون اليها اتقاء الحر أو البرد[2] .

ولو قدر للانسان أن يستمر في ممارسة الصيد ، وقتل الحيوان الآخر للاقتيات ، لما عدا كونه حيوانا آكلا للحم يدور في فلك التقليد والمحاكاة ، ولكنه في انتقاله الى مرحلة الرعي خطا أولى الخطوات نحو انسانيته ، وعد بذلك مبتكرا ، لأن حياة الرعي أدت به الى استئناس الحيوان وتربية الماشية ، ولو أننا لا نستطيع أن نحدد كيف ومتى بدأ استئناسه لها ، ولكننا نستطيع أن نقول ، على وجه من وجوه الحدس ، أنه بدأ عندما أبقى على بعض صغار الحيوان القتيل اثر عملية الطرد ، وهذا أن لم يكن المصدر الوحيد لتدجين

---

(1) المقدمة : 382 (المكتبة التجارية بمصر) .

(2) مقدمة كتاب الصيد والطرد عند العرب ، المحقق الدكتور ممدوح حقي : 8-9 .

الحيوان ، فانه من مصادره في الأقل .

وكان الانسان يقتل بعض صغار الحيوان بعد امهاله فترة من الزمن وقد يتخذ من البعض الآخر وسيلة للنقل ، وصار الحيوان شريكاً له في العمل والاقامة(3) .

واتخذ الانسان القطعان من الحيوان ، بعد استحواذه عليها ، منفردا بها لنفسه ، فكانت مصدر للبن الرضاعة ، فخففً عبؤها على النساء وقلت الوفيات بين الأطفال ، ووجد الانسان مورداً لا ينضب للطعام ، وتكاثر الانسان ، وتمكنت حياته رسوخاً واستمرارا ، وقيض لسيادته على الأرض اطمئنان أكثر .

وحين كان الرجل ينصرف الى مزاولة الصيد خارج منزله ، كانت المرأة تعكف على حفر الأرض ، باحثة عن بذور تؤكل ، وتقطف الأثمار من الشجر وتجمع العسل والفطر والحب والغلال التي تنبتها الطبيعة(4) ، ليأكلوا منها ، ويختزنوا الباقي .

وبعد أن لاحظ الطيور النقارة تخزن البندق ، والنحل تخزن العسل وغيرها مما يدخر قوته من الحيوان ، شرع يفكر في العواقب متعظاً بها مقلّداً إياها ، وبمرور الزمن توصل الانسان الى وسائل حفظ طعامه ، بتدخين أو تمليح أو تبريد اللحم ، أو بما بناه من اهراء للغلال تحميها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص ، وتمكن على هذا النحو أن يجتاز أشهر السنة العجاف دون استسلام للقحط والجدب(5) .

ومن أسرار التأريخ التي استحكمت الغازها ، واستعصى حلها والتي ستبقى خالدة ، ونحاول جاهدين فكها ، ولما نظفر الا بالحدس والافتراضات ، هي : متى فطن الانسان الى وظيفة الحبوب ؟ ولربما حين كان ينقل الحبوب النابتة بطبيعتها تساقطت منها على الأرض حبات ، فأنبتت وتنبّه الى سرها العظيم الكامن في نمو وتكاثر النبات(6) .

وحين توضح للانسان (أن الزراعة يمكن أن تكون مورداً للقوت ، أجود نوعاً ، وأثبت أطراداً من الصيد خطا الى الأمام أحدى الخطوات الثلاث التي نقلته من الحيوانية الى

---

(3) المصدر السابق : 15 .

(4) لا تزال بعض القبائل في استراليا ، وهنود وادي ساكرامنتو عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً . أنظر قصة الحضارة : 1 / 16 (ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود) ط3 القاهرة1956) .

(5) قصة الحضارة ، ول ديورانت : 1-16 .

(6) قصة الحضارة : 1-16 .

المدنية ، وتلك الخطوات هي : الكلام ، والزراعة ، والكتابة) (7) ولم يتم كل ذلك بقفزة واحدة ، فالهنود الأمريكيون لما يزالوا في مرحلة الأنتقال ، ومثلهم قبائل بدائية كثيرة ، كما لا يحق لنا القول : أن التحول جرى بمراحل متدرجة ، في وقت كان فيه الصيد حرفة الرجال ، والحرث حرفة النساء ، وهذا يرجع الاعتقاد بأن التحول لم يكمل حتى تمامه (8)

وفي البيئة العربية ، حيث تضنُّ الطبيعة على الانسان بقوته ، فتدفعه الى أن يلتمس عيشه في الصيد ، فتراه كما وصفه امرؤ القيس ، رجلاً امتد به العمر ليس له وسيلة يكسب بها قوته سوى امتهانه الصيد ، فهو يعتمد عليه كل الاعتماد في تدبير شؤون حياته :

مطعـــمٌ للصيد ليس لهُ غيرهـــا كســـبٌ على كبرِه (9)

أو هو فقير ، قليل المال ، لا يملك سوى سهامه وقوسه ، قال ذو الرمة :

قليلُ نصـــابِ المالِ الا سهامَهُ والا زجومـــاً سهـــوةً في الأصابعِ (10)

أو هو كما حدثنا عنه ذو الرمة أيضاً ، قد ورث مهنة الصيد عن أبيه الصياد فهو حاذق لحرفته ، سريع الأخذ لطريدته ، خفيف الشعر ذو أطمار غبراء بالية ، كل ما عنده من مال كلاب معلمة على الصيد ، فهو مرزوق منه ، وهو طعمته وحرفته :

ومطعـــمٌ للصيدِ هبّـــالٌ لبغيتة ألفـــى أبـــاه بذاكَ الكســـبِ يكتسبُ
مقـــزعٌ أطلسُ الأطمارِ ليسَ لهُ الا الضراءُ والا صيدُهـــا نشبُ (11)

وسعيا للحصول على الزاد والطعام ، نجد صياد نبهان ينطلق وبزوغ الشمس ، وقد ترك أصحاباً له في بيته ، ينتظرون ما يعود به من طعام كما أخبرنا الأعشى :

حتـــى اذا ذرَّ قرنُ الشـــمسِ صبَّحَها ذؤالُ نبهـــانَ يبغـــي صحبَـــهُ المتعا (12)

---

(7) المصدر السابق : 1 -17 .
(8) المصدر السابق : 1 -17 .
(9) شرح ديوان أمرىء القيس ، حسن السندوبي : 87 (ط2 القاهرة1939) وكل اشارة له ما لم تثبت خلافه .
(10) ديوان شعر ذي الرمة : 367 (نشره كارليل هنري هيس مكارتيني ط1 لندن1919) . نصاب المال : أي أن الصائد كان فقيرا ـ زجوما : قوساً .
(11) ديوانه السابق : 24 ، حيوان الجاحظ : 4-438 (تحقيق عبد السلام هارون) مطعم الصيد : أي رجل طعمته وحرفته الأصطياد ومطعم (بضم الميم وسكون الطاء وفتح العين) ـ هبال : من الاهتبال وهو سرعة الأخذ ـ والبغية (بالضم) : الطلبة (بفتح فكسر) : ما يطلبه المرء .
(12) ديوان الأعشى الكبير : 105 (شرح الدكتور م . محمد حسين ط1 ، القاهرة1950) ذر : طلع ـ قرن الشمس أول ما يشرق منها ـ ذأل . أسرع ومشى بخفة ، ويقصد بالذؤال هنا الصائد ـ المتع (بضم ففتح) : جمع متعة : يعني يطلب لهم زادا وطعاما .

وقد قست الظروف على الصياد عند الأعشى ، فكان ذا صبية ، قد لازمهم الفقر زمناً طويلاً ، وليس لهم من طعام سوى ما تكسبه الضاريات لهم ، والا باتوا يتضورون جوعا ، فهو في محنة وشدة ، محنة الاب الذي يعز عليه حال أولاده ، لذا يدأب ويلحُّ في المضي ، عله يظفر بوحش يقتنصه ، فيطفيء به لهفة صبيته :

ذو صبية كسبُ تلك الضارياتِ لهم قد حالفوا الفقرَ واللأواةَ أحقابا(13)

وصورة أخرى ، قريبة من تلك ، ومشابهة لها يعرضها ربيعة بن مقروم لصبية الصياد ، لكن الصياد فيها ذو قوس وأسهم ، وليس له غيرها متاع ، وينسبه الشاعر الى بني جلان ، كأنه الداهية التي تحل بالقنيص انطلق للصيد صباحاً ، وفي ذهنه اشباح بنيه الذين يريدون لحماً طرياً وفي عزمه أن يحصل عليه من متقدمات الوحش التي سيلقاها ، فاذا قدر له الفشل : فسيعض الجوع بنيه بأنيابه :

فصبَّح من بني جلان صِلّاً عطيفتهُ وأسهمهُ المتاعُ
اذا لم يجتزرْ لبنيهِ لحماً غريضاً من هوادي الوحش جاعوا(14)

أما بشر بن أبي خازن الأسدي فيولي الصبية عطفاً زائداً ، فهو يصفهم ، بعدما يذكر أن الصياد صاحب الكلاب ، قد بكر عند ارتفاع الشمس وصفائها وانتشار نورها ، مسرعاً بخفة كأنه ذئب ترعرع في سهل من الأرض كثر شجره ، قد علته غبرة ، بأنهم قد شعثت شعورهم ، دمغهم الفقر بطابع العبوس ، وهم كاليعاسيب ، وهو يريد أن يجسد مبلغ حاجتهم الى الطعام ، حتى أصابهم الهزال ، فقال :

وباكرهُ عندَ الشروقِ مكلّب أزل كسرحان القصيمةِ أغبر
أبو صبية شعث تطيف بشخصهِ كوالح أمثال اليعاسيبِ ضُمَّرُ(15)

---

(13) المصدر السابق : 363 . الضاريات ، والضراء ، والضواري : كلاب الصيد المدربة ـ اللأواء : شظف العيش ـ أحقابا : فترة طويلة .

(14) المفضليات : 1 -187 (تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون مصر1361 هـ) بنوجلان : من عنزة ، وهم يوصفون بالرمي ـ الصل : الداهية ، جعل القانص داهية . عطيفته : قوسه .

(15) ديوان بشر بن أبي خازن الأسدي : 84 (تحقيق الدكتور عزة حسن دمشق1960) مكلب : الصياد صاحب الكلاب ـ الأزل : السريع الخفيف ـ السرحان : الذئب ـ القصيمة : سهل كثر شجره الأغبر : الذي لونه كلون الغبار في الغبرة . كوالح : جمع «كالح » أي جاف عبس ـ اليعاسيب : جمع « اليعسوب » وهو طائر أصغر من الجرادة لا يضم جناحيه اذا وقع ، تشبه به الخيل في الضمر ، أي الهزال .

وفي هذا المجال يطل علينا الشماخ بصورة تستدر عطفنا وتثير فينا أحاسيس الأشفاق ، وتلك الصورة واضحة الملامح ، ظاهرة الألوان ، كثيرة الحركة ، فالصياد عامري ، وسخ ، دنس الثياب قد استتر بصفائح ، أسند بعضها الى البعض الآخر ، له خمس بنات صغيرات ، يطفن به ، لا غذاء لهن البتة ، غير الصيد ، وهو خفيف ليس له ما يثقله الا اسهمه وقوسه التي تلوح عليها دماء أوائل وحش اعتاد اقتناصهن :

فوافقهُنَّ أطلسُ عامريٌّ بطيٌّ صفائحٍ مُتساندات
أبو خمسٍ يطُفْنَ بهِ صغارٍ غذوا منهن ليس بذي بتاتِ
مُخِفّاً غيرَ أسهمهِ وقوسٍ تلوحُ بها دماءُ الهادياتِ(16)

ومن أبيات ذكرها الجاحظ ، ولم ينسبها لقائل ، نتلقى معاني فيها توضيح أكثر لظروف الصائد وصبيته ، ففي حديثه عن وعل ، يبين أنه قدر له صائد يقبض على قوس وسهام متشابهة ، قد تخيرهن من اليامة ، بهن يعتاش ، وهو أبو صبية ، لذا يسعى جاهداً ليحصل على صيد يقتاتون به ، فهم فقراء معدمون ، ليس لهم ناقة أو عنزة يستدرون لبنها ، والفصل شتاء ، فصل الضيق والعسر عند العرب ، وللصياد زوج قد ابيض شعرها ، يدرج حولها فطيم تناجيه ، وطفل آخر في حجرها ، فعياله كثيرون ، وحاجته الى الزاد ملحة .

أتيحَ لهُ طِلحٌ أزاهُ بكفهِ هتوفٌ وأشباهٌ تخيرنَّ من حجرِ
أبو صبية لا يستدُر اذا شتا لقوحاً ، ولا عنزاً وليس بذي وفرِ
له زوجةٌ شمطاء يدرجُ حولها فطيمُ تناجيهِ وآخرُ في الحجرِ(17)

أما الحطيئة ففي أربعة عشر بيتاً تنسب اليه ، وصف أعرابياً جواداً ، صاحب صيد ، الوفا للفلوات ، فالأعرابي جائع منذ ثلاث ليال ، شد بطنه بالخرق من الجوع ،

---

(16) ديوانه 4 (مطبعة السعادة القاهرة 1327 هـ) .
الأطلس : الوسخ الدنس الثياب ـ عامري : نسبة الى بني عامر ـ أبو خمس : أي للاطلس المذكور خمس بنات ـ غذوا منهن : أي لا غذاء لهذه البنات الخمس غير الصيد لفقر ابيهن ـ البتات : الزاد أي ليس له شيء ـ الهاديات : أوائل الوحش .

(17) الحيوان : 4 -439 ـ440 . أتيح له : أي قدر للوعل ـ الطلح (بالكسر) : المعى ، أراد به صيادا ـ أزاه : سبب عيشه وأصله ازاء ـ الهتوف : القوس المرنة ذات الصوت ـ أشباه : سهام متشابهة ـ حجر (بفتح فسكون) : اليامة ـ لقوح (فالفتح): الناقة الحلوب ـ الوفر (بالفتح) : الغني .

محتاج يسكن صحراء ليس فيها سواه ، فغلظت طباعه ، وأحب العزلة ، وهو لا يألف الناس ، ومن شدة نفوره باتت هذه الصحراء ، في رأيه ، نعيماً وسعادة :

وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مرملِ ببيداءَ لم يَعْرفْ بها ساكنٌ رسما
أخي جفوة فيهِ من الأنسِ وحشةٌ يرى البؤسَ فيها من شراستهِ نُعمى

قد اعتزل الناس في شعب ، وسكن مع زوجته وأولاده الذين يشبهون الأشباح ، وكان أولاده حفاة الأقدام ، عراة الأجسام ، لم يأكلوا القمح طوال حياتهم :

تفرَّدَ في شعبٍ عجوزاً ازاءَها ثلاثةُ أشباحٍ تخالهُم بهما
حفاةٌ عراةٌ ما اغتذوا خبزَ مَلَّة ولا عرفوا للبُرِّ مُذْ خُلِقوا طَعما

هذا الرجل ذو الحال السيئة، الذي يعاني الجوع والضنك ، ألمَّ به ضيف فاستعد للقائه واكرامه ، ولكن لا بد للضيف من قرى ، وحين أحس ابنه بحيرته ، عرض عليه أن يذبحه ، فييسر طعاماً لضيفه ، لأن اعتذاره بالفقر قد لا يلقى قبولاً لدى الضيف ، ظناً أنهم أغنياء فيذمهم بين الناس :

رأى شبحاً وسطَ الظلام فراعَهُ فلما بدا ضيفاً ، تشمَّرَ واهتما
فقال ابنهُ لمَّا رآهُ بحَيْرَة أيا أبتِ اذبْحني ويَسِّر به طعما
ولا تعتذرْ بالعُدمِ علَّ الذي طرا يظنُّ لنا مالاً فيُوسعنا ذمَّا

وازاء هذا الموقف شرع يفكر ، تتنازعه احاسيس شتى ، ابن يذبح وضيف بدون طعام ، وظل موزع اللب، شارد الذهن تستبد به حيرة حيرى، ثم وجدت كلمات طريقها الى لسانه ، فناجى بها ربه ، شارحاً حاله :

هيا رباه ، ضيف ولا قرى ؟ وتضرع اليه الا يحرمه هذه الليلة من اللحم ، وبينما هما في حيرة اذ أقبل قطيع من حمر الوحش يسير صفوفاً منتظمة وراء قائده عطاشاً تريد الماء ، فتسلل اليها بهدوء ، دون أن يحدث صوتاً ، وكان القطيع يقصد الماء ليطفيء عطشه ، وكان الرجل أظمأ منها الى دمائها ، متلهفاً الى صيد احدى الاتن ، ورغم كل ذلك انتظرها حتى تروت عطاشها ، ثم أطلق من كنانته على احداهن سهماً ، فسقطت أتان وحشية سمينة ، قد امتلأت لحماً وشحماً :

فروَّى قليلاً ثم أحجمَ برهةً وان هو لم يذبحْ فتاهُ فقد هماً
وقال : هيا رباه . ضيفٌ ولا قرى بحقكَ لا تحرمهُ تا الليلةَ اللحما

فبيناهُم ، عنَّت على البعدِ عانةٌ قد انتظمتْ من خلفِ مسحلها نظما
ظماءً تريد الماءَ فانسابَ نحوها على انَّه منها الى دمها اظما
فأمهلها حتى تروَّتْ عِطاشُها فأرسلَ فيها من كنانتهِ سهما
فخرتْ نحوصٌ ذاتُ جحشٍ فتيةٌ قد اكتنزتْ لحماً وقد طبقت شحما(18)

ونعتقد أن خلاصة الوقائع التي عكستها مجموعة الأبيات التي ذكرناها ، وحللناها آنفا ، كافية لرسم صورة واضحة المعالم ، تجسد لنا واحدا من دوافع الصيد ، ونعني به الحاجة وتحصيل القوت ، ونحن مع الألوسي حين يقول عن العرب : (ومنهم من كان يعيش على صيد البر والبحر)(19) .

ب ـ الدفاع عن النفس :

ومن الدوافع الأخرى التي رافقت الانسان منذ فجر حياته ، وحملته على ممارسة الصيد والطرد ، الدفاع عن النفس (وذلك لأن الصيد لم يكن سبيلاً الى طلب القوت وكفى ، بل كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسعادة)(20) ، وان كان بعضهم في الجاهلية وفي عصور تلتها يتخذ الصيد والطرد لهواً ومتعة ، يتلمسون فيه اللذة ، فلقد سوغ (ول ديورانت)(21) ذلك على أنه من بعض ذكرياتنا الغامضة الراسخة في دمائنا ، والتي تعيد لنا أيامنا القديمة ، عصر كان الصيد عند الصائد والطريدة أمرا تتعلق به الحياة أو الموت ، وبات الانسان بغريزته يتحين الفرص للايقاع بباقي الحيوانات ، (والفرق بين سائر أنواع الحيوان التي تصطاد وبينه ، أنها لا تتوسل الا بقواها الفعلية الطبيعية من ناب ومخلب ومنسر)(22) في وقت (هداه عقله وذكاؤه وتجاريبه ، فتفنن في أساليب الفتك والهتك

---

(18) ديوان الحطيئة : 396-399 (تحقيق نعمان أمين طه ، القاهرة1958) الطاوي : الجائع ـ عاصب البطن : الذي يتعصب بالخرق ويشدها على بطنه من الجوع . مرمل : محتاج ـ تفرد : اعتزل الناس ـ البهم : جمع بهمة وهي ولد الضأن والماعز . طرا : أصلها طرأ ـ هيا : حرف نداء ـ عنت : عرضت ـ عانة : قطيع الأتن ـ انساب : سار اليها بهدوء على أطراف أصابعه من غير أن يحدث صوتاً ـ خرت : سقطت ـ النحوص : الاتان الوحشية طبقت شحماً : امتلأت حين عمها الشحم .

(19) بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ، السيد محمود شكري الألوسي : 3-418 (ط2 ، المطبعة الرحمانية بمصر1343 هـ ـ 1925 م) .

(20) قصة الحضارة : 1-13 .

(21) قصة الحضارة : 1-13 .

(22) مقدمة الصيد والطرد عند العرب : 7 .

والتخدير والتسميم والتحايل ، ونصب الشراك والشباك ، واحتفار الزبى واستعداء بعض الحيوان على بعض ، وتدجين الطير الجارح ، والسبع الضاري واستخدامه في القنص والصيد لفائدته وربحه ، كالصقر والعقاب والبازي والكلب والفهد والنمر . .)[23] .

وفي قصيدة تقع في أربعة وعشرين بيتاً ، نسبها النويرية[24] الى بشر بن عوانة الفقعسي ، ويصف فيها ملاقاته للأسد ، وما كان بينهما ، نتلمس بعض وجوه الصراع بين الانسان والحيوان دفاعاً عن النفس ، مطلعها :

أفاطمُ لو شهدتِ ببطنِ خَبْتٍ وقد لاقى الهزبرُ أخاكِ بشرا[25]

فلقد كان بشر هذا يطلب مهرا لابنة عمه التي يحبها ، فصادفه أسد يروم قوتاً لأشباله :

وأنتَ تروم للأشبالِ قوتا وأطلبُ لابنةِ الأعمامِ مهرا

ولم يشأ بشر أن يبقى على فرسه ، حين وجده يتراجع تهيباً وخوفاً وأدرك أنه معقور لا محالة ، ففضّل النزول الى الأرض لأنها أثبت من مهره ظهراً :

تبهنسَ[26] اذ تقاعس عنه مهري محاذرة فقلت : عقرت مهرا
أنِل قدميَّ ظهر الأرضِ أني وجدتُ الأرض أثبت منكَ ظهرا

وقد تيقن بشر الشر في عدوه الأسد ، حين أكفهر وجهه ، وكشر عن أنيابه ، وشرع مخالبه ، والشرر يتطاير من عينيه ، تحسس ساعتئذ بشر سلاحه ، فكان سيفاً تركت منازلة الأبطال على حده ثلوما وندوبا ، وأخذ يخاطب الأسد مفتخراً بسيفه الذي نازل به عمراً في كاظمة ، ثم أطرى بسالته ، فهو شجاع ، حديد القلب ، لا يخشى مصاولة الخصوم مثله تماماً ، وكأنه بحديثه هذا يلملم شتات شجاعته ويرغب في أيقاظ قواه :

وقلت له وقد أبدى نصالاً مذربةً ووجهها مكفهراً

---

(23) المصدر السابق : 7 .

(24) نهاية الأرب : 9/239 ـ240 . لاحظ الهامش حيث لم يستطع المصحح التثبت من شخصية الشاعر ، ونقل قول الشيخ محمد عبده أن بعض الرواة نسبها الى عمرو بن معد يكرب ، وأنه بين أن الحادثتين مختلفتان ، ولم يذكر الأصفهاني هذه الحادثة في اخبار عمرو بن معد يكرب ، انظر الأغاني (دار الكتب) : 208-209 .

(25) خبت بفتح فسكون : المتسع من بطون الأرض ـ الهزبر : الأسد .

(26) تبهنس الأسد : أي تبختر .

يدل بمخلبٍ وبحدِ نابٍ   وباللحظات تحسبهنَّ جمرا
وفي يُمْنايَ ماضي الحدِّ أبقى   بمضربه قراعِ الموت أثْرا
ألم يبلغْك ما فعلتْ ظباهُ   بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبي مثل قلبكِ لستُ أخشى   مصاولةً ولستُ أخافُ ذعرا(27)

وعندما بلغ الصراع مرحلة المواجهة ، أراد بشر بذل النصح للأسد وكأنه قدر مشروعية مسعاه في توفير القوت لأشباله ، وأشار عليه أن يلتمس غيره طعاماً ، ففي لحمه مرارة ، الا أن الأسد شك في نصحه ، وخيل اليه أن غش من خصم ، فاقترب من بشر ، ولكن ذلك لم يفزعه ، فاقترب أيضاً فكانا أسدين ، هدف كل واحد منهما صعب ، ولما تهيأ الأسد للوثوب حيث كفكف احدى يديه ، وبسط الثانية أخذ بشر يهز له حساماً لامعاً ، فكأنه فجر بزغ فشقق الظلماء ، وهو حسام ماضٍ لو رقي المنايا لخضعت له ، وأعطته عذرا ، وضربه ضربة اخترقت جسد الأسد الى الجوف فتلاشت كل آماله في أن تخطئه الضربة ، ويكسب المعركة ، ويظفر بقوت أشباله :

وأنت ترومُ للأشبالِ قوتا   وأطلبُ لابنة الأعمام مهرا
ففيم ترومُ مثلي أن يولى   ويترك في يديك النفسَ قسرا
نصحتُكَ فالتمسْ يا ليثُ غيري   طعاما انَّ لحمي كان مُرًّا
ولما ظنَّ أنَّ الغشَ نصحى   وخالفني كأني قلتُ هجرا
دنا ودنوت من أسدين أمًّا   مراما كان اذ طلباه عسرا
يكفكفُ غيلة احدى يديه   ويبسطُ للوثوبِ عليَّ أخرى
هززتُ له الحسامَ فخلتُ أنيَ   شققتُ من الظلماء فجرا
حساما لو رميت به المنايا   لجاءت نحوهُ تعطيه عذرا
وجدْتَ له بجائفة رآها   بمن كذبته ما منته غدرا(28)

والضربة كانت قاطعة ، فبعد ما كان الأسد كالجلمود واحداً ، تركته تلك الضربة قطعتين، وأنهار كالبناء الشامخ، مضرجاً بدمائه وتأسف بشر لنهاية الأسد نظيره في البأس

---

(27) المذربة : الحادة ـ الأثر (بضم الهمزة) : أثر الجرح وقد استعاره هنا للثلوم التي تكون في السيف في مقارعة الأبطال ـ كاظمة: منخفض من الأرض على سيف في طريق البحرين في البصرة ، بينهما وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها .

(28) القسر : القهر ـ من أسدين : أي فيا لهما من أسدين ـ أما : قصدا ـ الجائفة : الطعنة التي تخالط الجوف .

والشجاعة، وبدأ يعتذر، ويوقع اللوم على الأسد، أنه كان يهدف شيئاً لم يقصده غيره، مما أثار بشراً، ولا سيما حين أدرك رغبة الأسد في أن يلحق به الهزيمة، وهذا شيء بعيد منكر، ثم أخذ يخفف من وقع المصيبة على الأسد قائلا له: لا تبتئس فلقد نازعت حرا، ومت حرا:

بضربـةِ فيصـلٍ تركتْـهُ شفعاً وكان كأنـه الجلمـودُ وترا
فخـر مضرجـاً بدم كأنّي هدمـتُ به بنـاءً مشمخِرا
وقلـت له: يعـزُّ عليَّ أني قتلـتُ مناسبـي جَلـدا وقهرا
ولـكن رمـتَ شيئـاً لم يرمْهُ سواك فلـم أطـقْ يا ليثُ صبرا
تحـاول أن تعلّمَنـي فراراً لعمـر أبيك قد حاولـت نكرا
فلا تبعـد لقـد لاقـاك حرٌّ يحـاذر أنْ يُعـابَ فمُـتَّ حرا

وهكذا وقعنا على احدى صور الصراع بين الانسان والحيوان، لحظة يكون الدفاع عن النفس واحداً من دوافع الصيد.

وفي الأغاني أخبار عن الأسد وأبي زبيد الطائي، لا تخلو من طرافة وهي أيضاً من صور صراع الانسان مع هذا الحيوان، ولكنه لجبن أبي زبيد لم يبلغ درجة قتل الأسد(29).

ومن غريب ما رواه الأصفهاني عن القتال الكلابي، أنه (أصاب دما) فطلب به، فهرب الى جبل يقال له عماية، فأقام في شعب من شعابه، وكان يأوي الى ذلك الشعب نمر فراح اليه كعادته، فلما رأى القتال كشر عن أنيابه، فجرد القتال سيفه من جفنه، فربض بازائه، وأخرج براثنه، فسل القتال سهامه من كنانته فضرب بيده وزأر، فأوتر القتال قوسه وانبض وترها فسكن النمر وألفه)(30).

ويذكر الأصفهاني: أن النمر كان يصطاد الأروي، ويأتي بالصيد ويضعه بين يدي القتال، فيأخذ منه شيئاً لقوته، ويترك الباقي للنمر وكذلك يفعل القتال حين يخرج

---

(29) الأغاني (دار الكتب): 12 /27 ـ128، 128 -131, 132 -133 وكل اشارة تكون الى هذه الطبعة ما لم نثبت خلاف ذلك. فيصل: قاطع ـ شفعاً: أي قطعتين، فقد كان الأسد فرداً: أي كتلة واحدة كالصخر ـ جلداً ـ بفتح فسكون: شديدا.

(30) الأغاني (دار الفكر ـ بيروت): 382/20 ـ383.

يصطاد الحيوان بنبله ، وكان اذا ورد القتال الماء وقف النمر حتى يشرب، وكذلك يفعل القتال مع النمر ، وفي ذلك قال القتال :

كلانا عدوٌ لا يرى في عدوهِ مَهَزاً وكلٌ في العداوة مُجْمِلُ(31)

ومن مظاهر صراع الانسان مع الوحش المفترس ، التي تنتهي بقتل الحيوان دفاعاً عن النفس ، ما أبرزه لنا الطرماح بن حكيم ، اذ ألم به دون موعد ليلاً ذئب ، قد ألف القفار ، يقضي فيها نهاره دون أن يستظل وانما يعاني وقد الهواجر فيظمأ ويجوع :

تأوبني فيها على غير موعد أخو قفرة يُضحى بها ويجوع

وكان ذلك الذئب خفيفاً سريعاً ، ويبدو كالذي أشكلت قوائمه بحبل ، بسبب اقعائه ، وهو لا ينفك يقظاً ، كالرجل المرتاب ، يقظان أبداً ، ولكن الطرماح سارع الى القاء رحله ، فجلس الذئب مجتمعاً بعضه الى بعض ، يشبه شفا واد مائل :

من الزُلِّ هزلاجٌ ، كأن برجلهِ شكالاً من الاقعاء وهو قلوعُ
كذي الظنِّ لا ينفك عوضُ كأنَّهُ أخو جهرة بالعينِ وهو خدوعُ
فألقيتُ رحلي ، واحْزَألَّ كأنَّهُ شفاً مجنحٌ ،في منحناه ضجوع(32)

وخاطب الذئب محذراً اياه : يا ذئب اعلم ، لا تخن ، ولا تثق بالليل فهو غدور ، ذو ريبة ، فلا تعوِ ، وتحصَّن ، فانك أن تعو تلق حتفك ، فستتجمع الذئاب حولك ، ويصيبك سهمي ، فتنقض عليك . وفي شعر الطرماح تهديد للذئب :

فقلت : تعلَّمْ يا ذؤال ، ولا تخنْ ولا تخنعْ لليلٍ ، وهو خنوعُ
ولا تعوِ واستحرز ،وان تعوِ عية تصادف قرى الظلماءِ وهو شنيعُ

ويبدو أن الذئب لم يعبأ بتهديد الطرماح ، فعوى الى جهة الشمال ، فسدد اليه سهماً ورماه ، وطالما مارس هذا العمل مع سباع غيره :

فلما عوى لفتَ الشمالِ سبعتُهُ كما أنا أحياناً لهن سبوعُ(33)

---

(31) المصدر السابق : 20-383 . مهزاً : حركة .

(32) ديوان الطرماح : 307 -309 (تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق 1968) تأوبني : أتاني ليلا ـ الزل : جمع أزل وهو الخفيف من صفات الذئب ـ الهزلاج : السريع الخفيف ـ احزأل : أي جلس مجتمعاً بعضه الى بعض ـ المجنح : المائل ـ ضجوع : الميل والانخفاض ها هنا ـ عوض : الدهر ، معرفة علم بغير تنوين وهو ظرف للمستقبل ، كما أن قط للماضي من الزمن .

(33) ديوان الطرماح : 308-309 . ذؤال : أصله ذؤالة فحذف للترخيم وهو اسم للذئب معرفة لا ينصرف ، سمي به لخفته في عدوه ، من ذأل ـ الخنوع : الغادر ـ لفت الشمال : جهة الشمال ـ سبعته : رميته بسهم ـ لهن : يريد الذئاب أو السباع .

جـ ـ الرياضة والمتعة :

مما مر ندرك (أن الانسان في ابتداء أمره اصطاد في البر والماء لاقتياته ، واخترع بعض الآلات لأجل ذلك ، ولكن على سبيل التدريج . . فكان القنص من ضروريات حياته لسد جوعه واقتياته وللباسه)(34) ، وانصرف الانسان الى ممارسة الصيد في بعض الأحيان للدفاع عن نفسه ، ليبعد الحيوان المفترس عنه ، ولكن مزاولة الصيد لم تقتصر على هذين الغرضين بل تعدتهما الى ممارسته لهواً وتسلية(35) .

وفي ما وردنا من آثار العرب أشعار كثيرة ، نستشف منها أن الطرد كان يمارس لهوا وتسلية ، ويستهويهم (فيه رياضة وتدريب وتنشيط للبدن ، وتعويد للمرء على الصبر ، وتَسَلٍّ للخاطر المهموم)(36) ، وحين يذكر الدكتور ممدوح حقي في مقدمته لكتاب حققه(37) : أن الانسان لم يعد بحاجة ملحة الى التغذي بلحم الحيوان النافر ، والوحش الآبق فانما يريد أن يعلل استمرار الانسان الى عصرنا الراهن في مطاردته الوحش واقتناصه لها ، بانه اشباع لنهم غريزته الأولى المنبثقة من أعماق عقله الباطن ، العقل الذي واكب حياته (يوم كانت الحرب بينه وبين الحيوان سجالاً ، يشقى بها تعس الحظ منهما ، فيقع في فك عدوه لقمة سائغة ومضغة لينة غريضة)(38) .

ومهما يكن التسويغ النفسي أو الاجتماعي للدافع الترفيهي للطرد ، فاننا واجدون في شعر امرىء القيس ذكراً لمزاولته الصيد ويقينا أن امرأ القيس ـ وهو ابن ملك ـ حين مارس الطرد ، فانه كان يقصد اللهو والتسلية الترفيه ، وهو يفخر بفرسه الذي ينطلق به باكراً ، في وقت لما تزل الطير فيه في أعشاشها ، وهذا دليل التبكير ، ثم يصف فرسه بأنه قليل الشعر ، ولسرعة ركضه ، ولحاقه بها ، فكأنه يقيدها ، ويمنعها الركض ، وهو عظيم الجرم :

وقد اغتدي والطيرُ في وكناتِها بمنجرد قيد الأوابد هيكل(39)

---

(34) روضة السلوان ، أبو اسحق ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجي : 9 (ط1 ، الجزائر 1378 -1959) .

(35) المصدر السابق : 10 .

(36) المصدر السابق : 11 .

(37) نزهة الملوك والسادات بالطيور الجوارح والخيل الصافنات ، مؤلفه مجهول ، واسماه المحقق : الصيد والطرد عند العرب ، المقدمة 9-10 .

(38) المصدر السابق، المقدمة : 10 .

(39) شرح ديوان امرىء القيس : 133 ، وانظر أيضاً 110! أغتدي : اذهب باكراً ـ الوكنات : جمع الوكنة : عش الطائر ـ المنجرد القليل الشعر ، صفة للفرس المحذوف ـ الأوابد : الوحوش ـ الهيكل : العظيم الجرم .

ومن الأوصاف التي عرضها امرؤ القيس نرى أن فرسه ظهرت على نحره دماء الطرائد المتقدمات ، فكأنها عصارة الحناء في شعر الأشيب المسرح :

كأن دمـــاءَ الهـــاديات بنحرهِ عصـــارةُ حنـــاء بشيبٍ مرجلِ

وقريب من هذه المعاني ما نجده في شعر علقمة بن عبدة ، ولكن طراد الهوادي لم يخضب نحو جواده بالدماء ، وانما هزله :

وقـــد اغتـــدى والطـــيرُ في وكناتِها وماءُالنـــدى يجـــري على كل مذنب
بمنجـــرد قيد الأوابـــدِ لاحَهُ طرادُ الهـــوادق كل شأو مغرِّب(40)

وفي ديوان حميد بن ثور الهلالي بيت يصف الفرس ، بأنه قد اضمره القنيص والطرد ، وما سال من عرقه حتى اشتد لحمه بعد رهله :

طواه القنيصُ وتعداؤه وارشـــاشُ عطفيهِ حتـــى شسَبْ(41)

وممن زاول الصيد رياضة ومتعة المرقش الأصغر ، فهو يخرج غدوة على فرس صافي اللون ، يشبه طرف السعفة ، يقصد ضموره وجدله ، عليه الجلال صوناً له حتى صار لكثرة طراده للوحوش شديد الضمور :

غدونـــا بصـــاف كالعسيبِ مجلَّلٍ طوينـــاه حينـــا فهـــو شِزْب ملوح(42)

أما الحارث بن حلزة اليشكري فلم يبق بمعزل عن الطرد ، فلقد امتطى فرسه الطويل ، وقصد وادياً تكثر فيه الظباء ، فذعرت حين ادركت انما يريد صيدها :

ومدامـــة قرعتُهـــا بمدامة وظبـــاء محنية ، ذعـــرتْ بسمحجِ(43)

ورثت الخرنق بنت بدر زوجها ، بشر بن عمرو ، ومن محامده التي لم تنسها امتطاؤه صهوة فرسه ، ذي الشعر القصير والنشاط ، وذي القوائم الغليظة القوية التي لا

---

(40) شرح ديوان علقمة الفحل : 31 (طبعة دار الفكر للجميع ، بيروت 1968) والقصيدة ذكرت أيضا في شرح ديوان امرىء القيس للسندوبي : 44 . المذنب : مسيل الماء الى الرياض ـ لاحه : اهزله ـ المغرب : البعيد .

(41) ديوان حميد بن ثور الهلالي : 42 (دار الكتب المصرية 1951) والقصيدة تحمل على أبي دؤاد الأيادي ، والبيت في اللسان (رشش) لأبي دؤاد ، وله أيضاً ما ذكره الجاحظ في الحيوان 4-365 في ذكر الصيد وذكر فرسه .

(42) المفضليات : 2-42 . الشزب : الضامر ـ الملوح : الشديد الضمر .

(43) ديوان شعر الحارث بن حلزة اليشكري : 698 : (نشره العلامة المستشرق فريتس كرنكو في مجلة المشرق ، المجلد العشرون ، العدد الثاني آب 1922) وانظر كذلك : المفضليات : 2-56 . التقريع : أن يشرب واحدا ثم يثني بآخر . أي قرعت الأول بالثاني ـ المحنية الوادي ، والوحوش تالفه ـ السمحج : الفرس الطويل .

تعثر ، ولا تكبو ، وخروجه لصيد الوحش ، والتقاط البيض الذي تضعه النعام جنب العشب :

قاد به أجردَ ذا معيعة عبلاً شواهُ غير كابٍ عثورِ
فألبسَ الوحشَ بحافاتهِ والتقطَ البيضَ بجنبِ السديرِ[44]

ويحرص زهير بن أبي سلمى على تعويد فرسه طراد الصيد ، وفي كل يوم يمارس تمرينها حتى الاجهاد ، فيتصبب عرقها دفعات ، فتسيل الى أن تبلغ سنابكها ، ويقصد بذلك تضميرها ، ليتسنى لها ادراك الطرائد بيسر وسهولة :

نعودُها الطِرادَ فكل يوم تُسَن على سنابكها القرونُ[45]

ويبدو أن زهيرا ، بعد أن يثق من تمرين فرسه ، ينطلق بها قريباً من الحي ، حيث حمر الوحش البيض البطون ، ترتع في الأودية ، وعلى رواب من طين ذات كلأ جيد ، وانما وصفها بمراتعها هذه ، لأنه أشدُّ لعدوها :

وقد أروحُ أمامَ الحي مقتنصا قُمْرا مراتعُها القيعانُ والنبكُ[46]

وفرس النمر بن تولب (+) سريعة اللحاق بالصيد الذي يرجو الله أن يهبه أياها ، والله هو الذي يحصب الناس رزقهم ، وفرسه هذه نشطة ، تلحق حمار الوحش ، وترده عن أخيه ، وهما يجريان معاً في قاع منبسط ، حيث يرعيان ، قبل أن ينقشع الغبار ويزول :

لنا فرسٌ من صالحِ الخيل نبتغي عليها عطاءَ اللهِ ، واللهُ ينتحلُ

---

(44) ديوان شعر الخرنق بنت بدر بن هفان : 35 (تحقيق الدكتور حسين نصار القاهرة1969) .
الميعة : النشاط ـ شواه : قوائمه ـ عبل : غليظ ـ البيض : تعني بيض النعام ـ السدير : نهر ، ويقال قصر في الحيرة ، والسدير : العشب .

(45) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : 187 . الطراد : الصيد ـ تسن : تصب ـ سنابكها : حوافرها ـ القرون : جمع (القرن ـ بفتح فسكون » : الدفقه من العرق

(46) المصدر السابق : 169 .
قمر (بضم القاف وسكون الميم) : حمر الوحش البيض البطون ـ النبك : رواب من الطين .

(+) النمر بن تولب صحابي يعد من المخضرمين ، وهو من عكل ، عمر طويلا حتى خرف ، شبهوا شعره بشعر حاتم الطائي ، وهو جواد ، واسع العطاء ، كثير القرى ، وهاب لماله (خزانة الأدب السلفية)! 29 ـ292 .

يردُ علينـا العـيرَ من بعـدِ الفهِ   بقرقـرة والنقـعُ لا يتزيلُ(47)

وقد ذعر الحطيئة قطيعاً من الوحش ، بفرسه النشيط ، يقصد صيدها ، وفرسه حين ينطلق اثر الوحش ، تبدو منه العزيمة والتصميم في أول جريه ، ولعل انصرافه الى وصف فرسه ليثبت جدارته ، وليبين اصالته وقدرته ، ولا سيما حين أوضح أن له متن حمار وحش ، وساقي ظليم ، عظيم الجوف ، وبذا يدل حزامه :

وسرب ذعـرتُ بذي ميعة   ترى في المغـيرةِ منـه اعتزاماً
له متـنُ عـيرٍ وساقـا ظليمٍ   ونَهـدُ المعـدَّيْن ينبـي الحزاما(48) .

ومن دواعي افتخار سحيم بفرسه ، أنه سابق ، يلحق حمار الوحش ، فيرده عن أتانه ، ويدرك أيضاً ثيران الروضات الرملية التي تنبت الغضى ، فتميل عنه خوفاً وحذرا :

يردُّ علينـا العـيرَ من دون ألفه   وثـيرانُ روضـاتِ القصيمـةِ عنَّدا(49)

وقريب من تلك المعاني والصور ما أفصح بها عبد الله بن سلمة(50) وابن مقبل(51) ، والشمردل بن شريك اليربوعي(52) ، والفرزدق(53) .

أما أبو نواس فانه عاش عصر بني العباس الذين (ازداد فتونهم بها [الصيد والاستجمام] ، واهتموا بالصيد وآيينه اهتماماً عظيماً(54) ولا سيما محمد الأمين فلقد عرف أنه

---

(47) شعر النمر بن تولب : 90-91 (صنعة الدكتور نوري حمودي القيس بغداد1969) وانظر جمهرة أشعار العرب للقرشي : 201 (المطبعة الرحمانية بمصر1345 هـ-1926 م) . ترد : تلحقه حتى ترده - العير : حمار الوحش - القرقرة : القاع المنبسط حيث يرعى حمار الوحش وغيره - النقع : الغبار - لا يتزيل : قبل أن ينقشع الغبار ويذهب وهذا كناية عن سرعة عدوه .

(48) ديوان الحطيئة : 388 .

(49) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس : 42 (تحقيق عبد العزيز الميمني ط1 القاهرة1369 -1950) القصيمة في الرمل : ما نبت الغضى . عند (بضم العين وفتح النون المشددة) : مائلة في خوفها .

(50) المفضليات : 1-102 .

(51) ديوان ابن مقبل : 94 (تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق1381 هـ-1962 م) .

(52) التذكرة الحمدونية ، لابن حمدون بن الحسن بن حمدون (مخطوط) : 5-344 (معهد الدراسات الاسلامية ببغداد رقم 1276) .

(53) شرح ديوان الفرزدق : 1-4 (تحقيق عبد الله الصاوي ، القاهرة1354 هـ 1936 م) .

(54) الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع ، بقلم الدكتور محمد أسعد طلس : 287 (مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني الجزء الثاني ، 1371 هـ-1952 م) .

شديد الانهماك في الصيد ، وأحرص عليه من كل من سبقه (وأكثر طرد أبي نواس معمول في جوارح محمد وضواريه ، مثل قوله :

فأمتـــعَ اللهُ به الأميرا ربــــي ولا زالَ به مسرورا)[55]

وفي طرديات أبي نواس تبلور هذا الفن ، واتخذ له شكلاً مميزاً ، وبحراً مخصصاً هو الرجز ، واتسمت القصيدة بوحدة الموضوع وليس اختيار بحر الرجز ووحدة الموضـوع وحدهما، يثيران الانتباه الى هذا اللون الجديد من فنون الشعر ، وانما اختـلاف وسيلـة الصيد أيضاً .

---

(55) المصايد والمطارد : 5 .

الفصل الثاني
مكانة الصيد عند العرب

1 ـ كلفهم بالصيد

الفروسية والفتوة والصيد والطرد من مظاهر البداوة ، رافقت الحياة العربية في الجاهلية ، ولازمتها في العصور الاسلامية ، وتلقت نصيبها من التطور ، حتى استقطبت كلها في العصر العباسي المتأخر وبات لها رجالها ومريدوها بشكل لم ينجح من صرامة ، وصار من سمات الفتى الفارس أن يجيد الرمي والصيد ، ويتقن الفروسية والطرد ولا سيما في عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي فأنه (جدد أصول الرمي بهذه القوس[1] ، واعتده من كمالات الفتوة وافانين الشجاعة والقوة[2] .

وفي دراسة الصيد والطرد يحسن منا أن نولي الفروسية والفتوة شيئاً من الاهتمام ، ونبين صلتهما بموضوعنا ، وندعم ذلك بالنصوص ما استطعنا الى ذلك سبيلاً .

واذا بدأنا بتقصي الصلات اللغوية بين تلك الألفاظ نجد من معاني « الفرس »[3] ، دق العنق ، وكل فرس قتل ، ولسنا نجهد كثيراً في اكتشاف الصلة بين الفرس والصيد والطرد ، فكلها تؤدي الى القتل ابتداء أو انتهاء[4] ، وليس في مقدور أحد أن يفترس أو

---

(1) يعني رمي الطيور بالبندق عن قوس البندق .

(2) طيور الفتوة وأثرها في الأدب ، الدكتور مصطفى جواد : 99 (مجلة العربي ، الكويت ، العدد 14 مايو (مايس) 1968) .

(3) القاموس (فرس) .

(4) اللسان (صيد) .

يصيد أو يطرد وحشاً أو شيئاً آخر ما لم تتوافر له القوة ، وهي وجه من وجوه الفتوة والشباب ، وصلتهما واضحة ، فالفتوة مأخوذة من الفعل فتو يفتو فتاء ، من الباب الخامس ، والفتاء (بكسر الفاء) الشباب والفتى والفتية الشباب والشابة ، ويقال فعل ذلك في فتائه ، وقد فتي (بالكسر) يفتى فتى ، فهو فتى السن بَينٍّ الفتاء(5) ، ولقد وجدنا في القاموس : (الفتاء كسماء الشباب ، والفتى الشاب ، والسخي الكريم)(6) وجاء أيضاً : (والفتوة الكرم)(7) ، وصلة الفتوة ـ كما يبدو ـ بالسخاء والكرم كصلتها بالقوة والشباب فكأنهم (لاحظوا أن القوة أكثر ما تستمد في وسطهم من الكرم والحرية)(8) .

وبعد هذه الجولة اللغوية القصيرة ، يطيب لي أن ننصت الى صدى تلك المفاهيم في الشعر العربي ، نجد طرفة يتخذ من نفسه مثالاً للفتى ، لأنه يتخلق بسجايا يعتقد أنها من مستلزمات الفتوة ، ومنها اذا تساءل القوم عن واحد ينقذهم في الملمات ويسارع الى نجدتهم ، فلا يحلو لهم أن ينادوا سواه ، معتقدين أن خصال الفتوة متواجدة فيه ، فسرعان ما ينطلق الى ناقته يحثها بالسياط لتنشط في سيرها ، فيدرك الانجاد دون ابطاء :

اذا القوم قالوا مَنْ فتىً خلتُ أنني … عنيتُ فلم أكسلْ ولم أتبلد
أحلتُ عليها بالقطيعِ فأجذمت … وقد خبَّ آل الأمعزِ المتوقد(9)

وهو أيضاً ليس ممن يستتر في التلاع متوارياً عن الناس مخافة الضيوف والطارقين وانما ينزل في الفضاء ، ليراه الناس ، ويهب الى اكرامهم وقراهم اذا ما لجأوا اليه :

ولستُ بحلَّالِ التلاع مخافةً … ولكنْ متى يسترفدِ القومُ أرفدِ

ولقد عد طرفة ثلاثا من مستلزمات حياة الفتى : شربه الكميت وانطلاقه ناجداً المهموم ، وقضاؤه يوم المطر باللهو ، فيقصره بهذا(10) .

---

(5) اللسان (فتا) .
(6) القاموس (الفتاء) .
(7) القاموس (الفتاء) .
(8) الصعلكة والفتوة في الاسلام ، أحمد أمين : 11 (ط1 سلسلة أقرأ : 111 ، القاهرة1952) .
(9) شرح القصائد العشر للتبريزي : 77 (القاهرة ، الطباعة المنيرية)
وديوانه : 29 (دار صادر) . القطيع : السوط ـ اجذمت : اسرعت خب : جرى واضطرب ، آل ـ سراب الأمعز والمعزاء : الموضع الغليظ الكثير الحصى .
(10) شرح القصائد العشر : 78 ، ديوانه : 29 .

وفي رثاء الخنساء(11) لأخيها صخر تجمع بين الفروسية والفتوة ، وجعلتهما من مظاهر الكرم والشجاعة ، أما الخرنق(12) في رثائها زوجها فانها قرنت الفروسية بالصيد والطرد ، وتوزيعه على المحتاجين .

ونحن واجدون ، ان شئنا ، في مراثي بعض شواعر العرب ما يعكس مفاهيم الفتوة والفروسية في ذلك العهد ، فها هي ذي الفارعة بنت طريف(13) ترثي أخاها الوليد الشيباني الشاري ، وتذكر في خصاله كرمه وشجاعته ، ونبذه مال الحرام ، ومثلها سبيعة بنت عبد شمس(14) في رثائها عمها المطلب بن عبد مناف ، فهي تذكر كرمه ولا سيما في الجدب والقحط ، ويهم هند بنت الخس(15) أن يكون الفتى ذا عقل راجح وشجاعاً .

هذه الفتوة في نصوص جاهلية وجدناها يختلط مفهومها بمفهوم الفروسية ، ويتعذر الفصل بين صفات الفارس والفتى مما يعطينا حرية الزعم ، ان العرب في الجاهلية لم يميزوا بينهما ، فالفارس فتى وصفاته صفاته .

ومما عني به الفتيان في عهد بني أمية ، الصيد وتربية الحيوانات المعلمة ، واطلاقها على الطرائد ، وكانت تلك أنواعاً من الفروسية (وليس ببعيد أن تتصل ألعاب الفروسية هذه بالفتوة خصوصاً وأن الفخري يعبر عن يزيد بن معاوية بأنه فتى)(16) ولقد كان كلفاً بالصيد ، اتخذه رياضة ومتعة ، وبلغ من لهجه به أنه ألبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ، وخصص لكل منها عبداً يخدمه ويرعاه(17) ومن هنا بدا الائتلاف بين الفتوة والفروسية والصيد والطرد ، واتضحت الروابط بينها .

ومن الدلالات التي أدَّتها كلمة الفتوة في العصر العباسي أربعة معان ، أولها : الكرم في سماحة من غير تكليف ، وثانيها : النبل والسماحة ، وثالثها : انها أطلقت على فئة يعتزون بالقوة ويستخدمونها في التهديد والسلب والنهب ، ورابع المعاني : انها

---

(11) ديوان الخنساء : 141 (دار صادر ـ بيروت 1379 - 1960) .
(12) ديوان شعر الخرنق : 34 - 35 .
(13) الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، أبو تمام : 150 (القاهرة 1963) .
(14) شاعرات العرب : 155 (جمع وتحقيق عبد البديع صقر ط1 الدوحة 1387 - 1967) .
(15) المصدر السابق : 460 .
(16) الصعلكة والفتوة في الاسلام : 52 .
(17) الفخري في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية ، لابن الطقطقي : 45 ، 46 (القاهرة 962) .

استعملت في نوع من الفروسية المنظمة (فقد اشتهرت العاب الفروسية في العصر العباسي ، ونظمت وكثر اللعب بالبندق والخروج به لرمي الصيد)[18] .

وفي العصر العباسي تسلط عنصران ، هما الفارسي ثم التركي ، ولهم في الفروسية نظم تختلف عن نظمها البدوية البسيطة ، وذكر المؤرخون أن أول الخلفاء الذين لعبوا بالصولجان كان الرشيد ، وكذلك رمي بالنشاب في البرجاس[19] ، وهي من ألعاب الفرس ، وكذلك فعل المعتصم الذي كان أول من استعان بالأتراك وجعلهم جنده (واشتهر في عصره بالتفنن في الصيد والقنص وعدُّوه من اعلام الفروسية)[10] ، واقتبسوا أيضاً تعليم الجوارح والضواري من الفهود والكلاب على الصيد وصنفوا في جودتها وصفاتها وأساليب تعليمها ، وامراضها ، وما يصلح كل حيوان له ، وأطلق على هذا العلم « البيزرة » ونظم الشعراء في الصيد والطرائد قصائد كثيرة ، لذا وجدنا في دواوين بعض الشعراء قصائد تناولت وصف الصيد فقط ، سميت بالطرديات[21] .

ويذكرنا الشباب والنجدة والشجاعة التي اتصف بها الفتيان بالصعاليك ، فان الحياة الاجتماعية في الجاهلية دفعت بعض الرجال الى التمرد على النظام القبلي ، فأغلب الصعاليك من الفقراء ، لا يجدون ما يأكلون واذا قيض لهم أن يكسبوا في غزوة فلشيخ القبيلة حصة الأسد ، ولا يبقى لهم من الغنيمة الا النزر القليل ، هذا الى طبيعة ضنينة لا تجود بنتاج يكفي الجميع ، (لكنهم في هذا المذهب الثوري لم يكونوا فقراء فحسب ، بل كانوا فقراء شجعانا أقوياء ، ذوي حس مرهف وادراك لما بينهم وبين الأغنياء من فوارق ، فأمضّهم هذا الادراك وآلمهم خلاء أيديهم من المال وعجزهم عن الحياة التي يشتهون)[22] . وجدنا استاذنا الدكتور أحمد الحوفي قد استشعر حال الصعاليك ، وتحسس المنافذ مغلوقة أمامهم ، فتساءل : فماذا يعملون ؟ واذا بهم قد (ثاروا على النظام الحالي ، فغنموا عنوة ما قد حرموه ، واستراحوا الى أنهم يثأرون من الأغنياء الأشحاء ، في مجتمع لا تحميه شرطة ، ولا يخضع لقانون ، ولا يلجأ الى محاكم)[23] .

---

(18) الصعلكة والفتوة : 55 -59 .

(19) هدف يتدرب الفارس عليه في الرماية .

(20) الصعلكة والفتوة : 62 .

(21) نفس المصدر : 62 - 63

(22) الحياة العربية : 300 .

(23) الحياة العربية : 300 .

ولقد عرف بالتصعلك جماعة في الجاهلية ، منهم عروة بن الورد وتأبط شراً ، والشنفري ، والسليك بن السلكة ، وعمرو بن براقة ، وفي الاسلام الأحمر السعدي(24) .

واتصف الصعاليك بكراهية الأغنياء البخلاء ، والمساواة في الغنائم ، والنجدة والعطف على الفقراء العاجزين ، وانهم لم يروا عملهم هذا عيباً ، ووجدناهم يفاخرون به(25) .

وامتاز شعرهم بالواقعية ، ووحدة الموضوع ، وخلوه من الغزل ، وكان أغلب شعرهم مقطعات لا قصائد ، أكثروا فيه من مخاطبة الزوجات(26) . وان اختلفت الفتوة والصعلكة في شيء ، فانما هو يعود الى كون الفتيان من الأغنياء ، واما الصعاليك فمن الفقراء ، وخلا ذلك فأخلاق الفئتين تكاد تكون واحدة(27) .

ومن كل ما مر نستخلص أن الفتوة أوسع من الفروسية ، فالعرب لا تنفي الفروسية ، عن الشجاع الظالم الذي يتصف بالبخل أو بالغدر والبطش والنزق (وليس كذلك الفتى)(28) ويجمع الفتوة والفروسية والصيد والطرد جوامع أخرى ، في رأسها اجادة الرمي ، وبراعة الطعن ، وحذق فنون المداورة والرصد .

وثانيها : أسلحة الفارس الفتى يشترك أغلبها في قتال الاعداء وطرد الحيوان ، فالخيل والرماح ، والقوس والنبال بأنواعها ، مما يحتاج اليها الصياد أيضاً ، وسيتبين لنا ذلك في بحثنا لوسائل الصيد .

وكما أن الفتوة والفروسية في المجتمع الجاهلي كانتا حصيلة البيئة الصحراوية ، والظروف القبلية ، كذلك وجدنا أن الصيد والطرد لم يكن بمعزل عن هذه المؤثرات ، فان البيئات أخضعت لها دوافعه ووسائله ، وحددت طرائده ، سواء في جزيرة العرب ، أو في العراق ، أو في الشام .

واستجابت نواميس الفتوة ، وتقاليد الفروسية ، بقدر لتعاليم الدين الاسلامي ،

---

(24) الحياة العربية : 300 .
(25) الحياة العربية : 306 .
(26) الحياة العربية : 306 .
(27) الصعلكة والفتوة102 .
(28) الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي : 16 (القاهرة1370 -1951) .

وكذلك فنون الصيد والطرد ، وصار من المألوف أن نجد في كتب الفقه والحديث باباً يخص الصيد والطرد بالتشريع والأحكام .

وصفوة القول : أن الوشائج التي ربطت الفتوة والفروسية والصيد والطرد ليست قليلة ، وقد يعتبر احداها مظهرا للآخر ، الى حد ما في ظروف وظروف .

وفي فصل سابق توصلنا الى أن الصيد من ضروريات الحياة ، مارسه العرب طلباً للقوت ، ودفاعاً عن النفس ، ورياضة ومتعة ، وتردد صدى ذلك في شعرهم ، فهذا امرؤ القيس يعدد وجوه لهوه ، فيضع الصيد والطرد على جواده في مستهلها ، ثم يذكر معاشرة النساء الجميلات المترفات ، ثم شراء الخمر بأوعية مملوءة ، وأخيراً خوض غمرات الحرب من كر وفر :

كأني لم أركبْ جوادا للذة ولم اتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقلْ لخيلي كرى بعد أجفالِ[29]

وسمى الشاعر الصيد لذة ، مكتفياً بذلك من أن يذكر الصيد صراحة لاشتهاره بينهم ، وقدره عندهم[30] ، وقديماً (وقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان ، فناداه فاستجاب له ، فقال (الملك) له : ما اللذة ؟ فقال له : كبائر اللذات أربع ، فعن أيها تسأل : فقال صفهن لي ؟ قال : هل تصيدت قط ؟ قال : لا . قال : فهل لك حظ في السماع والشرب ؟ قال : لا . قال : فهل فاخرت ففخرت أو كاثرت فكثرت ؟ قال : لا . قال : فما بقي لك من اللذات)[31] .

ومن كلف العرب بالصيد أنه أذهل بعض ملوكهم عن شؤون رعيته ، فهذا عمرو بن هند ، أخو قابوس بن هند ، كان له يوم نحس ويوم نعمى ، فيوم يركب في صيده يقتل أول من لقي ، ويوم يقف الناس ببابه ، فان اشتهى حديث رجل أذن له ، فكان هذا دهره ، وهجاه طرفة مرة مشيراً الى ذلك فقال :

قسمتَ الدهرَ في زمنٍ رخيّ كذاك الحكم يقصدُ أو يجورُ

---

(29) شرح ديوانه : 143 . الكاعب : التي نهد ثدياها ـ سبأ الخمر يسبؤها سبأ وسباء : اشتراها ـ الزق الروى : وعاء الخمر المملوء ـ الاجفال : الانهزام .

(30) البيزرة : 34 ، الوصف في شعر العراق ، الدكتور جميل سعيد : 204 (ط 1 بغداد 1948) .

(31) البيزرة : 30

لنـــا يومٌ وللـــكروانِ يومٌ تطـــيرُ البائســـاتُ ولا نطيرُ
فأمـّـا يومهـــنَّ فيومُ نحسٍ تطاردهـــنَّ بالحـــدَبِ الصقورُ
وأمـــا يومنـــا فنظـــلُّ ركبا وقوفـــاً ما نحـــلُّ ومـــا تسيرُ(32)

ومـن هذا القبيل ما رواه الأصفهانـي عن النعمان بن المنـذر أنـه كان يتصيد مع أبيه(33) . وعندما تكون الحياة ذكرى ، والذكرى صيد وجنى ثمر ، يحن عروة بن الورد بشوق ولهفة الى أماكن محببة اليه منها : مدافع ذي رضوى ، وعظم ، وصندد :

ومـــا كان منـــا مسكنـــاً ، قد علمتم مدافع ذي رضـــوى ، فعظـــم ، فصنددُ
ولكنَّهـــا والدهـــرُ يومٌ وليلةٌ بلادٌ بهـــا الأجنـــاءُ والمتصيدُ(34)

وبلغ شغف العرب بالصيد حدا جعل محمد بن بشير (+) الخارجي يستغلـه في بعضهم ويتخذه وسيلـة يشاغلهـم بهـا ، لينصرف سليمان بن الحصـين الى الحـديث مع نسائهم ، واذا سمعنا خبراً يرويه الأصفهاني فلعلنا نتصور مبلغ كلفهم بالصيد : (قال الخارجي : فخرجت حتى أتيت القومَ فحدثتهم وذكرت لهـم الصيد ، فطـارت اليه أنفسهم (تأمّل) ، فخرجت بهم ، وأخـذت لهـم كلابـاً وشبـاكاً ، وتزودنـا لثـلاث ، وانطلقت أحدثهم وألهيهم ، فحدثتهم بالصدق حتى نفد ، ثم حدثتهم بما يشبه الصدق حتى نفد ، ثم صرحت لهم بمحض الكذب حتى مضت ثلاث ، وجعلت لا أحدثهـم حديثاً الا قالوا صدقت ، وغبت بهم ثلاثاً ما أعلم أنَّا عاينَّا صيداً)(35) .

وفي ذلك للخارجي أبيات منها :

يرمـــون أحـــورَ مخضوبـــاً بغـــيرِ دمٍ دفعـا وأنـــت وشاحـــا صيدِك العلقُ

---

(32) ديوان طرفة بن العبد البكري : 97-98 (طبعة شاكون1900) قسمت الدهر : يخاطب عمرو بن هند ، ويذكر ما كان من يوم صيده ويوم وقوف الناس ببابه ـ يقصد : يعدل ـ يجور : يظلم الكروان ـ بكسر فسكون : جمع (الكروان ـ بفتحتين) وهو طائر يشبه البط ، حياة الحيوان للدميري : 2-240 . الحدب : بفتحتين : ما ارتفع من الأرض في غلظ ـ ما نحل ولا نسير : أي نحن قيام على بابه ننتظر الاذن ، فلا هو يأذن فنحل عنده ولا هو يأمر بالرجوم فنسير عنه .

(33) الأغاني : 12 -134 .

(34) ديوان عروة بن الورد : 29 (دار صادر ـ بيروت1953) .

(+) هو أبو سليمان محمد بن بشير بن عوف الخارجي . شاعر حجازي فصيح مطبوع ، من شعراء الدولة الأموية ، كان يقيم بوادي الحجاز قرب المدينة وقلما يأتي الحضر، وكان منقطعاً الى أبي عبيدة القرشي انظر (دائرة المعارف ، فؤاد أفرام البستاني : 2-965 ـ بيروت1958) .

(35) الأغاني : 16 -111 ـ112

تسعـــى بكلبـــين تبغيه وصيدُهم   صيدٌ يرجَّـــى قليلا ثم يعتنقُ(35)

ولقد تصيد كرام العرب وصعاليكهم ، فما وجدوا في ذلك غضاضة (وانه لا يكاد يحب الصيد ويؤثره الا رجلان متباينان في الحال متقاربان في علو الهمة ، اما ملك ذو ثروة ، واما زاهد ذو قناعة ، وكلاهما يرمى اليه من طريق الهمة)(37) .

وما ليم الملوك على استهتارهم بالصيد الا لأن (فيه مشغلة عن مهم الأمور ، ومرعاة للملك)(38) ، وان اتخذه الغني حباً في الغلبة والظفر ، أو قصداً (للطرب واللذة والابتهاج بظاهر العتاد والعدة)(39) ، فانما لجأ اليه الفقير ابتعاداً عن ضعة المهن ، لذا نجد منهم من يأخذ من صيده ما يكفيه قوتاً ، ويتصدَّق بالفائض عن حاجته (ومنهم من يبيع ما فضل عن قوته ، ويعود بثمنه في سائر مصلحته ، وكانت هذه حال الخليل ابن احمد الفرهودي ، مع فضله وأدبه وكمال علمه وآلاته في بازي كان يقتنص به ، ويوسد خده لبنة ، وكان جلة الناس في عصره يجتذبونه ، ويعرضون عليه المشاركة في أحوالهم ، فلا يثنيه ذلك عن مذهبه)(40) .

لقد عدد محمد المنكلي فوائد عشراً للصيد ، ففي ممارسته تمرين الخيل ، ورياضة للنفس ، ولذة في غير محرم ، واكتساب الشجاعة ، ومعرفة ذوي الألباب ، ويبعد الصائد في وقت صيده عن الذنوب ، والاستغناء بالصيد عن الأكل في غير وقت الحاجة ، وفيه ازالة الهموم والغموم ، ونبذ الأوجاع بالحركات ، ويستشعر الصائد بلذة التعب ، وفيه أيضاً تقوية للفكر(41) .

ويقرر محمد المنكلي (وقد أجمع العقلاء أن ألذ ما وجد من الصناعات وأحلها وأجلها وأطيبها وأقربها الى طبائع الانسان هو الصيد وذلك أنه يميل اليه قلب كل من الخلق)(42) .

---

(36) الأغاني : 16، 111 ـ 112 . أحور : جميل العينين ـ مخضوباً : لونه أحمر ـ العلق ـ بفتحتين : الخصومة والمحبة اللازمتان ـ يعتنق : يصاد .

(38) البيزرة : 19

(37) البيزرة : 19

(39) البيزرة : 21

(40) البيزرة : 19

(41) أنس الملا بوحش الفلا : 19 (باريس 1880) .

(42) المصدر السابق : 22

ومن تلك الفوائد العشر تتراءى لنا الفروسية التي هي (مظهر من مظاهر الحياة نشأ نتيجة عوامل اجتماعية وأخلاقية وحربية معينة وأنها كانت الطابع المميز للحياة الجاهلية والسمة الغالبة على طبائع العرب(43) ، وبعدها يمكننا أن نقرر باطمئنان (أن أول الفروسية الصيد)(44) ، فكلف العرب بالصيد نابع من كلفهم بالفروسية ، التي هي عماد حياتهم ، وأساس وجدانهم ، ومنبع مفاخرهم .

ويتبادر الى ذهننا أن الصيد والطرد بالنسبة للعربي ، يشبه الى حد كبير ما تقوم به جيوشنا المعاصرة من تمرينات على الأسلحة وممارسات للحروب الوهمية في أوقات السلم ، لتبقى الجيوش محتفظة بقدراتها الحربية بصفة مستمرة ، ولتجابه العدو عند نشوب الحرب الفعلية .

هذا فضلاً عن أن الصيد والطرد ، كما مر ، يعد مصدراً للقوت ، ودفاعاً عن النفس ، ورياضة ومتعة ، ومتى ما تعلق أمره بالقوت والدفاع عن النفس ، والرياضة والمتعة ، والتمرين للحرب ، يصبح من اليسير ادراك كلف العربي بالصيد والطرد .

2 ـ تقديرهم للصائد :

تتبلور شخصية الفرد الاجتماعية ، فتحسن أو تقبح من خلال ما يؤديه من خدمات ، ومدى ارتباط تلك الخدمات بتوفير مصالح افراد المجتمع ، وانطلاقاً من هذا المفهوم سأعمد الى دراسة شخصية الصياد في الشعر العربي ، لأخلص إلى شيئين ، أولهما : نظرة العرب اليه وثانيهما : نظرتهم الى الصيد .

الصياد شخصية ترددت في مأثور كثير من الشعراء ، على مر العصور ، وتعاقب الأجيال ، واننا لا نبتعد عن الحقيقة اذا قررنا أن كثيراً من الشعراء قد مارسوا الصيد(45) ، والقليل منهم آثر أن يقوم بدور الواصف عن كثب ، وأولئك في العادة ممن كان يرافق الملوك والأمراء في طردهم ، كالنابغة الذبياني(46) ، وأبي نواس وغيرهما(47) أو ممن حاكاهما

---

(43) الفروسية في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي : 25 (بغداد1964) .
(44) أنس الملا : 18
(45) ينظر التمهيد من بحثنا : 11-15
(46) تأريخ الأدب العربي ، عمر فروخ : 1-80 (ط1 بيروت1385-1965) .
(47) البيزرة : 43-46

كالأخطل في تقليده النابغة ، ولا سيما في وصفه للثور الوحشي[48] ، وابن المعتز (فقد أكثر من التوكؤ على معاني الشعراء الأقدمين وأساليبهم ، ولا سيما في الخمر والطرد حيث أغرق في تقليد أبي نواس شاعرهما المبرز)[49] ، .

والشاعر في كل الأحوال لا يتحرر من بيئته ، فيسبغ على موصوفاته مفاهيم مجتمعه ، بأسلوب يتفاوت من حيث الدقة والأجادة بين شاعر وآخر تبعاً لاختلاف استجابة كل منهما للمجتمع والبيئة ، وانسجاماً مع قابلياتهما الفردية .

هذا أوس بن حجر ، رسم صورة للصياد ، صورة بائسة ، تتجلى فيها كل معاني الشقاء ، تستدر العطف والرأفة ، فهو ظمآن ، قد استبد به التعب الى حد الاعياء ، فغارت عيناه ، يقضي نهاره في الشمس المحرقة ، فيشقق لحمه ، ويسود بشرته هبوب الرياح اللافحة والسمائم القاسية ، قد شغله الصيد وأبعده عن أية زينة ، وهو ليس بالضخم القصير ، قد خشنت أنامله ، يقهره على ملازمة قترته خوف من الجوع والهزال ، اذا لم يصب لحم صيد :

صد غائرِ العينين شقَّق لحمَهُ ... سمائمُ قيظ فهو أسود شاسفُ
أزبَّ ظهورِ الساعدين عظامهُ ... على قدرٍ شثنُ البنانِ جنادفُ
أخو قتراتٍ قد تيَّقنَ أنَّهُ ... إذا لم يصبْ لحماً من الوحش خاسفُ

وللطرماح صورة تكاد تكون مشابهة لصورة الصياد عند أوس بن حجر ، فهو قد ألف الفقر ، واستأنس به ، قد لفته ما تطبخ الشمس من سمائم في الهواجر ، فتغير لونه واسودت بشرته ، وهو لا يجد الماء بسهولة فقد جف كل شيء ، ولم يبق في قربته الا الوشل ، يتحلب قليلاً قليلاً من الجليدة المستديرة التي شدت الى العروة ، وخرزت بشكل غليظ ومتين ويبقى يغالبها سائراً في فسيح من الأرض في بعد واستواء ، قد توقد حصاه ، يشرب ويبل لساناً محصوراً بين لهاته وحلقه الصغير ، يابساً من العطش ، وفي حاله هذه يشبه جارية سكنت بيتاً صنعته من أوراق وأغصان شجر المقل ، وقد زينها ستر

---

(48) تاريخ الأدب العربي (فروخ) : 1 -557

(49) تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري : 552 (3 بيروت1960) .

(50) ديوان أوس بن حجر : 70 -71 (تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ط2 بيروت) الجنادف : القصير الغليظ المجتمع - شثن البنان : خشن غليظ - خاسف : مهزوم وجائع .

وثوب ، فهي تبلل جدران بيتها لتبريده :

ومستأنسٍ بالقفر راح تلفُّه ... طبائخ شمس وقعهُنَّ سَفوعُ
تنشّف أوشال النطاف ودونها ... كُلى عِجَل مكتوبهنَّ وكيعُ
يبلُّ بمعصور جناحيَ ضئيلة ... أفاويقَ ، منها هلَّةٌ ونقوعُ
كما بلَّ مثنى طُفيَةٍ نضحُ عائط ... يزيِّنها كُنٌّ لها وسفوعُ[51]

فنرى الطرماح ـ وان شابهت حال الصياد عنده حال الصياد عند أوس ـ حريصاً على أن يبرزه ظمآن ، شديد الظمأ ، قد أوشك أن ينفد ماؤه ، وهذه حال تدعونا الى الرفق بالصياد .

وتقترن هيأة الصياد في ذهن بشر بن أبي خازم بهيئة الذئب فكلاهما سريع ، يبغي فريسة ، فينطلق باحثاً عنها مع الشروق ، قد علته غبرة ، وواضح أن غبرة الذئب حقيقية ، أما غبرة الصياد فهي طارئة ، اكتسبها لملازمته القفار :

وباكره عند الشروق مكلِّبٌ ... أزلُّ كسرحان القصيمة أعبرُ[52]

وقد صرح الأعشى في أماكن عدة من ديوانه بتشبيهه الصائد بالذئب :

وصادف مثل الذئب في جوف قترة ... فلما رآها قال يا خير مطعمِ[53]
كالسيِّد لا ينمي طريدته ... ليس له مَّما يُحانُ حوِلْ[53]

ولم يتخلف الأخطل عن مثل تلك التشبيهات ، فهو قد شبه مجموعة الرماة ، وقد قعدوا في مراقبهم التي يرصدون منها الوحش في ضبيحة كل يوم كأنهم في أعياد ، شبههم

---

(51) ديوان الطرماح : 301-303 . مستأنس بالقفر : يريد به الصائد الذي يعيش في القفر ـ طبائخ الشمس : سمائها وحرها في الهواجر ، واحدها : طبيخة ـ السفوع : من سفعته الشمس والسموم، اذا لفحته فغيرت لون بشرته وسودته ـ الأوشال : بقية الماء تتحلب من جبل أو صخرة قطرة قطرة ـ النطاف : جمع « النطفة » وهي الماء القليل ـ الكلى ـ بالضم : جمع « كلية » وهي جلدة مستديرة مشدودة الى العروة ، وقد خرزت مع الأديم تحت عروة المزادة ـ عجل ـ بكسر ففتح : قرب الماء ـ مكتوبهن : خرزهن ـ الوكيع ـ الغليظ المتين ـ معصور : لسان يابس عطشاً ـ جناحا ضئيلة : شفتا لهاته ـ أفاويق : جمع « فيقه » : دفعة المطر ، أوما يجتمع في ضرع الناقة بين الحلبتين ، والمعنى : أنه يشرب ويبل فمه مرة بعد مرة ـ طفية : خوصة شجر المقل ـ عائط : الجارية التي لم تحمل ـ الكن : الستر ـ سفوع : جمع « سفع . بفتح فسكون » وهو الثوب ـ مثنى طفية : أي بيت مبني بالأغصان .

(52) ديوان بشر بن أبي خازم : 84 . مكلب الصياد صاحب الكلاب ـ الأزل : السريع الخفيف ـ السرحان : الذئب . القصيمة : ما سهل من الأرض وكثر شجره .

(53) ديوان الأعشى : 121

بالذئاب عندما تحس بصيد فتلوذ بالصمت ، فمنها اليقظ المنتبه ، ومنها اللاصق بالأرض :

ظلّ الرماة قعودا في مراصدهم للصيد كل صباحٍ عندهم عيدُ
مثل الذئاب اذا ما أوجسوا قنصاً كانت لهم سكتة ، مصغٍ وملبودُ(54)

ولقد برع في الصيد ، واشتهر به أفراد عرفوا بأسمائهم ، فعمرو هو ابن الشيخ الثعلي ، كان من أرمى العرب ، كثيراً ما اتخذ القترات بيتاً يختفي فيه ، لئلا تراه الوحش فتهرب ، يراصد القنيص عند ماء خال من الأنس ، كما أخبرنا امرؤ القيس ، كما وأن مر الوحش تحذره دائماً :

فأوردها ماء قليلا أنيسُهُ يحاذرن عمراً صاحبَ القتراتِ(55)

وفي مجال آخر يكتفي أمرؤ القيس بذكر قبيلة ذلك الشيخ الثعلبي ويصفه أنه رام ، توارى في مكان ستره ، وشرع يخرج كفيه منه ، يقبض على قوسه ، وقد فوّق سهمه ، ولما أقبلت عليه الوحش واردة ، بدأ يتمطى بيساره نحو الأرض مرات ، كيما تألف الطرائد منه ذلك ، فلا تذعر له ثم يستغرق نزع السهم فينطلق نحو الطريدة ، فيصيب فرائصها ، ويقتلها :

رب رامٍ من بني ثعل متلجٍ كفّيه من سترهِ
عارضٍ زوراء من نشمٍ غير بانات على وترهِ
قد أتته الوحش واردةً فتنحّى النزع في يسرهِ
فرماها في فرائصِها بازاء الحوض أو عقرهِ(56)

أما عامر أخو الخضر (بضم الخاء وسكون الضاد) الصحابي فحدثنا عنه كعب بن زهير ، وقال : أنه اتخذ من الذناب مكاناً يأوي اليه ، فتخافه الوحش هناك :

ويخافان عامراً ، عامر الخضر وكان الذنابُ منه مصيراً(57)

---

(54) السيد ـ بالكسر : الذئب ـ ينمي : يصيب الطريدة ، وتبقى فيها بقية روح ، ثم تموت بعيداً لا يراها ـ يحان : يهلك ـ حول : تحول وانتقال ، أي أنه لا يتحول عن الصيد الذي قدر له أن يهلك على يديه .

(55) الأخطل (سلسلة الروائع رقم36) ، فؤاد البستاني : 30 (بيروت1940) .

(56) شرح ديوانه : 86 . بنو ثعل : من طيء مشهورون بجودة الرماية متلج : مدخل ويروي : مخرج كفيه من ستره ـ الزوراء : القوس نشم : شجر جيد تعمل منه القسي ـ غير بانات : غير منحن على وتره ـ تنحى : تروى في البيزرة : 23 ، تمتى ، وفي طبعة بيروت : 97 ، تمطق .

(57) شرح ديوان كعب بن زهير : 182 (القاهرة1965) الذناب : موضع ـ المصير : المكان الذي يأوي اليه .

وفي طردية وصف بشر بن أبي خازم ثور وحش ، وكيف باكرته مع الشروق كلاب صياد ، هو اما ابن مر أو ابن سنبس ، وهما من طيء معروفان بالصيد :

فبـــاكره عنـــد الشروق غُدَيَّةً كلاب ابـــن مرٍّ أو كلاب ابـــن سُنبس (58)

ويذكر ابن أبي خازم في مناسبة أخرى الصيادين جداية وذريح فقال :

فبـــاكره مع الاشراق غُضْفٌ يخـــبُّ بهـــا جدايةُ أو ذريحُ (59)

وفي حالات أخرى يكتفي الشاعر بذكر القبيلة ، وهذا ما لجأ اليه الذبياني فقناصه من أنمار ، قصد صيد ثور الوحش ، ساعياً بأكلبه ، قد بدت عروق ظهر كفه :

أهـــوى له قانص يسعـــى بأكلبه عاري الأشاجـــع من قُنَّـــاصِ أنمارِ (60)

وذو الرمة كذلك قد صادف رامياً من بني جلان ، معروفاً بالرمي الحاذق ، قد اختبأ في موضع ، يراصد ماء يجري بين الشجر والنخيل ، قد علته الضفادع ، وتهيأ ذلك الرامي للاتن عن جوانبها ، أن تكشف الظلام وزال الليل :

فما انجلى الليل حتـــى بينـــت غللا بـــين الأشـــاء فعـــلاهُ العلاجيمُ
وقـــد تهيَّأ رامٍ عن شمائلها مجـــرَّبٌ من بنـــي جلان معلومُ (61)

وفي كل ما مر نستطيع أن نقول : أن الصياد قد استرعى انتباه العرب ، واحتـل مكانة مرموقة في مجتمعهم ، وعبر عن ذلك شعراؤهم الذين تقصوا أحوال الصياد ، ولم يهملوا أي شيء مهما بدا يسيراً فقد وصفوه هزيلاً ، غائر العينين ، أسود البشرة ، ولـم يكتفوا بذلك ، وانما عللوه بهبوب السمائم ، وتركه أهله ، ومكوثه في ناموسه يصل ليله بنهاره . فلم ينسج من الظمـأ ، وتوسلـوا لتجسيد حالتـه بوسائـل كثـيرة ، وركنـوا الى التشبيهات ، فهو كالذئب في السرعة واللون والحذر ، ووصفوا بيته وصفاً دقيقاً ، وعددوا شروطه ، حجماً وبعداً وقرباً في الوحش ، بكل مهارة وحذق ، ينم عن خبـرة ودراية وتتبع ، ولم يهملوا حذر الصائد ، وهو يقبل على صيده ، أو عندمـا تقبـل هي عليه ،

---

(58) ديوانه : 103 ، ويروى هذا البيت لأمرىء القيس ، شرح ديوانه 101

(59) ديوانه : 91

(60) ديوان النابغة الذبياني : 52 (عني بنشره محمد جمال ط1 بيروت 1929) . أهوى : قصد ـ الأشاجع : عروق ظهر الكف ، وهي تحمد في الرجال ـ أنمار : قبيلة من نزار معروفون بالصيد .

(61) ديوان شعر ذي الرمة : 586 . الاشاء : الشجر والنخيل ـ العلاجيم : الضفادع .

وعمدوا الى كلابه ووسائل صيده الأخرى ، فوصفوها بشيء عظيم من الاهتمام كما سنرى فيما يلي من بحوثنا ، ولم ينسوا صيادين بأسمائهم ، أو شهرتهم بقبائلهم .

هذا الاعتناء الزائد بالصياد وشؤونه ، يدفعنا الى الاعتقاد بأن الصياد قد احتل مكانة طيبة في المجتمع العربي ، عبر قرونه وأجياله المتعاقبة .

أما في العصر العباسي فان الشعراء كانوا أنفسهم يمارسون الصيد والطرد ، ويعتنون بشؤونه ووسائله ، ويفخرون بهذا ، ويحثون غيرهم ويحرضونهم على ممارسته ، بالتشويق ، والابداع في وصفه ، وابراز مواطن اللذة فيه ، ومن أولئك أبو نواس والرقاشي وابن أبي كريمة وغيرهم .

وهنا لا بد أن نناقش في ضوء النصوص الشعرية ، التي أسعفتنا الظروف بالاطلاع عليها ، مسألة قد علقت بأذهان بعضنا ، فدفعته الى استخلاص رأي ، يطيب لنا الوقوف عنده .

ومن هذا القبيل ما أورده الجاحظ على لسان صاحب الديك (فخرتم علينا بصيد الكلب ، وهجوتم الديك اذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به ، وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ، ويحقرون الصياد فمن ذلك قول عمرو بن معد يكرب)[62] .

ولا بد أن نناقش أبيات عمرو بن معد يكرب التي أوردها الجاحظ من حيث الغرض أولاً : فهي أبيات قيلت في الهجاء ، والشاعر فيها يسند الى خصمه أشياء تافهة ، بعد تعظيمها ، ليسمه بالعار ، ومع ذلك فللهجاء ظروفه الخاصة ، فعمرو يفخر على خصومه بني زياد بأنهم أتباع في قومهم ، وهو من أصل طيب ، يتنقلون من جيش الى آخر ، وهم أذلة بين صائد بالحبل وصائد بالكلاب ، لذا استحقوا هجاءه وليس كل هاج محقاً :

أبني زياد أنتم في قومكم ذنب ونحن فروعُ أصلٍ طيِّبِ
نصل الخميس الى الخميس وأنتمُ بالقهر بين مربِّقٍ ومكلِّبِ[63]

ويريد الشاعر منهم الخروج الى القتال ، فشتان ـ في رأيه ـ بين الحب وسوق الحمير ، ثم نفاهم عن المعروف ، لأنهم كأبيهم يصطادون الوعول ، سلاحهم السهام

---

(62) الحيوان : 2-309

(63) الحيوان : 2-310 . الخميس : الجيش ـ القهر : الذل ـ حانة والكوكب : موضعان .

والكلاب ، ثم يقول : انهم أهل الحرب فلا يموتون على فرشهم حتف أنوفهم :

لا تحسبَنَّ بنو طليمة حربنا سوق الحمير بحانة فالكوكبِ
صيدٌ عن المعروف سعي أبيهم طلب الوعول بوفضة وبأكلبِ(64)

والعرف عند الشاعر ، كما يبدو لنا ، الانصراف الى القتال حين يشجر ، ونبذ الصيد ، اذ لا ينبغي للمقاتل أن يتقاعس عن الذهاب الى الحرب ، ويتشاغل عنها بالقنص ، فاللوم موجه الى بني زياد لا لأنهم صيادون ، وانما لأنهم تشاغلوا بالصيد . وبعد النقاش يحسن أن نشير الى رأي صاحب الأغاني في عمرو بن معد يكرب حيث ذكر أن الشاعر مشهور بالكذب(65) .

ولو كان الصيد سبة في العصر الجاهلي ، لما كان امرؤ القيس لهج به ، يسره أكل لحمه ، ويعلن ذلك في شعره ، مع عراقته في النسب والملك :

تظلُّ طهاة اللحم من بين منضجٍ صفيف شواء أو قديرٍ مُعجِّلِ(66)

وفي قوله :

رب رامٍ من بني ثُعَل مخرج كفيه من سترهِ(67)

مدح بادمان الصيد ، لأن بني ثعل بنو عمه ، فهم فخذ من طيء ، وكندة فخذ من مرة ، ومرة أخو طيء ، فلم يرد غير المدح ، والرامي الذي يقصده امرؤ القيس هو عمرو الثعلي(68) (واستثناؤه بقوله : على كبره زائد في المدح عندهم ، لوصفه أنه يتكلف من ذلك مع قدح السن وأخذها منه شيئاً لا يعجزه على هذه الحال ، ولا يلحقه فيها ما يعرض للمسن من الفتور والكلال)(69) .

مطعمٌ للصيدِ ليس له غيرها كسبٌ على كبره(70)

ولما رثى لبيد بن ربيعة النعمان بن المنذر ، ذكر أنه كان يأكل الصيد ، ويشرب خمر

---

(64) الحيوان : 2-310 . المربق (بتضعيف الباء) : الصائد بالربقة وهي العروة في الحبل .
(65) الأغاني : 15 -222 ـ223
(66) شرح المعلقات السبع ، الزوزني : 43 (القاهرة1367 -1948)
(67) شرح ديوانه : 86 . وفيه مثلج بدل مخرج .
(68) البيزرة : 23
(69) البيزرة : 23
(70) شرح ديوانه : 86

بابل المعتقة ، وعد ذلك من مآثره الحميدة :

إذا مسَّ أسـار الـطيور صفـت له ... مشعشعـةٌ ممَّـا تعتَّـقُ بابلُ(71)

وفي الاسلام وجد الصيد وأحكامه مجالاً بين آيات القرآن المقدسة وتناولت السنة الشريفة أمر الصيد باهتمام واضح ، وانعكس هذا الاهتمام على آراء المذاهب الاسلامية .

وعند الأخطل أن صيد الظباء والاتن دليل القوة والمنعة ، فهو حين هجا قيساً حقرهم بأنهم لا يصطادون الظباء والاتن بل الوبر(72) لذلّهم وضعفهم :

فلا راذون تُدعَـى فيه قيسٌ ... ولا القاطـول واقتنصـوا الوبارا(73)

فالصيد لم يكن عملاً محتقراً ، ونظرة العرب اليه ـ بوجه عام ـ حسنة ، والا لما تعرض شعراؤهم الى وصفه في قصائدهم ، وبالأخص في مدائحهم وفخرهم ، يوم كان الطرد غرضاً من أغراض القصيدة ، حيث يحسن الترفع عن ذكر الخصال المستقبحة ، بل لم تخل منه مراثيهم أيضاً كما مر في رثاء الخِرْنق زوجها ، وفي رثاء لبيد النعمان بن المنذر .

أما ذكرهم لأطمار القانص ، فهي كناية عن الفقر ، وقد تصلح أن تكون كناية عن الاستهتار بالصيد ، والانصراف اليه ، والحرص على بلوغه لأن الصيد عمل وحرفة في أغلب الأحوال ، وليس ثمة ما يدعو العامل المتهن الى لبس الأردية الفاخرة في عمله ، واذا سلمنا جدلاً بأن الأطمار كناية عن الفقر ، فهل الفقر عيب ؟ نعم ، الفقر عيب ان خلد من ابتلي به الى الراحة والكسل ، ولكن الصياد هذا يكافح ويسهر ، ويراصد ليظفر بقوته وقوت عياله ، وانه لم يرض بالفقر .

والصياد الذي احترف بالصيد في المجتمع الجاهلي ـ عندي ـ انسان متطور ، لما لم يقنع بالغزو والنهب وسيلة للعيش ، فهو رام ماهر ، ويقدر أن يكون محارباً فاتكاً ، ويكسب بسلاحه قوته غزواً ونهباً ، ولكنه لم يستجب الى مفاهيم عصره ، وشذ عنها ، وهل التطور الا شذوذ في بدايته ، ونراه آمن بفكرة الكسب الحلال ، وهو ما جاء به عصر تال لعصره وأقصد عصر الدين الاسلامي .

---

(71) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : 258 (تحقيق الدكتور احسان عباس الكويت1962) .

(72) الوبر (بفتح فسكون) : دويبة أصغر من السنور طحلاء اللون ، لا ذنب لها تقيم في البيوت ، الأنثى وبرة أنظر حياة الحيوان الكبرى للدميري2-340 (مصورة عن نسخة الطبعة الخيرية1309 هـ) .

(73) الشذر الذهبي في شعر الأخطل التغلبي : 31 (شرحه الأب أنطون صالحاني اليسوعي بيروت1925) . راذان الاسفل ، وراذان الأعلى : كورتان بسواد بغداد ، تشمل على قرى كثيرة ، معجم البلدان : 4-204 ـ والقاطول : نهر قطع من دجلة كان في موضع سامراء ، معجم البلدان : 7-14 .

الفصل الثالث

مواسم الصيد

1 ـ العام كله زمن للصيد

اذا كانت الدوافع الى الصيد القوت أو المتعة فلم يكن هناك مسوغ عنه في موسم دون الآخر ، فالقوت لا تنفد الحاجة اليه ، والمتعة لا تملها النفس ، ولعلنا واجدون مصداق رأينا هذا فيما أنتجته قرائح شعرائنا عبر العصور والأجيال ، فالشاعر عبيد بن الأبرص يشبه ناقته بالثور الوحشي الذي يهبط من مكان الى مكان ، فأهزله التجوال ، يرعى في أورال وحده ، ومرت عليه ليلة ليلاء ذات ريح باردة ، تسح الماء فهي اذن من ليالي الشتاء ، موسم الجدب في جزيرة العرب الذي يعز فيه القوت ، وتزداد الحاجة اليه ، ويحسن أثناءه الكرم والقرى(1) ، ويذم أبلغ الذم بخيله(2) ، فينطلقون في عرض الجزيرة يبحثون عن كريم المأكل في الصيد(3) ، ويجهدون في ذلك :

وكأن أقتادي تضمَّنَ نسعهَا ... من وحش أورال هبيط مفردُ
باتت عليه ليلة رجبية ... نصباً تسحُّ الماء أو هي أسودُ(4)

---

(1) قال طرفة : نحن في المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الأدب فينا ينتقر

(2) قال الأعشى : تبيتون في المشتى ملاء بطونكم
وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

(3) قال عنترة : ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

(4) ديوان عبيد بن الأبرص : 59 (دار صادر ـ دار بيروت 1958) .

وفي رملة أورال تلك ، شاهد ابن أبي خازم ثوراً وحشياً ضامراً قد ألجأه البرد الشديد الى كناسه في آخر النهار ، حين تميل الشمس للمغيب ، فقضى ليلته في رملة معوجة استطال رملها ، واستظل أرطاة لائذاً بها ، وكان يشبه كوكباً متوقداً وهو في ذرا تلك الشجرة :

طاوٍ برملةِ أورالَ تضيِّفُهُ   الى الكناس عشيّ بارد صرِدُ
فبات في حقف أرطاة يلوذ بها   كأنه في ذراها كوكبٌ يقدُ(5)

أما النابغة الذبياني فيكاد يسلك المسلك داته في تشبيهه ناقته وقد انتصف النهار ، بثور الوحش نشاطاً ، وصوره يرعى الشمام ، وقد أحس انسياً فذعر أيما ذعر ، وجعله منفرداً في سيره لأنه أشد لفزعه وأنه من وحش وجرة القليلة الماء ، الشحيحة الطعام ، لذا أصبح ضامراً لجوعه وظمئه ، يشبه سيفاً يلمع ويلوح عن بعد ، ليس في صقلة نظير وهو فوق كل هذا ، قد أسرت اليه في ليلة ضريرة النجم مزنة شمالية لا تمل البكاء ، فهي تحمل اليه البرد ، وتوقظ فيه النشاط والحماس ، فاذا أحس الثور صوت صياد يبغي قتله ، كان هذا أدعى لفراره، وأسرع في عدوه مع اضطراب الحس ، وهلع النفس :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا   يوم الجليل على مستأنسٍ وَحِدِ
من وحشِ وجرَةَ موشّي أكارعهُ   طاوي المصيرِ كسيف الصيقل الفردِ
سرت عليه من الجوزاء ساريةٌ   تزجي الشمال عليه جامد البَرَدِ(6)

ويطوف الذبياني بالمعاني نفسها ، ويعيد الصور عينها ، أو قريباً منها في ديوانه(7) ، مما يزهدنا في ايراد نماذج أخرى له ، ويحرضنا على تقصي غيرها في شعر زهير ، عند حديثه عن ناقته وقد وضع عليها رحله ، وشده بحبل وجعل تحته حشية صغيرة ، فكأنه وضعهن على ثور حسن ، أبيض نشيط ، يتنقل من موضع الى سواه ، رعى نبتاً في أورال وناصفة في بلاد تميم ، رعاه في الشتاء ، فلما انقضى عنه وخرج الربيع نشط عنه يطلب موارد الماء ، اذ نشّت عنه الغدران في تلك الأمكنة ، ولقد انفرد الثور ، وحده

(5) ديوانه : 55
(6) ديوانه : 27
(7) المصدر السابق : 51-52

فيها ، وربما يعجب بعشب فيأخذه من اطرافه :

كأن كوري وأنساعي ومثيرتي كسوتهن مشبّاً ناشطاً لهَقا
رعي بغيث لاوراد فناصفة من الشتاء فلما شأوه نفِقا
وقد يكون بها حيناً تعزُّ به وقد تطرَّفَ من حافاتها أنِقا(8)

وزهير هنا عجل على غير عادته ، فلم يتريث في ابراز الصور وتحديد الزمان .

أما الأعشى فكان أكثر تعاطفاً مع الثور حين شبه به ناقته ، وخلع عليه بعض الملامح البشرية ، ومنحه ذهناً مفكراً ، يفهم الضجر ، ويتحسس الوحدة والألم ، ويشعر بيأس وقنوط جراء حاله ، فثور الأعشى ضامر ، اهزله الجوع ، قد باغته مطر ساقه ريح الشمال أيضاً . فقضى ليلته على تل رمل ، مندساً تحت أغصان الشجر ، قد انكب على وجهه ، كما ينكب الصيقل على شحذ السيوف ، وكلما اشتد هجوم المطر واندفاعه استغاث الثور وخيل للأعشى أنه يقول : (أصبح ليل . . .) ، ولكن الليل لا ينصرم ، والصبح بعيد :

كأنها وطاوٍ تضيَّفه صربُ قطار تحته شمألُ
بات يقول بالكثيب من الـ ـغبية أصبِحْ ليلُ لو يفعلُ
منكرساً تحت الغصون كما أحنى على شمله الصيقلُ(9)

أما سحيم ، فبعد تشبيهه الناقة بثور الوحش ، صوره شجاعاً ، تخشاه كلاب الصيد ، فهو سريع ، وهو شديد البأس كالأسد ، قد لجأ هرباً من البرد والمطر الى شجرة نبتت في رمل ليس بالشديد في حزنان ، وكان منفرداً ، يتشاغل بالحفر عن عروق الشجرة ، فكان منها الطري الرطب ومنها اليابس ، وهي كالأعنة في حمرتها ، واستمر الثور في حث الرمل وتنحيته ، ليجد له بيتاً يلوذ به ، فتجمع ركاماً كبيت الصيدنانيٍّ ، وبينما كان الثور مثابراً ، في النبش باغته صياد من طيء معه كلابه ، يغريها به ، وهو ـ مع كل هذا ـ ضامر الجسم ناصع اللون :

مروحاً اذا صام النهار كأنما كسوت قتودي ناصع اللون طاويا

---

(8) شرح ديوان زهير : 42 -44 . كوري : رحلي ـ أنساعي : حبال الرحل التي يربط بها ـ مثيرتي : حشيتي الصغيرة ـ مشبا : مسنا ـ لهقا : أبيض .

(9) ديوانه : 279 . طاو . ثور ضامر أهزله الجوع ـ تضيفه : نزل به ـ الضرب : المطر الخفيف ـ قطار : مطر ـ شمأل : ريح الشمال ـ الكثيب : التل من الرمل ـ الغبية : الدفعة من المطر ـ منكرساً : مندساً قد انكب على وجهه ـ الصيقل : الذي يشحذ السيوف ويجلوها ـ أحنى : انحنى .

شبوبـاً تحامـاه الـكلاب تحامياً — هو الليثُ معـدواً عليه وعاديا
حمّتـه العشـاءَ ليلـةً ذاتِ مرّةٍ — بوعسـاءِ رمـل أو بحزنـان خاليا
يُنحّـى ترابـاً عن مبيت ومِكنس — رُكامـاً كبيت الصيدنانـيِّ دانيا
فصبَّحـه الرامـي من الغَـوثِ غدوةً — بأكلبـه يغـري الـكلاب الضواريا[10]

والشعراء الذين وصفوا الوحش لائذة بأرطاة ، تحتفر الرمل ، متقية المطر والبرد ، وقد باغتها الصياد ، كثيرون منهم : الحطيئة[11] والأخطل[12] والعجاج[13] ، والطرماح[14] ، والقطامي[15] ، والفرزدق[16] ، وذو الرمة[17] ، ورؤبة[18] .

وفي الصيف حيث القيظ ، والحر الشديد ، لم يهجر الرماة القنص ، ولم يأبه أحدهم بوقد رياحه ، فحين يريد كعب بن زهير أن يصف ناقته يخيل اليه أن زمامها المصنوع من الجلد ، قد ربط به حمار وحشي أبيض البطن في حمير تسرح في فلاة واسعة بين الأنعمين وعاقل ، يقود أتناً يشبهن القنوات الصغار الذوابل ، ثم يتذكر أتانا قد بعدت عنها جحاشها في يوم شديد حره ، قد ذهب لبنها ، فصارت أطباؤها كالمكاحل الفارغة ، وظل ذلك الحمار في ظهيرة يومه يفكر في مورد ماء يقصده ، وحين هم بالذهاب الى الرسيس ، حيث الماء منعه القناص الذين يترصدون الوحش في القترات :

كأن جريري ينتحـي فيه مسحل — من القُمْـرِ بـين الأنعمـين فعاقلِ
يغـرِّد في الأرض الفـلاةِ بعانة — خِماص البطـونِ كالصعـاد الذوابلِ[19]

---

(10) ديوان سحيم : 28-30 . مروحاً : ذا مرح ـ صام النهار : طال ـ القتود : عيدان الرحل ـ ناصع اللون طاوياً : ثوراً وحشياً ناصع البياض ، ضامراً من الجوع ـ شبوباً : مسناً ـ تحاماه : تتقيه ـ حمته : منعته ـ وعساء : رمل ضخم ليس بالشديد ـ حزنان : موضع ـ المكنس : بيته ـ الصيدناني : الثعلب وقيل الملك ـ الرامي : الصائد ـ الغوث : قبيلة من طيء ، وهم رماة .
(11) ديوان الحطيئة : 377
(12) أراجيز العرب ، السيد محمد توفيق البكري : 96 (ط2 القاهرة 1346 هـ) .
(13) شرح ديوان أبي رؤبة العجاج ورقة : 44,43 (مخطوط دار الكتب أدب 517) .
(14) ديوان الطرماح : 144 / 213، و 411
(15) ديوان القطامي : 16 (ليدن 1902) .
(16) شرح ديوانه : 2/ 746-747
(17) ديوان شعره : 118-119
(18) مجموع أشعار العرب (ديوان رؤبة :90 -91 (نشره وليم بن الورد البروسي ، ليسنغ 1903) .
(19) شرح ديوان كعب : 97 . جريري : زمام ناقتي ـ مسحل : حمار وحش ـ القمر ـ بضم فسكون : البيض البطون من الحمر ـ الأنعمين وعاقل : موضعان ـ عانة : قطيع ـ الصعاد : الرماح .

ونازحة بالقيظِ عنهـا جحاشُها وقـد قلصـتْ أطباؤهـا كالمكاحل
وظـل سراة اليوم يبـرم أمره برابية البحّـاء ذاتِ الأعابل[20]

وذو الرمة يصف حمر الوحش ، ويبدع في هذا المجال ، ولكنه كغيره من الشعراء يسلك الى وصفها معبراً هو ناقته ، اذ شبه وثبها بوثب حمار وحش مع أتنه :

تصغـي اذا شدّهـا بالـكور جانحة حتـى اذا ما استـوى في غرزهـا تثبُ
وثـب المسجّـح في عانـات معلقة كأنـه مستبـان الشـكّ أو جنبُ[21]

ثم يسترسل في وصف تلك الاتن ، فيخلص الى تحديد الموسم فاذا هو الصيف الذي تهب خلاله رياح اليمن المحرقة ، فتجف البقول ، وتنضب الغدران ، ولا يبقى فيها الا القليل ، فالعود ذابل ، والهواء محرق ، فيساوره القلق ، وتتطلع اليه الأتن ، وتمضي الشمس نحو المغيب ويتلهف الى الماء ، ويتذكر عين اثال، والهم يستبد به ولا يجد عنها بديلاً ، فوطد العزم على الذهاب الى تلك العين ، مرة يسرع ، ومرة يبطىء ، وذو الرمة بارع كل البراعة في تتبع حمار الوحش هذا ، ويغور في أعماق ذاته ويحمله على التفكير في مصير اتنه ، متجشماً المتاعب والمشاق في سبيلها ، فكأنه قائد يدبر شؤون جنده ، فهواجسه انسانية ، ومخاوفه بشرية ، وأفكاره معقولة مرسومة ، ثم ينتقل الشاعر الى وصف العين وطحلبها ، ومائها وضفادعها وسمكها وصخبها ، والجدول الذي ينساب اليها كأنه سيف :

حتـى اذا معمعـان الصيف هبّ له بنأجـة نشّ عنهـا الماء والرطبُ
وأدرك المتبقـي من ثميلته ومـن ثمائلهـا واستـنشىء الغربُ
وصـوّح البقـل من ناجٍ تجـيء به خيفٌ يمـانية في مرّهـا نكبُ[22]

ثم يفطن الى مقتنص من جلان ، ثيابه ممزقة ، يضائل شخصه ، ويخفي نفسه ، يكمن في زريبة ، لئلا تشعر به تلك الوحش ، ولم ينس الشاعر سهامه الزرق ، فقد وصفها ملساء فيها الريش :

---

(20) شرح ديوان كعب : 97-99 . أطباؤها : أخلاف ثديها ـ سراة اليوم : ظهيرته ـ رابية البحاء : موضع ـ الاعابل : القناص الذين يترصدون الوحش في قتراتهم بسهامهم .

(21) أراجيز العرب38-39 .

(22) أراجيز العرب : 38-39 . المسجح : حمار الوحش ـ معقلة : موضع ـ نش : جف ـ صوح : أجدب ـ هيف يمانية : ريح يمانية حارة ـ منزرب : مختبىء ـ زرق : سهام زرق حادة .

وبالشمائل من جلأنَ مقتنصُ رث الثياب خفيٌّ الشخص منزربُ
يسعى برزق هدت قضباً مصدرة ملس البطون حداها الريش والعقب(23)

ولقد خرج ابن مقبل لصيد الوحش ، فالتقى بحمار في قطيع في أتنه واسترعى هذا الحمار انتباه شاعرنا ، لأنه ألفاه نعرا ، أي آذته النعرة (بضم النون وسكون العين) ، وهي ذبابة ضخمة زرقاء العين تلسع ذوات الحافر خاصة ، وربما ولجت في أنف الحمار ، فيركب رأسه ولا يرده شيء ولا يستقر في مكان ، فهو حمار نعر :

قد قدت للوحش أبغي بعض غرتها حتى نُبِذْتُ بعير العانة النَّعِرِ(24)

والنعر يكون في الرياض ، ويكثر فيه زمن الخصب ، وهي لا تصوت الا في ارتفاع النهار ، واشتداد الحر ، وأحسن ما تكون الرياض اذا طلعت عليها الشمس بعد ندى الليل ، فالشاعر يحدثنا عن حمار يرعى تلك المراعي بمكان بعيد ، يفزع الفؤاد من اجتماع أصوات الذباب الضخم :

بعازبِ النبت يرتاعُ الفؤادُ له رأْدُ النهار لأصوات من النُّعرِ(25)

وبعير الطرماح كثور وحشي سريع الرياد في المشي ، لا يستقر فهو يذهب ويجيء لا يثبت في مكان واحد من النشاط ، ولا سيما اذا مالت الشمس للمغيب ، فهو يتبختر عندما يكون النسيم بارداً في الغداة والعشي ، ويدخل كناسه في الحر اذا كان شديداً ، يؤلم الدماغ ، ومع ذلك الثور بقرات كثيرات ، تحن له حنين قطعة ضخمة من الابل ، فكبارها بلغت الشباب تراقبه ، وأما صغارها فتسرح حوله :

كأعين ذبٍّ رياد العشي اذا وركّت شمسهُ جانحهْ
يذيل اذا نسم الأبردان ويخدر بالصَّرَّةِ الصامحه
يراعي النعاج وتحنو له كما حنتِ الهجمةُ اللاقحهْ
تراقبه مستشباتها وسخلانُها حولَهُ سارحهْ(26)

---

(23) أراجيز العرب : 39

(24) ديوان ابن مقبل : 95

(25) ديوانه : 95

(26) ديوان الطرماح : 75-77 . الأعين : واسع العينين ، وهو يريد ثور الوحش ـ ذب الرياد : نشط سريع ـ وركت شمسه : مالت للمغيب ـ جانحة : مائلة ـ يذيل : يتبختر ـ نسم : برد ـ الابردان : الغداة والعشي ـ يخدر : يدخل بيته ـ الصرة : شدة الحر ـ الصامحة : التي تؤلم الدماغ لشدة حرها ـ النعاج : بقرات الوحش ها هنا ـ الهجمة : القطعة الضخمة من الابل ـ مستشباتها : كبارها التي بلغت الشباب ـ سخلانها : صغارها ، وهي ولد بقرة الوحش هنا .

ثم يصل الطرماح بعد ثلاثة أبيات أخريات الى صراع ذلك الثور مع كلاب الصيد ، بعد أن ثارت له ، وشرعت تجاذبه ، وتأخذ بأطرافه :

فبينا له ذاك هاجتْ له مخالجةً أكلبٌ جارحةْ(27)

ونشعر ، بعد أن أوردنا تلك النصوص ، أننا قد بينا أن اصطياد الوحش لم يكن في موسم دون ا لآخر ، فلقد مارس القناص الصيد والطرد في الحر ، وفي البرد ، وتحت وابل المطر ، وفي أشعة الشمس المحرقة .

2 ـ أشهر مواسمه ، ولماذا ؟

لقد لاحظنا من خلال النصوص والأخبار التي أمكننا الاطلاع عليها أن هناك مواسم مشهورة ، حبذ العرب القنص فيها ، واختاروها للصيد والطرد ، معتقدين أن عملهم يكون مجدياً فيها ، وصيدهم أكثر ، وتوفيقهم أضمن .

أما ملوكهم وأمراؤهم فقد كان في غناهم وترفهم ما يحول دون انطلاقهم في صيد الوحش في أحوال الجو السيئة (والأوقات المحمودة للصيد : يوم الغيم الذي لا مطر فيه ، ويوم المطر للقصف ، ويوم الصحو للقاء الناس)(28) .

ومن أولئك عمرو بن هند ، فكان له يوم بؤس ، يركب في صيده يقتل أول من لقي ، ويوم نعمى يقف الناس ببابه ، فان اشتهى حديث رجل أذن له ، وبامكاننا أن نستخلص هذا من شعر لطرفة هجاه به ، ذكرناه في بحث سابق(29) .

وبلغ الأمر أن خضعت أعمالهم للفلك واستطلاع الطوالع ، وخصصوا للساعة الأولى من كل يوم عملاً معيناً (فأما يوم الصيد من أيام الجمعة فذكر بعض من قسم الأيام أنه يوم السبت)(30) ، وأورد الشريف الحموي أحمد بن محمد مقطوعة نسبها الى الامام علي بن أبي طالب (رضي) ، وفيها ما يخص كل يوم من أيام الأسبوع ومنها :

لنعم اليوم يوم السبت حقاً لصيد انْ أردت بلا امتراء(31)

---

(27) ديوان الطرماح : 77-78

(28) المصايد والمطارد : 235

(29) ديوان طرفة (شاكرن) : 97-98 ، لاحظ بحثنا السابق : مكانة الصيد عند العرب .

(30) المصايد 235 . الجمعة : يريد بذلك الأسبوع ، وقديماً أطلق الناس كلمة الجمعة وأرادوا بها الأسبوع كله .

(31) النفحات المسكية في صناعة الفروسية : 78 (تحقيق عبد الستار القرغولي ، ط1 بغداد1950) .

وعلق كشاجم على ذلك بقوله : (ولم أعرف مذهباً في اختيار السبت للصيد من جهة اختيار الطالع ، الا أن الخبر جاء بالتماس البركات ، غداتي السبت والخميس)[32] ثم يمضي في الكلام على الطالع ومواضع الكواكب ، مبيناً أن الاختيار للصيد كالاختيار في الحرب (لأنه كرٌ وفرٌ ودركٍ وفوت)[33] .

وتفاءل الملوك عند ذهابهم الى الصيد بلقاء الرجل الصحيح الجسم المرضي الاسم ، وبالمرأة الوسيمة الثيِّب ، والغلام المنصرف الى أهله من كتاب أو موضع أدب ، وتفاءلوا أيضاً بلقاء الدابة تحمل الطعام والتبن والرمل ، الا أنهم تطيروا بالزَمِن (فتح فكسر) الكريه الاسم ، الغلام الماضي الى كتاب أو موضع أدب ، والثورين المقرونين بفدان ، والحيوان الموثق ، والدابة المقيدة[34] .

وكان لزاماً على الصياد ألا ينصرف الى القنص في ساعة النحس ، وهجا بعضهم شخصاً أدمن الصيد ، وواظب عليه ، ويعود منه جائعاً ، لأنه يطلبه في وقت نحس ، حلَّ الطالع فيه في زحل ، لذا شكاه فرسه ، ولعنه مهمازه ، ولم يرض عنه الا الوحش الطريد ، لأنه كان في منجاة ، أما كلبه فغضبان ، لأنه لم يصطد وبقي جائعاً تعِباً :

ومدمنٍ هجٍ بالصيد منهمك فيه ويرجع عنه وهو غرثانُ
لا يطلب الصيد الا وقتَ منحسة وطالع حل فيه النحس كيوان[35]

واذا عدنا أدراجنا الى العصر الجاهلي والعصور الأخرى ، لنتبين الوقت الذي اختير للخروج الى الصيد ، فأول ما يطالعنا شعر امرىء القيس الذي حدد الوقت ، وخصص اللفظ ، حتّى وجدنا الشعراء الآخرين يتخذون نفس اللفظ ، أو شيئاً قريباً منه ، فهو يفضل الغدوة ، والطيور لَّما تزل في وكناتها ، (لأن الطرائد تكون ذلك الوقت قد ربضت للنوم فتستثار وفيها أثر النوم)[36] ، على فرس قصير الشعر كأنه لسرعته قيد للوحش ، اذ

---

(32) المصايد : 237
(33) المصايد : 237
(34) المصايد : 238
(35) المصايد : 239 . كيوان : هو اسم زحل
(36) المصايد : 235

أنه يدركها بيسر وسهولة :

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل(37)

وامرؤ القيس يلحُّ في ايراد نفس المعاني بألفاظ تكاد تتشابه :

وقد أغتدي والطير في وكناتها(38)

وقد أغتدي قبل العطاس بهيكل(39)

وقد أغتدي والطير في وكناتها(40)

وعبيد بن الأبرص ، هو الآخر يخرج الى صيده غدوة ، قبل طيران القطا ، على فرس واسع الصدر ، ينبسط في جريه :

وقد أغتدي قبل الغطاطوصاحبي أمين الغظا رخون اللبان سَبوحُ(41)

أما المرقش الأصغر فيبكر للصيد بفرس صافي اللون كأنه طرف سعفة ، قد ضمره الصيد :

غدونا بصاف كالعسيب مجلَّل طويناه حينا فهو شِزْبٌ ملوَّحُ(42)

ويلجأ بشر بن أبي خازم الى استعمال « باكره مع الاشراق ، أو فباكره عند الشروق » عند كلامه على ثور الوحش ، بعد تشبيهه ناقته به ، فثمة صيادان هما جداية وذريح في الموضع الأول ، وابن مر وابن سنبس في الموضع الآخر ، قد أرسلوا كلابهم المعلمة ، آذانها مسترخية وفي ذلك حدد الصباح الباكر للخروج الى الصيد :

فباكره مع الاشراق غُضْفٌ يخبُّ بها جدايةُ أو ذريحُ(43)

والثاني :

فباكره عند الشروق غديةً كلاب ابن مُرٍّ أو كلاب ابن سنبس(44)

---

(37) شرح ديوانه : 113

(38) المصدر السابق : 110

(39) المصدر السابق : 119

(40) المصدر السابق : 143

(41) ديوانه : 47

(42) المفضليات : 2-42

(43) ديوانه : 51

(44) المصدر السابق : 103

فوقت الخروج الى الصيد عند الصباح الباكر عادة ، في النزع الأخير من الليل ، مما اتفق عليه أغلب الشعراء الذين طرقوا وصف الصيد ، ومنهم عدي بن زيد العبادي(45) ، وزهير(46) ، والأعشى(47) ، وعبد الله بن سلمة(48) ، وعبد المسيح بن عسلة(49) ، وعبدة بن الطبيب(50) ، وحميد الأرقط(51) ، وكعب بن زهير(52) ، والأخطل(53) ، والشمردل(54) ، والفرزدق(55) ، وذو الرمة(56) ، وأبو نواس(57) .

وخلاصة هذه الجولة في نصوص الشعراء أنه ليس للصيد موسم ، ولقد وجدت مصداق رأيي فيما أوردته من أبيات دللت عليه .

أما الخروج للصيد فيتم غدوة ، حين تكون الوحش في كناسها ، لما تزل خاضعة لسلطان الكرى ، اذ يسهل طردها وهي خاملة ، ويكون ذلك أسهل لادراكها .

---

(45) ديوان عدي بن زيد العبادي : 142
(تحقيق : محمد جبار المعيبد ، بغداد1965) .
(46) شرح ديوانه : 130, 255 .
(47) ديوان الأعشى : 105, 275, 295, 363 .
(48) المفضليات : 1 -104
(49) المفضليات : 2 -80
(50) أراجيز العرب : 54
(51) أراجيز العرب : 21
(52) شرح ديوانه : 166
(53) الأخطل (الروائع) : 30
(54) التذكرة الحمدونية : 5 -344
(55) شرح ديوانه : 1 -
(56) ديوان شعره : 536
(57) ديوان أبي نواس : باب الطرد ، أنظر مطالع طردياته (تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ـ القاهرة1953) .

الفصل الرابع
عاداتهم في الصيد

1 ـ التخفّي

كأن الوحش قد أدركت ما يضمره الرماة لها ، فباتت تحذرهم ، وتتحاشى مواطنهم ، واتقت من أخطارهم ، تفزعها نبأة منهم ، وتحملها على الهرب رائحتهم ، وفطن الصياد لذلك ،واحتال له . لذا وجدناه يحتفر لنفسه قترة ،يختبىء فيها ، ويستتر عن الوحش ، ويتعمد اتخاذها عند موارد الماء ، حيث تضطر الطرائد الى قصدها ، يدفعها الظمأ ، ويتفنن في ستر تلك الحفرة ، فيغطيها بالصفيح ، ويجتهد في كتم رائحته ، لئلا تهتدي اليه الحيوانات ، فتهرب فزعة ، وقد يدخن قرب ناموسه ليعفّي على أثر رائحته ، ويلجأ أيضاً عند احتفاره القترة الى تخطيطها بحيث تقع في مكان لا تمر به الريح في طريقها الى مورد الماء ، فتحمل رائحته ، وينعت أوس بن حجر صيادا يعرفه من صباح ، قد تخفى في حفرته ، ودخن قربها تعمية لرائحته ، وصنع سقفها من قطع الصخر الرقاق :

فلاقى عليها من صباح مدمِّراً   لناموسه في الصفيح سقائف(1)

ويظل ذلك الصياد مختبئاً في قترته هذه ، يراقب الشريعة ، ليطلق عليها سهماً مشرعة تنقل الموت اليها ، قال زهير :

وعلى الشريعة رابىء متحلّس   رامٍ بعينيه الخطيرة شيزب(2)

---

(1) ديوان أوس : 70 . صباح : قبيلة رماة ـ مدمراً : أي دخن قرب قترته ، ليعفي على رائحته لئلا تستشعره الوحش بها .

(2) شرح ديوانه : 376 . الشريعة : شريعة الماء ـ رابىء : قانص ـ الخطيرة : موضع الماء ـ شيزب : يابس من الضر وشدة الحال .

ويخبرنا كعب بن زهير : أن الصياد سرعان ما يلجأ الى بيت ، قد يتخذه عند شريعة تؤمها الوحش طلباً للماء ، بحيث يكون لاطئاً بالأرض ، لتألفه فلا تذعر منه ، وفي سفالة الريح ، لئلا تشم رائحته ، وقريباً يميز الوحش منه بالعين ، ويمكث الصياد فيه ، يلاحظ الشريعة لا ينام ولا يغفل والا فاته الوحش ، وهو بهذا مهلك لها ، لأنه رام حاذق :

لاصق يكلأ الشريعة لا يغفَى فواقا مدمراً تدميرا(3)

وقد أدرك ابن الدمينة ما تكون عليه الحال لو شعرت الوحش بالصياد ، فليس ثمة ما يطمئنها ، فصوَّر الصياد مستتراً ، فلا تذعر ولا تهرب لولا شعورها به ، في وقت يبغي صيدها ، طامع فيه :

كما استتر الرامي لوحش غريرة فاشعرن ذعراً وهو بالصيد طامع(4)

ويصف حميد بن ثور الهلالي ناموس الصياد ، فهو كبيت الصيدناني مصنوع من النبع وأغصان الضال المستقيمة ، فيه الظلال ، ويخفي الراصد فيه :

ظليل كبيت الصيدناني قضبهُ من النبع والضال السليم المثقف(5)

أما رؤبة فيولي بيت الصائد اهتماماً زائداً ، فهو عنده كالرمس ، ضيق المدخل والمخرج كالقبر ، قد بناه بقدر مقعده ومتكئه ، ليس بالقريب فتذعر الوحش ، ولا بالبعيد فتطيش السهام :

وقد بنى بيتاً خفي المنزبقْ مقتدر النقب خفيَّ المترقْ
رمسا من الناموس مسدود النفقْ مضطحراً كالقبر بالضيق الأزقْ
أسسه بين القريب والعمقْ أجوف عن مقعده والمرتفق(6)

وأما ذو الرمة فقد تحسس البيت ، وخيل اليه أن الصياد لا يستطيع القعود فيه الا اذا تحرف ، وبذا يمكث طويلاً في قترته الغبراء ، يراصد الحمير :

---

(3) شرح ديوانه : 146

(4) ديوان ابن الدمينة : 90 (تحقيق أحمد راتب النفاخ ، القاهرة 1954) .

(5) ديوان حميد : 112 . والصيدناني ، كما في حياة الحيوان : 2 -65 دويبة تعمل لنفسها بيتاً في جوف الأرض وتعميه عن الخلق .

(6) مجموع أشعار العرب : 107 . أراجيز العرب : 35

المنزبق : الدخول ـ المترق : الخروج ـ مقتدر : أي أن الصياد قدر باب قترته فصغره ـ الرمس : القبر ـ الأزق : الضيق .

يراصدهــــا في جوف حدبــــاء ضيّقٍ على المرء الآ ما تحـــرّف جالهُا(7)

ومن اللحظات الحرجة في حياة الصياد التي تنبه اليها رؤبة ، أنه حينما تصل الحيوان الى الشريعة يستبد به الحرص الشديد ، فيكتم أنفاسه ، ولا يسمـح لأية حركة ، مهما كانت بسيطة ، ولا يفلت منه صوت ، ولو كان خفياً ، ولقد جسد رؤبة حرص الصائد على الصمت بشيء طريف ، فلو صادف أن مضغ هذا الصياد حنظلاً فلا يبصق ، مخافة أن تنذر به الوحش ، فتلوذ بالفرار ، والحنظل مر ، لاذع الطعم :

فبــــات والنفس من الحـــرص الفشق في الــــزرب لو يمضــــغ شرياً ما بصق(8)

ويسهر الصائد في تلك القترة ، طاوياً ليله آملا في أن يظفـر بصيد ، وقـد لحـظ الشمردل صياداً هزيلاً ، أذاب سهر الليالي لحمه ، وأجهده سعيه المتواصل :

بهــــا ساهـــر الليل عاري العظام عرّى لحمَـــهُ أنّــــه يدأبُ(9)

وربما يترك الصياد قترته ، فيدب رويداً رويداً ، يتخافى بحذر ويقظة ، منتظـراً لحظات تدرك ضراؤه فيها الوحش ، فتحيط بها ، واذا به يخرج الى أرض صلبة ، فتكشفه لها ، قال الراعي النميري :

يدب مســـــتخفياً يغشى الضراء بها حتــى استقامــت وأعــراه لهــا جددُ(10)

ومخاتلة الصياد ، ولا سيما حين يدنو لصيده ، فيحني قامته ، ويمشي ببطء وحذر ، ليخفي نفسه عنه ، بهذا الصياد شبه عدي بن زيد نفسه ، وهو يخطو نحو الشيخوخة ، قد أحنت الأيام ظهره :

حَنَتنـــــي حانيات الدهــــر حتى كأنـــي خاتـــل يدنـــو لصيد(11)

وربما أرسلوا غلاماً ، يتشوف مسالك الوحش ، ليختبر ما عساهم يجدونه فيها ، كما فعل امرؤ القيس ، اذ استتر رقيبه بأوراق الشجر لئلا يراه الصيد فتذعر ، كالذئب

---

(7) ديوان شعره : 535

(8) مجموع أشعار العرب : 107 ، أراجيز العرب : 35

الفشق : الشديد ـ والزرب : حيث ينزرب فيدخل ـ والشرى : الحنظل .

(9) منتهى الطلب ، محمد بن المبارك بن ميمون : 135 (مخطوطة دار الكتب رقم12631 ز أدب) .

(10) شعر الراعي النميري وأخباره : 47 (جمع ناصر الحاني ، ط1 دمشق1964) .

(11) ديوانه : 198 ، وروي هذا البيت لأبي الطمحان القيني ، أنظر الأغاني : 12 -347

الذي يتفادى ما يخشاه ، أو يختل الفريسة ، وكان الرقيب حاذقاً ، هاضما دقائق مهمته ، فهو يمشي على أربعته كالخشف ، يرفع رأسه ويخفضه ، لاصقاً بالأرض فتعفر بالتراب، ثم يعود زاحفاً ، ليحمل لامرىء القيس وصحبه بشرى رؤيته لصوار بقر ، وعانة اتن ، وخيط نعام ، وهي صيد وفير ، ترتعي في تلك المسالك :

بعثنا ربيئاً قبل ذاك مخمَّلاً كذئب الغضى يمشي الضراء ويتقي
فظل كمثل الخشف يرفعُ رأسه وسائره مثل التراب المدققِ
وجاء خفيا يسفن الأرض بطنه ترى الترب منه لاصقاً كل ملصق
وقال ألا هذا صِوارٌ وعانة وخيطُ نعامٍ يرتعي متفرِّقِ(12)

وغلام زهير كذلك ، تغمره الفرحة حين شاهد شياهاً راتعات ، فيثوب متخفياً ، ليعلم سادته بما رأى :

فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا يدبُّ ويخفي شخصه ويضائله(13)

ثم يوصي زهير غلاماً بأن يباغت الصيد ، ويأتيه من حيث لا يشعر فان التزم بتلك الوصية ، قتل الطريدة ، فلا تضيع منه الفرصة :

وقلت : تعلَّم أن للصيد غرّة والا تضيعها فانك قاتله(14)

وتدفع ثقة الشاعر بفرسه وسرعته الى الاعلان أنه اذا ذهب للصيد ورأى الوحش انطلق نحوها دون جنة أو مخاتلة ، قال علقمة بن عبدة :

اذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة ولكن ننادي من بعيد ألا أركب(15)

ويفصح زهير عن تلك المعاني نفسها ، فيقول :

اذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة متى نَرَه فاننا لا نخاتله(16)

ومن عاداتهم أيضاً أن يزجروا الوحش متى رأوها ، فتنفر منهم ثم يطردونها بخيلهم ، وحين خرج أبو دؤاد مبكراً مع جماعة قاصدين قنص الحيوان ، أيَّه لها بصوتين :

---

(12) شرح ديوانه : 119 -120 . مخملاً : مستتراً بأوراق الشجر .
(13) شرح ديوان زهير : 130
(14) المصدر السابق : 134
(15) شرح ديوان علقمة : 32 (طبعة بيروت ، 1968) .
(16) شرح ديوان زهير : 130

هاب وهبْ ، دون ختل وتخف :

غدونـــا نريد به الآبدات نؤيِّهـــه بـــين هابٍ وهبْ(17)

ومثله كان ابن مقبل ، فأخذ بفرسه مرح ونشاط في العدو ، حتى لانت عضلات فخذيه وعضديه ، وخفت :

فلما رأيت الـــوحش أيهًـــت وانتحى به أفـــكل حتـــى استخفًّـــت خصائله(18)

وصارت تلك عادة الصيادين في العصرين الأموي والعباسي، سواء أكانت وسيلة الصيد كلبا ، أم فهدا ، أو كانت طيراً جارحاً ، ووجدنـا الشمـردل من شعـراء العصر الأموي قد خرج لصيد الحبارى بجارح ضار جائع ، منقاره معكوف ، ونفسه شجاعة :

قد أغتـــدي قبـــل طلـــوع الشمس للصيد في يوم قليل النحس
بأحجـــن الخطـــم كمـــيٍّ النفس غرثـــان الا أكلـــهُ من أمس(19)

ثم يطلق الشمردل وسيلته ، فتنطلق أثر الحباريات ، فتصيب منها تسعاً ، وتنشب مخالبها ، فاصطبغت بلون ما تحويه أجوافها ، فكانت صفراء :

فهـــن بـــين أربـــع وخمس صرعـــى ومستـــدمٍ أميمِ الرأسِ
كأنمـــا مخلبـــه في وَرْس من علـــقَ الأجـــواف بعـــدَ النهسِ(20)

ونظفر بتلك الصورة في شعـر أبـي نواس ، وقـد خرج يصطـاد ببـاز ألف صيد الكراكي ، فانه انسلّ نحوها من محبسه المجلو مثل البرق ، طيرانه منخفض ، واختار منها السمان ، فالتقطها بمخالبه ، ودق أعناقها :

على الـــكراكي نهـــم حريص آنس عشرين بذات العيص
فانســـلّ عن سكاره المحوصِ وانقضّ يهـــوي وهـــو كالوبيص
دانـــي جنـــاحيه الى قصيص فاعتـــام منهـــا كل ذي خميص

---

(17) ديوان حميد بن ثور (بائية أبي دؤاد) : 43

(18) ديوان ابن مقبل : 247 . أيهت : صحت لازجرها ـ الأفكل : الرعدة ، ويقصد المرح والنشاط في العدو ـ الخصائل : قطع اللحم ، ويعني عضلات فخذيه وعضديه ـ استخفت : لانت وأرعدت .

(19) التذكرة الحمدونية (مخطوط)5 / 344-345 . أحجن الخطم : معكوف المنقار ـ كمي : شجاع ـ غرثان : جوعان .

(20) المصدر السابق : 5 / 344 ـ345 . مستدم : مصاب ـ أميم الرأس : برأسه ـ ورس (بفتح فسكون) : نبات أصفر الزهر ـ النهس : الأخذ بالمخالب .

فقــدَّه بمخلــب قبوص فكم ذبحنـا ثم من موقوص[21]

ويرى فهد أبي نواس سربين من الوحش ، فينساب نحوهما كالحية ويقترب منهما ، ويهاجمهما مباغتاً ، ويعيث بهما قتلا ، وكسراً[22] .

وربما اتخذ الرماة من شجر الأرض ستراً يلوذون به ، ليحجبهم عن الوحش ، فيختلونه حتى اذا اقترب منهم قيد مدى النبال ، أطلقوها ، وقد تخطىء اذ تكون الطريدة أسرع منها ، فيغرون كلابهم بها ، قال علقمة بن عبدة يصف بقرة وحش قدر لها النجاة من نبال وكلاب القناص ، بعد تشبيه ناقته بها :

تعفَّـق بالأرطـى لهـا وأرادها رجـالٌ فبـذَّت نبلَهم وكليبُ[23]

ويجسد لبيد خطط الصيادين في القنص ، ونعني شروعهم برمي النبال فان طاشت أرسلوا كلابهم نحو الطريدة ، فيقول :

حتـى اذا يئس الرمـاة وأرسلوا غضفـاً دواجـن قافـلا أعصامها[23]

وتخفى الصيادون باللبابيد ، يصنعونها من الصوف ، فاذا اقترب الاسد منهم ، حسروا عن رؤوسهم أو باغتوه ، ثم يبادرون الى تقييده وسنعرض لذلك في بحث وسائل الصيد .

ومن القناص من يتخذ ناقة ، يستتر بها تسمى الدرية ، ويدخل مراعي الظباء مختفياً مع تلك الناقة ، حتى تألفه الوحش ، ثم يدنو من الظباء فيمسكها واحدة واحدة . وهذه الحال تقتضي من القناص أن يحني ظهره وهي صورة تشبه الشيخ الذي قوَّست وطأة السنين ظهره ، فقال عدي بن زيد :

حنتنـي حانيات الدهـر حتى كأنـي خاتـل يدنـو لصيد[24]

---

(21) ديوان أبي نواس : 647 ، وانظر : 662 -363 بخصوص الفهد . سكاره : محبسه ـ الوبيص : البرق ـ المحموص : المجلو ـ النصيص : أقصى السير والسرعة ـ اعتام منها : أخذ خيارها ـ قبوص : القبص : الأخذ بأطراف المخالب ـ الموقوص : المكسور العنق ـ المصوص : لحم ينقع في الخل .

(22) ديوان علقمة (بيروت) : 13 ، المفضليات : 2-193 ، تعفق : تستر ـ الأرطى : نوع من الشجر ـ بذت : غلبت بسرعتها فلم تدركها كلابهم ولا نبالهم .

(23) ديوان لبيد (بيروت) : 226 ، شرح القصائد العشر : 157

(24) ديوانه : 198 ، نسبة كشاجم لأبي الطمحان المصايد : 207 .

ونهاية تلك الأحوال والصور أن للصيادين عادات توصلوا بها للايقاع بطرائدهم ، وأنهم فطنوا الى شدة حذر الوحش ، وحرصه على النجاة ، فعالجوها بالتخفي والمخاتلة ، وقادتهم تجاربهم الى ابتكار الطرق في تفادي اثارة انتباه تلك الطرائد ، وعرضنا بعضها ، ونعتقد أنها جديرة في وقفنا على تلك العادة ، نعني عادة التخفي .

2 ـ ملابس الصياد

لقد أولى الشعراء ملابس الصياد شيئاً من الاهتمام ، واسترعى انتباههم كونها أخلاقاً بالية ، فهذا الذبياني يعرفنا بصياد قد ألف القنص ، كثير الكسب ، يكثر من أكل اللحم ، ليس عليه من ثياب سوى أطمار بالية :

محالف الصيد هبَّاشٌ له لَحِمٌ ما انْ عليه ثيابٌ غير أطمارِ(25)

ويذكر كعب بن زهير قناصاً آخر ، أخفى جسمه بثوبين ممزقين له كلاب غضف ، معلمة تفهم الصغير ، وقد تكتفي بالاشارة :

من خفيٍّ الطِّمرين يسعى بغُضْف لم يؤيِّهْ بهنَّ الا صفيرا(26)

ويحدثنا أبو ذؤيب الهذلي عن صياد ، له قوس يعتز بها ، فهو يقيها بنفسه وبأطماره من الندى :

يدني الخشيفَ عليه كي يواريهَا ونفسه وهو للأطمار لبَّاسُ(27)

ويصف الشماخ بقرة خنساء وولدها ، ثم يبين أنهما تسمَّعا صوتاً خفياً لرامٍ له كلاب ، وظلا حذرين ، لئلا يباغتهما ذلك الصياد ذو الملابس الممزقة ، بكلابه الضامرة تلك ، اللهجة بالصيد ، حتى صنع لها من جلد فرائسها أطواقاً لرقابها :

فتوجَّسا في الصبحِ ركزَ مكلِّبٍ أو جاوزاه فاشفِقَا اشْفَاقا
سَمِلُ الثياب له ضوارٍ ضمرٌ محبوَّة من قدِّه أطواقا(28)

---

(25) ديوانه : 52 . هباش : كساب ـ اللحم (بفتح فكسر) : الذي يكثر أكل اللحم .
(26) شرح ديوانه : 167 . طمران : خلقان ـ التأييه : الزجر والدعاء .
(27) شرح أشعار الهذليين : 1 -228 (تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة) .
(28) ديوان الشماخ /74-75 .
توجسا : تسمعا ـ ركزا : صوتا خفيا ـ جاوزاه : تعدياه ـ سمل الثياب : خلقها ـ محبوة من قيده أطواقا : أن هذا القانص جعل لكلابه قلائد من جلود صيدها .

ويصادفنا الصياد بالأوصاف ذاتها عند الأخطل ، بأطمار ه ، وكلابه الذوابل ، وفي رقابها القلائد :

من مخلِق الأطمارِ ، يسعى حولهُ غضفٌ ذوابلُ في القلائد ضمَّرُ(29)

وثمة قنّاص من جلاّن ، أبصره ذو الرمة مختبئاً في قرموصه فألفاه رذل الثياب :

وبالشمائل من جلأنَ مقتنصٌ رَذْلُ الثياب خفيٌّ الشخص منزرب(30)

وأحياناً يجد ذو الرمة ثيابه بالية غبراء ، وشعره أشعث ، لا يملك شيئاً سوى ما تمسكه عليه كلابه الضارية :

مُقزَّع أطلسُ الأطْمار ليس له الا الضرَّاء والا صيْدها نَشَب(31)

أو كأنَّ ثيابه الخلق قد كست ذئباً من ذئاب الصحراء :

عايَنَ طرَّاد وحوشَ مصيدا كأنما أطمارُهُ اذا عدا
جُلِّلْن سرِحانَ الفلاةِ ممْعَدَا يحثُ ضرْواً ضارياً مقلدا(32)

ولكي يمنح الصياد ذراعيه حرية الحركة ، وليمكنهما من السيطرة على قوسه وسهمه ، يشمِّر عنهما ، يقول أبو المثلم :

مشمَرٌ وله بالكفُ محْدَلَةٌ وأصْمَعٌ نصلُهُ في القِدحِ معتدل(33)

وواضح أن الشعراء لم يدخلوا في التفصيلات ، ولم يوضِّحوا نوعية الملابس ، وأشكالها ، وكل الذي أطلعونا عليها انها أطمار رثة ، كنا نطمع أيضاً في التعرف الى ملابس الصيادين الذين اتخذوا الطرد رياضة ومتعة ، اذ المفهوم مما أوردناه أن تلك الأطمار كانت مما يلبسه الفقراء ، ممن توسَّل بالصيد أسلوباً للقوت والعيش ، وحاولنا استنطاق ما ظفرنا به من الشعر ، ولكن دون جدوى ، ومن المعقول أن تكون مما يلبسه القوم آنذاك ، ولا سيما في حربهم ، أو رحلاتهم الطويلة .

وقد وجدنا أبا نواس في طردية له يصف الصيد بالبندق ، يلم على عجل بملابس

---

(29) الأخطل (الروائع) : 26
(30) ديوان شعره : 14
(31) ديوان شعره : 24
(32) ديوان شعره : 119
(33) شرح أشعار الهذليين : 1 -274 . محدلة : قوس فيها ميل الى أحد شقيها ـ أصمع : خفيف حديد ، يعني سهما .

أصحابه رماة البندق ، الذين ارتدوا القمصان المفهافة الطويلة :

.... غاديتُها قبل الآذان المسمعِ

وقبلَ وعواعِ الغراب الأبقعِ بكلُّ هفهاف القميص شعشعِ(34)

ويبدو أن رماة البندق كانوا يحسرون أذرعتهم أيضاً ، اذ نفهم ذلك من أبيات رواها الجاحظ، ولكنه لم ينسبها لشاعر :

وقد اغتدى مَلَثَ الظلام بفتية للرمي قد حسروا له عن أذرع(35)

وحين انتشر اصطناع جوارح الطير في القنص ، كانت تحمل على اليد ، فاتقى الصياد أذى مخالبها الحادة بأن ألبس كفه قفازاً ، ومن أولئك أبو نواس ، اذ اعتبر الزُّرق الذي كان يملكه زينة ليد الصائد وللقفاز أيضاً :

زيْنُ يَدِ الحامِل والقفازِ فكم وكم من طوَّلٍ جمَّازِ(36)

وحين أراد الشاعر أن يحمل بازياً على كفه ، ألبسه قفازاً ذا شعر قد صنعه من جلد سنجاب ، ليقيه ذلك القفاز من البرد ، ويحميه من مخالب البازي اذا طفر :

كسوت كفي دستباناً مشْعَراً فروة سنجاب لؤاماً أوبرا

تقي بنان الكَفَّ الا نحصرا وغمزة البازي اذا ما طفرا(37)

وثمة اشارتان أخريان الى القفاز في شعر أبي نواس(38) .

وتلك تنويهات مقتضبة كذلك ، ولم تكشف لنا عن ملابس الصيادين في مختلف العصور العربية ، ويبقى رأينا وجيهاً بخصوص ان القوم كانوا يلبسون في صيدهم وطردهم ما كانوا يرتدونه في حروبهم أو رحلاتهم الطويلة ، وهي ملابس - في تصورنا - خفيفة يمكن أن تسمح بالحركة ، وتساعد الصياد على الانطلاق دون عوائق .

3 ـ التبكير

ومن عاداتهم في الصيد أيضاً التبكير للخروج له ، ووجدت تلك عاداتهم في الجاهلية والعصور الاسلامية . ولقد عرضت لهذا في بحثي « مواسم الصيد » ، وأعتقد بأن فيه ما يوضح تلك العادة ، لذا أجدني مكتفياً به .

---

(34) المصايد : 251 ، والطردية لم نجدها في ديوان أبي نواس .

(35) البيان والتبيين : 3-87 (شرح حسن السندوبي ،(ط3 القاهرة1947) .

(36) ديوان أبي نواس : 648 .

(37) ديوان أبي نواس : 650 . دستبان : قفاز - مشعر : ذو شعر - لؤام : ملائم - أوبر : ذو وبر .

(38) ديوانه : 666-670 .

الباب الثاني
الطرائد

لكي يتسنى لي دراسة الطرائد بدقة وتفصيل ، ويسهل تناولها بشيء من الاحاطة ،لا بد من اللجوء الى تقسيمها الى فصلين :

1 ـ الحيوان .

2 ـ الطيور .

الفصل الأول
الحيوان

1 ـ الحمار الوحشي

الحمر نوعان ، أهلية ووحشية ، يجمع على حمير وأحمرة أيضاً ، وقد يطلق على الأنثى اضافة الى قولهم أتان(1) ، ويدعى الوحشي من الحمر الفرا ، ومنها قوله (ص) : « كل الصيد في جوف الفرا » ويقال له : حمار وحش ، أو حمار وحشي ، وهو العَيْرُ (بفتح فسكون) ، وغلب على الوحشي(2) .

ويعرف الوحشي أيضاً بالمسحل ، والجأب ، والأخدري والصغير تولب ، والكثير من الأتن عانة(3) .

لم يكن وصف حمار الوحش في الشعر العربي مقصوداً لذاته وانما تسلل الشعراء اليه ، وتقصوا احواله مع أتنه ، وتتبعوا مراحل طرده بدافع اظهار قوة الناقة ، اذ اتخذوه مشبهاً به ، وخلعوا عليه نعوتاً كثيرة ، ومسميات متعددة ، ومن أولئك الأعشى(4) حين أطلق على حمار الوحش (جأباً) ، ومثله زهير(5) ، وابنه كعب(6) ، والشماخ(7) وربما عبر

---

(1) حياة الحيوان : 1 -216
(2) حياة الحيوان : 1 -231 ، القاموس (العير) .
(3) المصايد : 156 . الأخدري : من نتاج فرس لازدشير بن بابك اسمه اخدر توحش وانجب
(4) ديوان الأعشى : 325
(5) شرح ديوان زهير : 65
(6) شرح ديوان كعب : 17
(7) ديوان الشماخ : 35

أحدهم عنه بالأخدري ، كما صنع ذو الرمة[8] ، والعجاج[9] في أرجوزة له ، ومن المسميات التي ترددت في شعر الشماخ (وهو أوصف الناس للحمير)[10] ، « أحقب ناشطاً »[11] و « لاحقب قارب »[12] و « أحقب سهوقاً »[13] ، ويسمى الأتان « حقباء قاربة »[14]) ، أو « خنساء »[15] .

ولم يكن الشماخ سباقاً الى نعته حمار الوحش بالأحقب ، أو أنثاه بالحقباء ، فان أوس بن حجر[16] لم يغفل ذلك ، فلقد شبه نشاط ناقته في سيرها بنشاط أحقب قارب ، واسترعى نشاط الحمار الذي يتبع أربعاً من أتنه بخفة وسرعة انتباه عدي بن زيد[17] ، فشبه نشاط ناقته بنشاطه ، ومثلهما الأعشى[18] أيضاً ، ولم يفت خفاف بن ندبة السُّلمي[19] أن يذكر الحمار الأحقب ، أثر تشبيه ناقته به ، ولحظة يبصر ذو الرمة[20] نفسه جالساً على رحل شده فوق ناقته ، يشبهها بأحقب قد ضمره طرد أتنه المتخلفات عن القطيع ، فهو نشيط قوي ، وكذلك كانت ناقته .

ومن أوصاف حمار الوحش التي صارت له علماً أيضاً ، القارح[21] ، وذو جدة[22] ، وذو جدتين[23] ، ومكدَّم[24] ، ومستقبل[25] ، والجون الرباعي[26] ، وعَيرْ[27] ، والأتان

---

(8) ديوان شعره : 135

(9) أراجيز العرب : 116

(10) خزانة الأدب : عبد القادر البغدادي : 3-178 (السلفية ، القاهرة1349) .

(11) ديوانه : 12

(12) ديوانه : 41

(13) ديوانه : 56

(14) ديوانه : 81

(15) ديوانه : 73

(16) ديوان أوس : 67 . قارب حمار يعجل ليلة الورد .

(17) ديوان عدي : 44

(18) ديوان الأعشى : 201

(19) شعر خفاف بن ندبة السلمي : 90 (جمع وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، ط1 بغداد1968)

(20) ديوان شعره : 360

(21) ديوان النابغة : 81

(22) ديوان الأعشى : 229

(23) ديوان الأعشى : 165

(24) المصدر السابق : 349 ، ديوان الطرماح : 369

(25) ديوان الأعشى : 213

(26) شرح ديوان كعب : 140 ، ديوان الشماخ : 82 ديوان الحطيئة : 19

(27) ديوان امرىء القيس : 58 . ديوان عبيد بن الأبرص : 50 ، ديوان الطرماح : 269

عيرانة(28) ، وغيرها(29) .

أما الدافع الآخر الذي يكمن وراء انصراف الشعراء الى وصف حمار الوحش ، فهو رغبتهم في اظهار سرعة فرسهم ، وقوته ، وقدرته على اللحاق بهذا الحيوان المعروف بمتانته وصلابته وطاقته على العدو والنجاة ، فهم حريصون على وضع نهاية لحياة الحمار ، في حالة طرده بالفرس ، مدلِّلين بهذا على ادراكه له ، فهو اذن فرس ذو ميعة ، وقيد الأوابد أجرذ .

ويلاحظ في أغلب هذا الشعر ، أن الشاعر يمر بوصف الحمار عجلاً ، ولا يتريث فيه بل ارانا لا نتجاوز الحقيقة اذا قلنا : انه يلمُّ بوصف حمار الوحش على قدر يكفي لادراك فرسه له ، ولوقت كاف لطعنه ، ثم سرعان ما يعود الشاعر أدراجه ليتم فخره بهذا الفرس ، وكأنه بتصرفه هذا مطمئن الى ما يعرفه الناس عن سرعة الحمار وقوته ، وماذا يعني اللحاق به أو النجاح في صيده .

ونجد أن حمار الوحش قد استحوذ على اهتمام أغلب الشعراء ، فهم يصفونه بدقة ، ويتتبعونه وهو يرعى أتنه ، وكانوا لا يخرجون عن تصورهم الانساني له ، (فهو يحدب على أتنه ، ويغار عليها غيرة الرجل على نسائه ، وينجيها من مظان التهلكة)(30) ، وثمة شيء يشغل الحمار أكثر من غيره ، وهو الماء ، فطالما فكر وتأمل ، وحين تطفر الى ذهنه صورة مورد للماء معيَّن يؤرقه الخطر الذي يحيط به ، فكثيراً ما اتخذ الرماة تلك الموارد والعيون مواضع يتربصون فيها للوحش ، ولنبحث في شعر امرىء القيس ، فاننا سنجد شاعرنا قد أولى تلك الصور عنايته :

كأني ورد في والقرابَ ونُمرقي — على ظهر عَيرْ واردِ الخبراتِ
أرنً على حُقُبِ حيالٍ طروقة — كذودِ الأجير الأربعِ الأشراتِ
عنيف بتجميعِ الضرائر فاحشٍ — شتيمٍ كذلق الزُّجِّ ذي ذمراتِ
ويأكلن بهمى جعدةً حبشيَّةً — ويشربْنَ بردَ الماء في السبراتِ
فأوردها ماءً قليلاً أنيسُهُ — يُحاذرْنَ عَمْراً صاحب القتراتِ

---

(28) ديوان عبيد : 27
(29) الشذر الذهبي : 22
(30) شعر الطبيعة في الأدب العربي ، الدكتور سيد نوفل : 33 . (القاهرة1945)

تلــــثُ الحصى لثَّـــاً بسُمــــر رزينة   مَوازنَ لا كُزمٍ ولا معِراتِ[31]

ولم يكن أوس بن حجر بعيداً عن هذه المعاني التي عرفها امرؤ القيس ، وان اختلف عنه بالألفاظ وأسلوب العرض ، أما الأفكار الأساسية لصلة الحمار بأتنه ، وحيرته في تدبير شؤونها فتكاد تكون نفسها[32] .

وللذبياني[33] أبيات أظهر فيها مدافعة الحمار عن أتنه ، وما يناله لقاء ذلك من كدم وعض ، تدفعه الى ذلك غيرته عليها ، ومثله زهير[34] ، والأعشى[35] ، وكعب بن زهير[36] ، والشماخ[37] ؛ وربيعة بن مقروم[38] ، والأخطل[39] ، والفرزدق[40] ، وذو الرمة[41] ، ورؤبة[42] .

ولم يغفل شعراؤنا الأتن بل كان اهتمامهم بها لا يقل دقة عن وصفهم الحمار ، فهذا زهير[43] يصف الأتن وهي تقطع الأمكنة الغليظة ذات الحصى الكثير ، بسقوط ولو قد انقطع حبلها ، ومرة أخرى يشبهها بأقواس السراء[44] ، وكذلك الشماخ[45] ، وشبهوها بالقنا الذوابل[46] أيضاً .

---

(31) شرح ديوانه : 58 . أرن : صاح ـ حيال : جمع حائل وهي التي لم تحمل في سنتها ـ الطروقة : التي يقربها الفحل ـ الذود : ما بين الثلاثة الى العشرة ـ ذلق الزج : حد ـ ذي زمرات : أي يزجر أتنه مرة بعد مرة ـ السبرات : الغدوات الباردة ـ عمرو : وهو عمرو بن المسيح الطائي ، من أرمى العرب للصيد ـ تلث : تسحق الحصى بحوافرها ، لصلابتها وشدتها ـ كزم : جمع أكزم : وهو القصير المنقبض ـ المعرات : التي ذهبت ما حولهن من الشعر ، والمعر مكروه في الدواب .

(32) ديوان أوس : 67-73

(33) ديوان النابغة : 81-82

(34) شرح ديوانه : 65-72, 375-378

(35) ديوان الأعشى : 119-120, 325

(36) شرح ديوان كعب : 97-99, 140-152, 170-183

(37) ديوان الشماخ : 3-4, 12-17, 35-37

(38) المفضليات : 1/179 ـ180, 181-182

(39) التكملة لشعر الأخطل : 150 (اختارها الأب انطون صالحاني اليسوعي بيروت1938) ، الشذر الذهبي22-23

(40) شرح ديوان الفرزدق : 2-6/ 7 ـ747

(41) ديوان شعر ذي الرمة : 9-18 , 45-46 , 135-138 , 360-367

(42) مجموع أشعار العرب : 110-112 ، اراجيز العرب : 103-108

(43) شرح ديوان زهير : 67

(44) المصدر السابق : 131

(45) ديوان الشماخ : 3

(46) المفضليات (ربيعة بن مقروم) : 1-179 ، شرح ديوان كعب : 97

وصوَّر الشعراء حمار الوحش دائب التفكير بشؤون أتنه ، يؤرقه عطشها ، ويجهد في أخذها الى مورد خالٍ من الصيادين ، حيث يكمن الموت في سهامهم ، فهاك شعراً لزهير ، وهو يبرز الحمار يراجع ذهنه فاذا به يتذكر مشرباً بشهاد قد اعتاد ارتياده ، ولكن ثمة عقبات دونه ، فجبال بعيدة تتراءى من بعيد خاشعة ، ويمكنه أن يرى مسالك تؤدي اليها :

ارتاع يذكرَ مشرْباً بشهادِهِ ... من دونه خشع دنوْنَ وأنقبُ(47)

وبقيت الأتن عطاشاً ، يسوقها الحمار ويطردها ، يحجزها لئلا تهرع الى مورد الماء حيث الصيادون ساكتون ، منهم من شرع سهامه ، وآخر أعد حباله ليوقعها فيها ، وفي الوقت الذي أيقن الحمار أن الشريعة لم يبق فيها عدو من وحشٍ ضار أو صياد قاد أتنه اليها ، وهذا ما أخبرنا به الأخطل :

فظلَّت عطاشاً وهو حامٍ يذودُها ... يخافُ رماةً موقفين وحابلاً
الى أن رأى أنَّ الشريعة قد خلتْ ... وأتبَعَ فيها الاخراتِ الأوائلا(48)

ويتحفنا العجاج بصور تتسم بالدقة والحركة ، نلمس هذا في معانيها واختياره الرجز لها ، فالحمار نشيط قوي ، يقبل بأتنه ويدبر ، قد جمع أذنية فكأنه مصاب يجري هنا وهناك ، لا يقف ولا يأخذه سكون وهدوء ، وكلما وجد في أتنه سرعة اسرع :

كأنه اذْ صعصعَ الكِرارا ... مُخَضْرَمٌ من جمعِهِ الاصرارا
كأنَّ من تقريبهِ المِشوارا ... وذألِ البَغْيِ بهِ هِجارا
اذا استمرَّتْ أسرع المِرارا(49)

حافره متسع ، لا يهتم لقوته ان ضلت أتنه الطريق ، ولا يتعبه طول المسافة :

كأنَّهُ في حافِرِهِ انفجارا ... ان جُرْنَ لم يَنْدَمُ على ما جارا

وتتبع رؤية حمار الوحش قائداً لأتنه ، والأرض غليظة يلفها السراب ، ويتراقص من بعيد سدر الهجرين ، ويبدو كأنه جماعات وحزن ، وهذا لا يكون الا في وقت الحر

---

(47) شرح ديوان زهير : 375 . خشع (ضم فضم) : جبال خاشعة أي أن أطرافها لا ترى الا خاشعة لبعدها عن الناظر .
(48) الشذر الذهبي : 22 . موقفين : ساكتين ـ الحابل : الذي ينصب الحبالة .
(49) أراجيز العرب : 117 . صعصع الأتن : أقبل بها وادبر ـ الكرار : المكاره ـ مخضرم : مقطوع الأذن ـ من جمعه الاصرار : أي يجمع أذنيه ـ انفجار : اتساع ـ جرن : ضللن الطريق .

الشديد ، فازداد ظمأ الأتن ، فذهب بها الى الورد ، وهي تعدو فأثارت بعدها الغبار ، ينهق فيها فكأنه يشرق بريقه :

حتى اذا زَوْزى الزيَّازي هزَقا ولف سدر الهجرَيْن خزقا
راح بها في هَبْوة مُستنهقا كأنما اقترَّ نشُوقا مُنْشقا(50)

ومما يستلفت النظر في صيد حمر الوحش انه لم يكن بكلاب الصيد ، وانما بالسهام، والصيادون قعود قد اتخذوا قتراتهم عند موارد الماء ، يتربصون بها ، أو بنصب الأشراك في السبل المؤدية الى تلك الموارد ، والى هذا أشار كعب بن زهير :

وهمٍّ بورد بالرسيس فصَدَّهُ رجالٌ قعودٌ في الدُّجى بالمعابلِ
اذا وردتْ ماءً بليلٍ تعرَّضتْ مخافةَ رامٍ أو مخافةَ حابلِ(51)

أو بالرماح اذا طرد الصياد حمر الوحش بفرسه ، وتحين ـ وسيلتذاك ـ منية الطريدة ، والى ذلك أشار زهير :

بذي مَيعة لا موضعَ الرمحِ مسلمٌ لبطء ولا ما خلْفَ ذلك خاذلهُ(52)

وفي الأحوال الأخرى ، وحين يشبه الشاعر ناقته بالحمار ، نجد الصياد يخطىء الطريدة فتلوذ بالفرار ، فالأعشى تعقب سهم صياد فاذا به يمر تحت صدر الحمار فانثني على جنبه ، ومضى في غير ابطاء :

فمرَّ نضِّي السهم تحت لَبانهِ وجالَ على وَحْشيِّهِ لم يُتَمْتِمِ(53)

ويتفق الشماخ مع الأعشى في نهاية تربص الصياد ، فهو يسدد سهمه نحو الحمار وأتنه لما دخلت الماء قاصداً هدفاً منها حيث مقاتلها ، ولكنه لم يجن سوى الأسف ، فسرعان ما يخطىء الهدف فيولين الأدبار ، ويطلقن أرجلهن للريح ، ويورثنه الندم ، مخلفات غبارا كأنه سرادقات :

فسدَّد اذ شرَعْن لهنَّ سهماً يؤم به مقاتلَ باديات

---

(50) مجموع أشعار العرب : 111 ، أراجيز العرب : 106 ـ الزيازي : الأراضي الغليظة ـ الزوزي : السراب ـ هزق : رقص ـ السدر : بنت ـ الهجرين : موضعان ـ الهبوة : الغبار .

(51) شرح ديوان كعب : 98-99 . الدجى : جمع دجية وهي القترة ـ المعابل : نصال عراض .

(52) شرح ديوان زهير : 137 . لا موضع الرمح مسلم : يعني الطريدة التي يطلبها من الوحش لا تفوته .

(53) ديوان الأعشى : 120

فلهّف أمّـــهُ لما تولّت وعضّ على أنامـــلَ خائبات[54]

وهكذا أبرز لنا الشعراء الصراع الدامي المستمر بين الانسان والوحش فكأن هرب الحيوان ونجاته من الموت يتيح للشاعر فرصة تحديد قوة ناقته ونشاطها ، الى جانب منحه لذلك الصراع صفة الاستمرار والديمومة .

واذا شئنا أن نتفقد وصف صيد حمر الوحش في شعر أبي نواس ، وهو من شعراء العصر العباسي الذين أكثروا من شعر الطرد ، فلا نعتقد أننا سنوفق في العثور على بغيتنا فيما روي لأبي نواس من طرديات ، والتي أربى عددها على الثلاثين ، وسيؤدي بنا البحث الى المآل نفسه ، ان حاولنا ذلك في شعر معاصريه ، فالشعراء في ذلك العصر قد انصرفوا الى وصف جوارح وضواري الصيد ، ولم يهتموا كثيراً بالطرائد، ولعل حمار الوحش من حيوان الصحراء فلم يكن في بيئة الشعراء العباسيين .

2 ـ الثور الوحشي

عدد الدميري أربعة أصناف لهذا الحيوان وهي : ألمها والأيل واليحمور والثيتل ، واسترعى انتباهه من صفاتها أنها تقنع باستنشاق الريح اذا لم تجد الماء صيفا[55] .

ونقل عن أرسطو (أن هذا النوع يصاد بالصفير والغناء ، ولا ينام ما دام يسمع ذلك ، فالصيادون يشغلون بذلك ويأتونه من ورائه ، فاذا رأوه قد استرخت أذناه أخذوه)[56] .

ويطلق على قطيع بقر الوحش الربرب[57] ، والضوار (بضم الضاد)[58] والأجل (بالكسر)[59] ، والسراب[60] ، والحنطلة[61] .

ونراهم اتخذوا من بعض صفات البقر التي عرف بها كناية عنه ومن أولئك شاعر

(54) ديوان الشماخ : 4-5 . شرعن : دخلن الماء - يؤم : يقصد ـ لهف أمه : قال والهف أماه .

(55) حياة الحيوان : 1-139

(56) حياة الحيوان : 1-98 ، وكذلك نهاية الأرب : 9-325

(57) القاموس (الرب) ، المصايد : 162

(58) القاموس (الصورة) ، حياة الحيوان : 2-61 ، المصايد : 162

(59) القاموس (الأجل) ، المصايد : 162

(60) المصايد : 162

(61) المصايد : 162 ، أنظر هامش الصفحة المذكورة .

الجاهلية امرىء القيس ، اذ طاب له أن يدعو ثور الوحش (أخنس ذيال) حين شبه به ناقته :

فخَـــرٌ لروقيهِ وامضيت مُقْدِماً طوال القــرا والـــرُّوق أخنس ذيَال(62)

ومثله ذو الرمة(63) ، أمـا بشر بن أبـي خازم(64) فسماه (أخنس ناشـط) وكذلك الحطيئة(65) ، وأردف زهير(66) ثلاث صفات اشتهـر بهـا هذا الحيوان ، فناقتـه كخنسـاء مسافرة أم فرقد ، والسفعة في الثور علامة ذكرها الأعشى(67) ، والمثقب العبدي(68) ، وذو الرمة(69) ، وسويد(70) ومن صفات الثور الأخرى التوشية في الأكارع ، كما ورد في شعر ابن أبي خازم(71) والنابغة(72) ، والأخطل(73) .

وطالما أفزعت الكلاب ثور الوحش ، فأضحى مذعوراً لا يلوي على شيء ، فيبادر كعب بن زهير الى تشبيه ناقته به :

واذا ما أشـــاءُ أبعـــثُ منها مطلـع الشـــمس ناشطـــاً مذعوراً(73)

عندما يتخطف الطاعون أبناء أبي ذؤيب الهذلي الخمسة تروعه الحادثة ، وتدفعه الحكمة والتأسي ، فيجد سلوته في مصيد ثور ذعرته كلاب الصيد فأطارت لبه ويخوض معها معركة حامية ، وحين أوشك أن ينتصر بادره الصياد بسهم صرعه فسقط كما يهوي بعير ضخم :

والدهـــر لا يَبْقـــى على حدثانهِ شبـــبٌ أفزتّـــهُ الـــكلابُ مروَّعُ(74)

---

(62) شرح ديوانه : 45 . القرا : الظهر ـ ذيال : طويل الذيل والقد متبختر في مشيته .
(63) ديوان شعره : 299
(64) ديوان بشر : 204
(65) ديوان الحطيئة : 377
(66) شرح ديوانه : 225
(67) ديوان الأعشى : 295
(68) شعر المثقب العبدي : 10 (تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين بغداد1956) .
(69) ديوان شعره : 118
(70) المفضليات : 1-194 وأغاني الطبيعة : 136
(71) ديوان بشر : 51 ، وانظر أيضاً : 55-82
(72) ديوانه : 26-27
(73) شعراء النصرانية بعد الاسلام ، لويس شيخو : 2-181 (بيروت1924) ، الزهرة ، أبو بكر بن داود الأصفهاني ورقة : 67 (القسم الثالث ، مخطوطات ـ مكتبة المتحف العراقي رقم1345) .
(74) شرح أشعار الهذليين : 1 / 25-32

وحين ينفرد الثور بذي بركان خميصاً ، يطوي البلاد بنشاطاً وقوة ، في جسمه بقع تخالف سائر لونه ، فهو قلق ، لأن كلاب الصيد لا تتركه وشأنه ، فكثيراً ما أفزعته ، وتحمله على تصور الموت ثم تمضي ، فهو مرتاع دائماً ، يموت مرات ، بهذا يشبه ابن أبي خازم ناقته :

تراهـــا اذا ما الآل خَبَّ كَأَنهَّا فريدٌ بذي بركانَ طاوٍ ملمَّعُ
له كل يومٍ نبــأةٌ من مكلِّبٍ ثرِيه حياضَ الموتِ ثمَّـــت تقلعُ[75]

واذا شئنا الاسترسال في تقصي النعوت التي ذكرها الشعراء فسيقودنا الى الأطناب الممل ، لذا ارتأيت الاكتفاء بالاحالة الى الدواوين ، أثـر تحـديد بعض الصفـات التـي وردت ، قانعين بالنصوص السالفة .

فاليك علقمة يشبه ناقته بعد السرى بمولعة شبوب ، أي مَسنة ، تخشى الصيادين الذين يتسترون لها بالأرض ، ولكنها فاقت نبلهم وكلابهم[76] ، وفرس عامر بن الطفيل الذي يحمله كأنه ثور وحشي ، قوائمه وعيناه سود ، يسبح في عدوه ، يعيش منفـرداً في البقاع ، قد أفزعته كلاب الصيادين ، فخاف منها فأطلق قوائمـه الدقيقـة مبتعـداً عن الخوف[77] .

وناقة سحيم مرحة ، وان طال النهار ، فكأنه وضع قتوده على ثور ناصع اللـون ضامر ، سريع يخرج من بلد الى آخر ، تخشاه كلاب الصيد لمنعته وسرعته ، فهي تتقيه ، ان هجمت عليه أو كر عليها كالأسد[78] .

ويطلـق الأعشى على الثـور (الشــاة)[79] ، ويدعـوه الأخطـل (مقفـر خاضـب الأظلاف)[80] ، ويصفه العجاج (ذا شيات أخنسا)[81] ، وهو عنـد الشمـردل (ناشطـا

---

(75) ديوان بشر : 120 .
الآل : السراب ـ خب : ارتفع واضطرب ـ ذو بركان : موضع .
(76) شرح ديوانه : 13 ، وانظر المفضليات : 2-193
(77) ديوان عامر بن الطفيل : 40 (دار صادر ـ دار بيروت1959) .
(78) ديوان سحيم : 28-29
(79) ديوانه : 297
(80) جمهرة أشعار العرب : 349 ، الأخطل (الروائع) : 21 ، اراجيز العرب : 96
(81) شرح ديوانه (مخطوط) ورقة : 43

مذعوراً)[82] ، وينـاديه الطرمـاح (أعـين ذب رياد)[83] مرة وأخـرى (مخفق الحشيين)[84] ، ويسميه جرير (الزاجل)[85] ، وفي طردية لأبي نواس (ناشط)[86] .

ويلاحظ أن من مظاهر توحش الأمكنة ، وخلوها من الساكنين أن يأتيها بقر الوحش ، فالنابغة مر بآثار ديار ظلامة المندرسة ، فألفاها قد سكنتها أوابد الوحش وشاهد صواراً ، قد نبتت فيها النباتات ، بعد أن أصابها أول مطر الربيع :

تأبَّد لا ترى الا صواراً بمرقوم عليهِ العهدُ خال[87]

وتتكرر عنده بعض تلك الصور ، حين عرج على آثار منازل أسماء :

ترى كلَّ ذيَّال يعارضُ ربرباً على كلِّ رجَّاف من الرملِ هائلِ[88]

ولقد فطن الشعراء الى مشاعر الثور ، فصوروه قلقاً ، تغلبه الرياح ، فتميله ذات اليمين وذات الشمال ، وهو دان ، لأرطاة أو أية شجرة غيرها ، لائذ بها ، يبيت ليلته لا يغمض له جفن ، فالتيار شديد الانصاب ، والرعد غلظ الصوت ، والسيل يتهدده بهدم التراب الذي يقف عليه ، وكثيراً ما اختار الشعراء لوصف الثور وقت لمعان البرق ، وصوروه وكأنه ملتف بثوب أصفر ، أو كأنه مصطل ناراً فيظهر شخصه مصفراً من خلال اشعتها ، ومن أولئك الشعراء عبيد بن الأبرص[89] ، وابن أبي خازم[90] ، والذبياني[91] ، وعلقمة[92] ، وزهير[93] ، والأعشى[94] ، وكعب بن زهير[95] ، وأبو ذؤيب[96] ،

---

(82) منتهى الطلب (مخطوط) ورقة 137

(83) ديوان الطرماخ : 75

(84) المصدر السابق : 144

(85) أراجيز العرب : 60

(86) ديوان أبي نواس : 636

(87) ديوان النابغة : 96 (دار صادر - دار بيروت 1963) .

(88) المصدر السابق : 92

(89) ديوان عبيد : 59 -60

(90) ديوان بشر : 51, 55, 56, 82, 207, 204

(92) المفضليات : 2 -193

(93) شرح ديوانه : 45

(94) ديوان الأعشى : 213, 279, 295, 325

(95) شرح ديوانه : 162

(96) شرح أشعار الهذليين : 1 -27

وســحيم[97] ، وذو الرمــة[98] . والأخطــل[99] ، والعجــاج[100] ، والشمــردل[101] ، والقطامي[102] .

أما أبو نواس فينصرف الى وصف كلبه الذي أعده للطرد ، لكنه يتشاغل به عن ذكر الطريدة ، ويسهب في وصف هذا الكلب ، ولكنه مع ذلك لم يخرج عن الاطار الذي خططه الشعراء الذين سبقوه ، فيما يخص الظروف التي تكتنف الثور ، فالليل شديد الظلمة ، والصبح لما يأت :

قد اغتــدى والليل في ادهامه لم يحسر الصبــح دجى ظلامه

واليوم مطير :

يعــدُ يومَ الدجــنِ من أيامهِ فصــارَ والمقــرُور في أهدامهِ

ولنا أن نتصور ما عاناه ذلك الثور ، وهو يطوي ليلاً مطيراً ، ونحس ما قاساه من رياح ، وما أفزعه من برق ورعد :

ثم انتحــى في سَنَنَــيْ جمامهِ لناشــط يدفــع عن اخلامهِ[103]

صراع ثور الوحش مع الصياد وكلابه الضارية قديم ، يمتد في الماضي حتى يصل الى عصر امرىء القيس ، ذلك الرجل الذي رسم الخطوط الأولى لفن الطرد ، فقد وجدنا هذا الشاعر يعرج على وصف الطرد في كثير من قصائده التي صورت جوانب كثيره من حياته ، وكان امرؤ القيس شديد الحب لفرسه ، كثير الاعتزاز بناقته ، لذا وصفها ، وأبين هنا تشبيه الشاعر ناقته بحمار وحش ، ثم يتراجع بسرعة خاطفة ليشبهها بثور وحش ، ويعيش مع ذلك الحيوان ، وهو يحفر بظلوفه مربضا يبيت فيه ومكنساً يقيه الحر والبرد ، انه دخل العشاء ، وشرع يهيل التراب ويذريه كما يزيل الترب الظاهرة في الهاجرة ، لتباشر

(97) ديوان سحيم : 29

(98) ديوان شعره : 19 -299

(99) الأخطل (الروائع) : 21 -22 ، أراجيز العرب : 96 ، جمهرة اشعار العرب : 349 -350 . شعراء النصرانية : 2 -181

(100) أراجيز العرب : 52 ، شرح ديوانه (مخطوط) ورقة : 43

(101) منتهى الطلب (مخطوط) الورقة 137

(102) ديوان القطامي : 16

(103). ديوان أبي نواس : 636 . ادهامه : شدة ظلمته ـ يوم الدجن : اليوم الممطر ـ اخلام : اناث .

ابله برد الثرى ، وبات ذلك الثور متوسداً خذه الأسود ينام مثل أسير موثق مقيد مطروح على جنبه ، وفيما هو لائذ بأرطاة ، تعبق اذا بلّها الندى ، بدفعات من العطر كأنها بيت معرّس ، ومع الشروق ، صبحته كلاب الصيد ، التي أرسلها ابن مر أو ابن سنبس ، مجوعة ، جلودها زرق ، عيونها حمر تشبه زهور العضرس ، فقد أغريت وأشير لها بالهجوم :

كأنـي ورحلي فوقَ أحقبَ قارحٍ ... بشربَبـة أو طاوٍ بعرنـانَ موجسِ
تعشّى قليلاً ثم أنحى ظلوفَهُ ... يثـيرُ الترابَ عن مبيتٍ ومكْنَسِ
يهيلُ ويذري تربهَا ويثيرُه ... إثـارة نيّاتِ الهواجـر مُخْمسِ
فبـات على خدّ أحمَّ ومنكبٍ ... وضِجعتُـهُ مثـلُ الاسـير المكردسِ
وبـاتَ الى أرطـأةٍ حقف كأنهَّا ... اذا الثقتْهـا غبْيَةٌ بيتَ معرِسِ
فصبَّحَـهُ عنـد الشروقِ غُديَّةً ... كلابُ ابـن مُرٍّ أو كلابُ ابـن سبنسِ
مغَرَّثَـةً زرقـاً كأن عيونهَا ... من الذمـرِ والايحـاءِ نُوارُ عُضرْسِ (104)

فشعر الثور بها فولى مدبراً ، مخلفاً وراءه ستارا كثيفاً من التراب فكانت وهي تعلو ما ارتفع من الأرض وغلظ شعلة قابس ، وفكرة تراوده ، فكرة مفزعة مفجعة ، انه تصور نهايته المحتومة ، ان أدركته الكلاب بذي الرمث واستماتت في طلبه ، واستمات في دفعهن عنه ، فاما نفسه ذاهبة واما نفوس الكلاب جميعها ، ولكنها لحقت به ، واشتبك معها ، وتناولت ساقه ومزقت عروقها ، كما يمزق الولدان ثوب الذي يقصد بيت المقدس للحج ، ويئست من نواله ، بعد أن استبد بها الاعياء ، فلجأت الى الشجر لتستريح ، وتركته مثل بعير انقطع عن الضراب عجزاً ، فبرز للشمس :

فأدبَـر يكسوهـا الرغـامُ كأنَّهُ ... على الصمْـد والأكام جذوةُ مقبسِ
وأيقَـنَ أن لاقينـه أنَّ يومَهُ ... بذي الرِّمـثِ أن ماوتتُـه يوم أنفُس
فادركنَـهُ يأخـذنَ بالسـاق والنَّسا ... كما شبـرقَ الولـدانُ ثوبَ المقدس

---

(104) شرح ديوانه : 100 شربه ، عرنان : موضعان ـ طاو : ثور وحش ـ موجس : متسمع لكل نبأة ـ تعشى : دخل في وقت العشاء وهو أول الليل ـ انحى وظلوفه : اعتمد بأظلافه يحفر مربضاً يبيت فيه ـ النيات الذي يزيل التراب الظاهر لتباشر ابله برد الثرى ـ الثقتها بلتها ، لأن اللثق : الندى ـ الغبية ـ الدفعة من العطر ـ الذمر : الاغراء والتسليط ـ الايحاء : الاشارة لها الى الشيء .

وغـــوَّرن في ظلِ الغَضى وتركْنَهُ كفحلِ الهجـانِ الغـادرِ المتشمس(105)

ويظل الشعراء ينتهجون ذلك المسلك ، يسلطون الكلاب على الثور ، وربما تبلغه قبل صاحبها ، وتارة يصله الصياد والكلاب تتبعه ، فالشاعر بشر بن أبي خازم يحدثنا عن صيادين هما جداية وذريح ، وعن الكلاب الغضف التي يملكها احدهما ، يسرع بها صاحبها ،مع اشراق الصباح ، والثور ينقشع عنه الضباب ، فيتراءى من خلاله كسوار من العاج ناج من الخدوش أو هو ، اذا جال ، مثل ثوب شديد البياض غطاه التراب واشتمل عليه :

فبـاكرهُ مع الاشراقِ غُضْفٌ يَخُبُّ بهـا جدايةُ أو ذريحُ
وأضحى والضبـاب يزلُّ عنهُ كوقفِ العـاجِ ليس به كدوحُ
فجـال كأنَّ نِصْعـاً حميرياً اذا كفـرَ الغبـارُ به يلوحُ(106)

وتقترب لحظات الصراع ، ودنت الكلاب من الثور، وتوشك أن تلمس مؤخر فخذه الذي سال منه العرق ونزل ، ولم ينسَ الشاعر ذنب الثور الذي أماله لشدة جريه ، ويتحرك مع وقع أظلافه وهو المنطلق بسرعة ولما خلص هذا الثور، وابتعد عن خطر الضواري ، حدث نفسه بالعودة اليها ، سلاحه قرنان أسودان صلبان لم يتقشرا ، وكر عليها بعنف وضراوة وايقنت الكلاب بعجزها ازاءه ، فتواكلت العواء ، لتظهر فيه قوتها ، ولكنه انتصر عليها ، وتركها ما بين قتيل بالنطح وقتيل ارتفعت قوائمه ، وفلول الناجيات قد شملت وجوهها الجروح والكدمات :

فلما أنْ دنـونَ لكاذَتَيهِ وأسهـلَ من مغابنـهِ المسيحُ
يسـدُّ فروجَـهُ رَبـذٌ مضافٌ يقلبـه عجـالُ الوقـعُ روحُ
فلما أخرَجْتـه من عَراها كريهتـهُ وقـد كثُـرِ الجروحُ
قليلاً ذادَهُـنَّ بصعْدتَيْهِ بسمحـاوين ليطُمهـا صحيحُ
تواكلْنَ العُـواءَ وقـد أراها حياضَ الموتِ شاصٍ أو نطيحُ

(105) شرح ديوانه : 100 - 101 . الصمد : ما غلظ من الأرض وصلت ـ المقبس : الذي عنده من النار ما يقبس منه ـ النسا : عرق في الساق ـ شبرق : مزق ـ المقدس : (بتشديد الدال المكسورة) الذي يأتي بيت المقدس للحج ـ غورن : استترن .

(106) ديوانه : 51 . الغضف : كلاب الصيد ـ وقف العاج : السوار من العاج ـ النضع : ضرب من الثياب شديد البياض ـ كفر به الغبار : أي غطاه .

وغـــادرَ فلّهـــا مشتِتات على القسمات شاملهـــا الكدوحُ[107]

وتستكمل الصورة عند النابغة أبعادها ، ويتخذ الصراع شكلاً يتسم بالعنف ، ولكنه مدروس ، فقد خطط له ، فالصياد يقود المعركة[108] ، يوزع كلابه ، ويغريها بالهجوم على الثور من مكان محدد ، وفي موضع معين ، وكان لكل كلب اسم ، والطريدة لم يركبها التردد ، وانما قررت من أول وهلة أن ترد عنها كيد الكلاب ، فكان قرن الثور حاداً ، قد انفذه في جوف احدها ، بل أخرجه من الصفحة الأخرى ، ويهدينا النابغة صورة مترفة تشبيهاً منتزعاً من بيئة غنية ، يكثر فيها الخمر ، وتعقد له مجالس ، ويعد للشاربين شواء ، ويذهل الشرب عن السفود ، ينسيهم اياه على النار سكرة ، أو شبع ، أو بطر ، فيتوهج ، فقرن الثور ، وهو مضمخ بالدماء خارجاً من صفحة الكلب يشبه ذلك السفود المتوهج حمرة المنسي على النار ، ثم نجد النابغة مرة أخرى لم يبخل أن يرينا صورة أخرى ، فيها تعبير عن الألم ، وفيها شعور بالحقد ، وفيها دفاع يائس ، وذلك حين يعرض أمامنا الكلب وهو يعجم القرن النافذ فيه ، ثم حالة نفسية ثالثة ، واشق يناقش المعركة ، ويحسب نتائجها ، ويقوم مبلغ التضحية والاقدام وهل ستنتهي بثمرة ، وتوحي اليه نفسه الخائرة، ورعبه المفزع بالهزيمة ، فيظهر الزهد ، ويبدي القناعة ، وأنه لا يبغي مغنماً ، فليعد أدراجه واستحسن الفكرة ، فعاد يجلله عار الهزيمة . أما الأبيات فسأسجلها في مناسبة أخرى من البحث .

لسنا نبتعد عن الحقيقة ان قررنا أن الشعراء عبر العصور الاسلامية كانوا دوماً مع ثور الوحش في محنته ، وصراعه مع القناص وضواريهم ، دفاعاً عن نفسه ، ويقول الجاحظ : (ومن عادة الشعراء اذا كان الشعر مرثية أو موعظة ، أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش ، واذا كان الشعر مديحاً وقال : كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا ، أن تكون الكلاب هي المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ، وأما في أكثر ذلك فانها تكون هي المصابة ،والكلاب هي السالمة والظافرة ، وصاحبها الغانم)[109] .

---

(107) المصدر السابق : 52-53 . لكاذة : لحم مؤخر الفخذ ـ المغابن : مواطن الأفخاذ عند الحوالب ومعاطف الجلد واحدها مغبن ـ المسيح : العرق ـ اسهل : سال ونزل ـ ربذ : ذنب ربذ : أي الخفيف ـو المضاف : المحال ـ صعدتيه : قرنيه ، وللوقوف على صور أخرى لصراع الثور مع الصياد وكلابه ينظر ديوان بشر : 56-57 ,84و103 ,121 ,122

(108) ديوان النابغة : 26-28

(109) الحيوان : 2-20

أما رأي الجاحظ فانني اتفقت معه في كثير مما ذهب اليه ، ولو أنني لم اعتمد أغراض القصيدة ذريعة دائماً أحدد وفقها نهاية المصيد .

إن الشعراء الذين تصدوا لنعت بقر الوحش ، وواكبوا كفاحه من أجل الحياة وانتبهوا الى قلقه ، وهو يمضي لياليه العاصفة الممطرة مسهداً يشاغل نفسه بحفر التراب من حول الأشجار ، ويستمر في الحفر حتى تبدو جذورها الحمر كالأعنَّة ، وفكرة انهيار الرمل من تحته تفزعه ، وخطر القناص وكلابهم ترعبه ، نقول: ان أولئك الشعراء كثيرون ، فطالما صوروا هواجسه تتحقق ، ومه انبثاق الصباح تهرع اليه الكلاب ، معلنة بداية الصراع ، ولتذكره بكفاحه المستمر ، واحسبنا أن لججنا في ايراد كل نصوصهم سنطيل ، فلنكتف بالاحالة الى الدواوين .

فاليك أبياتاً للشاعر عبدة بن الطبيب(110) يطلعنا بها على ذلك الصراع الخالد بين الثور وكلاب الصيد ، وهو وأغلب الشعراء الذين سنذكرهم بعده ، لم يخرجوا عن العناصر التي لمسناها في شعر امرىء القيس وبشر ابن أبي خازم والذبياني ، ومثله عامر بن الطفيل(111) ، وزهير(112) ، والأعشى(113) ، وحميد بن ثور(114) ، وأبو ذؤيب(115) ، وسحيم(116) ، وسويد(117) ، والراعي(118) ، وذو الرمة(119) ، والأخطل(120) ، العجاج ((121) ، والشمردل(122) ، والقطامي(123) ، وأبو نواس(124) .

---

(110) المفضليات : 1 / 136 -138

(111) ديوانه : 40

(112) شرح ديوانه : 44 -48, 379 -380

(113) ديوان الأعشى : 213, 279, 295, 361 -362

(114) ديوان حميد : 101 . بيتان نعتقد بأنهما بقايا قصيدة طويلة .

(115) شرح أشعار الهذليين : 1 /25 - 32.

(116) ديوان سخيم : 28 -30

(117) المفضليات : 402 ، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ، الدكتور أحمد الحوفي : 136 -137 (القاهرة1958) .

(118) شعر الراعي : 85

(119) ديوان شعره : 18 -27, 118 -119, 281 -282, 299 -302

(120) جمهرة أشعار العرب : 349 -350 ، الزهرة (مخطوط) القسم الثالث الورقة67 -68 أراجيز العرب . 96 -97 ، شعراء النصرانية : ٤ /181 _182 ، الأخطل (الرائع) : 14 -18, 21 -26

(121) شرح ديوانه (مخطوط) ورقة : 70 -72 . أراجيز العرب : 71, 90 -91

(122) منتهى الطلب (مخطوط) ورقة : 137 -138

(123) ديوان القطامي : 16 -18

(124) ديوان أبي نواس : 636 -641

ويجدر بي قبل الانصراف الى معالجة جانب آخر من الموضوع أن أنوّه بشيء هداني اليه استقرائي وصف الشعراء لطرد بقر الوحش ، ولمسته فيما اتيح لي الاطلاع عليه ، ان الشعراء حين شبهوا نياقهم بثيران الوحش حرصاً منهم على احاطة هذا الحيوان بظروف قاسية ليدفعوه الى الانطلاق بسرعة ونشاط ، فيخلصوا الى اثبات هذه المميزات لنياقهم .

ولاحظت كذلك أن الكلاب كانت وسيلة الصيد التي يغريها الصياد بالهجوم عليه ، وباتت هي والظروف المناخية ، وشجرة الارطاة ملازمة له .

وبالاعتماد على ذلك توصلت الى الكشف عن وهم في شرح أبيات لامرىء القيس يصف بها ثور وحش ، وخيل للمؤلف[125] انها في وصف حمار وحشي ، وتمادى في تحليل الأبيات ، ومما يدعو الى الدهشة ان المؤلف في نقده لتلك الأبيات قرر أن سويد بن أبي كاهل كان عالة على امرىء القيس في وصفه لثور الوحش[126] . . وكأن وصف هذين الوحشين يسير على أسس واحدة ، أما الأبيات فهي المبدوءة بهذا :

كأني ورحلي فوق أحقب قارحٍ بشربة ،أو طاوٍ بعرنان موجس[127]

وثمة مناسبة أخرى يتذرع بها الشعراء ، فيذكرون بقر الوحش ، ويصفون طرده ، وهي في معرض افتخارهم بالفرس ، ولي تعليق على وصف الشعراء هذا ، فقد انصب جل اهتمامهم على وسيلة الصيد ، وهي الفرس ، وهم معذورون كل العذر ، لأن وصف الطرد لم يكن غاية في حد ذاته ، بل كان سبيلاً يوصلهم الى وصف الفرس ، أما الثور فكان الالمام به على عجل ، يتركه الفارس غالباً مضرجاً بدمه ، اثر طعنه رمح جائفة ، ويعود بسرعة الى وصف الفرس مستقصياً سماته وحركاته . ومن أولئك امرؤ القيس ، فبعد أن يسهب قليلاً في أوصاف فرسه ، يخبرنا عن سرعته وادراكه البقرات البيض ، فتفزع منه كما يفزع الذئب الغنم في مرابضها :

ذعرتُ بها سرباً نقياً جلودُهُ كما ذعر السرحان جنبَ الربيضِ

ولكن الطراد لم يقف عند حد الذعر ، وانما نجد الفرس يبلغ القطيع ، ويمكن الفارس من طعن بقرة طعنة قاتلة ، ولا يكتفي بها بل يطعن أخرى وأخرى حتى يبلغن

---

(125) الوصف في الشعر العربي ، عبد العظيم علي قناوي : 1/164 ـ167 (القاهرة1949)

(126) المصدر السابق : 167- 168 ، وانظر أبيات سويد : 159- 160

(127) شرح ديوان امرىء القيس : 100- 101

تسع بقرات ، فيعود رجوعاً حافلاً بالخير ، غير خائف والعرق يسيل منه :

فاقصد نعجةً فاعرضَ ثورُها كفحل الهجان ينتحي للعضيضِ
ووالى ثلاثاً واثنتين وأربعاً وغادر أخرى في قناةِ الرفيضِ
فآب ايابـاً غير نكد مواكلٍ وأخلفَ ماءً بعد ماء فضيضِ[128]

وممن طرد الثيران ونعاجها على الفرس الشاعر عدي بن زيد[129] أيضاً .

أما الشعراء الغزليون فلم يلتفتوا الى بقر الوحش مسرعاً نشيطاً بل وجدناهم فطنوا الى سعة عيون المهاة وجمالها ، فليلى التي لم تجرب الأمور ، أسماها عبيد الله بن قيس الرقيات مهاة ، واذا ذكر شاعر المهاة انما يريد حسن العينين ، وسعدة أيضاً بين أقرانها كانهن سرب بقر :

الا انما ليلى مهاةٌ غريرةٌ وسعدةُ في أترابها البيضِ ربربُ[130]

ومثله ابن الدمينة ، فقد شبه عيون مجموعة نساء بعيون ألمها اللواتي قوّرت براقعها :

وسرب مباهيج كأن عيونها عيونُ المها جيبتْ عليها البراقع[131]

وهذه أبيات تصور مأساة الشاعر ديك الجن العاطفية ، التي تقترن بمأساة هذا الحيوان ، اذ دفعه الوشاة والغيرة الى ضرب زوجه الحبيبة (ورد) بسيفه ، فخرت كما خرت مهاة أصابها صائد قاس ، ثم يفيق ديك الجن ، فيحيا أيامه أسفاً وحزناً ، ولات ساعة مندم :

وآنسة عذبِ الثنايا وجدتُها على خطة فيها لذي اللُّب متلفُ
فأصلُّت حد السيفِ في حُرِّ وجهها وقلبي عليها من جوى الوجدِ يرجفُ
فخرَّت كما خرَّت مهاةٌ أصابهَا أخو قنصٍ مستعجلٌ متعسِّفُ

---

(128) شرح ديوان امرىء القيس : 110 - 111 . الربيض : الغنم في مرابضها . أقصد : نال ـ والى : تابع ـ الرفيض : المكسور ـ نكد ، قليل الخير . وأراه لم يقصد الأرقام وانما الكثرة .

(129) ديوان عدي : 152 - 153

(130) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : 36 (تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر بيروت 1958)

(131) ديوان ابن الدمينة : 89 . المباهيج : جمع مبهاج وهي الحسنى اللون الناضرة ـ أجاب البرقع : قوره وأحدث فيه خرقاً مستديراً .

سيقتلنـــيَ حزنــاً عليهــا تأسفي   وهيهــات ما يجــدي عليَّ التأسفُ[132]

3 ـ الظباء

الظباء أنواع ثلاثة ، بالقياس الى ألوانها ، الادم ، والآرام ، والعفر[133] .

أ ـ فالأدم : ما كانت ظهورها سمرا ، وبطونها بيضا ، وأعناقها وقوائمها طويلة وهي اسرع الظباء عدوا ، تسكن الجبال والشعاب[134] ، ووصفها الثعالبي بأنها « اذا كانت بيضاء تعلوها غبرة »[135] .

وورد في شعر عبيد بن الأبرص ذكر هذا النوع من الظباء .

أُدْمانــة تروِ البــرير بغيلها   تقْــرو مســارب أيكة وتَردَّدُ[136]

وكذلك في شعر ابن خازم[137] ، وأبي ذؤيب[138] ، والمزرد بن ضرار[139] ، وابن الدمنية[140] .

ب ـ والآرام : هي اذا كانت الظباء (بيضاً خالصة البياض)[141] ، ونقل الدميري قول الأصمعي : (وهي تسكن الرمال ، وهذا النوع من الظباء يقال أنه ضأنها ؛ لأنه أكثرها شحماً ولحماً)[142] .

وفي معرض حديث زهير عن طلل ، قال : أن البقر الوحشي والآرام قد سكنته ، وشرعت تتكاثر فيه ، فهو موحش :

بهــا العــينُ والآرامُ يمشــينَ خِلفه   واطلاؤهــا ينهضْــنَ من كلِّ مجثمِ[143]

---

(132) ديوان ديك الجن : الحمصي : 65 (جمعه وشرحه عبد المعين الملوحي واخر ، حمص1960) .
(133) فقه اللغة الثعالبي : 130 (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ، صبح الأعشى ، القلقشندي : 2-42
(134) صبح الأعشى ، القلقشندي : 2-42 (القاهرة1913) .
(135) فقه اللغة : 130
(136) ديوان عبيد : 58
(137) ديوان بشر : 143
(138) شرح أشعار الهذليين : 1-136
(139) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني : 57 (تحقيق خليل ابراهيم العطة بغداد1962)
(140) ديوان ابن الدمينة : 51 (تحقيق أحمد راتب النفاخ القاهرة1959)
(141) فقه اللغة : 130 وانظر بهذا المعنى نهاية الأرب : 9-132
(142) حياة الحيوان : 1-335 ، صبح الأعشى : 2-42
(143) شرح ديوانه : 5

ويشبه قيس بن الخطيم جيد امرأة بجيد الرئم ، زين بقلائد الياقوت والزبرجد :

وجيدٍ كجيدِ الـــريمِ صاف يزينهُ توقـــدُ ياقـــوتٍ وفضـــلُ زبرجدِ(144)

وعند الحطيئة(145) الابل البيض كالآرام من حيث لونها ، وعبـر ذو الرمـة(146) عن الآرام بالهجان .

جـ ـ العفر (بضم فسكون) : الظبـاء العفـر ، (مـا كانـت حمـرا يعلـو حمرتهـا بياض)(147) ، وقال ابن سيده : (وقيل الأعفر منها : الذي في سراتـه حمـرة ؛ وأقرابـه بيض)(148) ، وتمتاز أن أعناقها قصيرة ، كما أنها تتخذ مساكنها في الأراضي الصلبة(149) ، وذكر الدميري أن (العفر ولد الأروية)(150) .

وتكلم عبيد بن الأبرص على ديار فلاحظ أنها صارت مرتعاً للظباء العفر :

أوطَنْتهـــا عُفْـــرُ الظبـــاءِ وكانتْ قبـــلُ أوطَـــان بُدَّنٍ اترابِ(151)

وطرق المعنى ذاته عبيد الله بن قيس الرقيات(152) ، والفرزدق(153) .

وتتأثر الظباء بالحر ، وفطن الشعراء الى تلك الظاهرة فذكروها في شعرهم ، ومنهم مضرس بن زرارة بن لقيط(154) ، وحميد بن ثور(155) ، وكعـب بن زهـير(156) ، والشماخ(157) ، والفرزدق(158) ، وأبو نجم الراجز(159) .

---

(144) ديوان قيس بن الخطيم : 40 (تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب بغداد1962) .
(145) ديوان الحطيئة : 54
(146) ديوان شعره : 262
(147) فقه اللغة : 130
(148) المحكم : 2-83 — (تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة1958) .
(149) صبح الأعشى2-44
(150) حياة الحيوان : 2-107
(151) ديوانه : 42 . أوطنتها أقامت بها ـ البدن (بتضعيف الدال) : الواحدة بادنة ، الكثيرة اللحم .
(152) ديوان عبيد الله : 75
(153) شرح ديوانه : 1-107
(154) الحيوان5-87
(155) ديوان حميد : 21
(156) شرح ديوانه : 136
(157) ديوان الشماخ : 12
(158) شرح ديوانه : 2-606
(159) الطرائف الأدبية : 71 : (تحقيق عبد العزيز الميمني ، ط1 القاهرة1937) .

ليست الظباء من الوحوش التي لم يتعود الشعراء رؤيتها ، وانما كانت دوماً تطل عليهم ويطلون عليها ، واسترعت أعضاؤها انتباههم ، فهذا عبيد بن الأبرص شبه الظباء ، وهي تحنو على أطفالها ، بأباريق فضة ، لطول أعناقها وحسنها وبياضها :

وظباء كأنهنَّ أباريقُ لُجَينْ تحنو على الأطفالِ(160)

وللحارث بن حلزة في هذا الشأن تشبيه رائع ، اذ أنه شبه الظباء في بياضهن وحسنهن وسرعتهن فرارا من الصقر ، بلآلىء تنحدر من سلكها اذا انقطع ، وشبه فرسه بصقر يتحرز حمامه ولفزعه يدخل العوسج :

ومدامة قُرعتُها بمدامة وظباءٍ محنية ذعرت بسمحج
فكأنهنَّ لآلىء وكأنَّهُ صقرٌ يلوذ حمامهُ بالعوسجِ(161)

وكثيراً ما يشبه الشعراء معشوقاتهم بالظباء ، فهذا طرفة تراءى له أن حبيبته ظبية تركت صويحباتها ، وظلت تشرئب بنظرها تراقبهن فهي فزعة ولهة على خشفها :

خذولُ تراعى رَبربأ بخميلة تناول أطراف البريرِ وترديِ(162)

وعرض المعنى ذاته ابن الدميتة(163) ، والمثقب العبدي(164) ، وابن ميادة(165) ، وسحيم(166) .

ونجد طرفة مرة ثانية يشبه سلمى بظبية بيضاء قد صيد غزالها ، فشوقها عظيم اليه ، فهي تسارقه النظر ، والشاعر هنا مهتم بما بدر من الشوق الذي يجعلها تمد عنقها ، فيظهر جمال جيدها ، ويبدو تشوقها الى غزالها :

واذ هي مثلُ الرئم صيد غزالها لها نظرٌ ساجٍ اليك تواغله

ويتحفنا ابن الدمينة بصورة يجمع أجزاءها بوصفه لها، وتعريفها لأخطار الرماة ، ثم ينتهي الى أن تلك الظبية ليست بأحسن من حبيبته :

---

(160) ديوان عبيد : 113
(161) ديوان شعر الحارث (مجلة المشرق) : 698 ، المفضليات : 2-56
(162) ديوان طرفة (شرح علم الشنتمري) : 8
(163) ديوان ابن الدمينة : 65
(164) ديوان المثقب : 31
(165) الأغاني : 2-319
(166) ديوان سحيم : 15

ومـــا مغـــزلٌ أدمـــاء خفّاقـــة الحشا طويل أعـــالي ذي سدير مرودها
رماهـــا رمـــاة النـــاس حتـــى تمنّعَتْ على كلٍّ رامٍ منهـــمِ لا يصيدها
باحســـن منهـــا يوم جالَ وشاحُها وأحســـن منهـــا يوم جالـــت عقودها

تصطاد الظباء بطرق كثيرة ؛ منها بالرمي ، وفي خلال غزل يورده الفرزدق ، يذكر الظباء بالسهام :

ترمـــي القلـــوب ولا يصطادهـــا أحدٌ بسهـــم قانصـــة للقـــومِ قتالِ(169)

وطريقة الصيد نجدها في شعر لأبي دلامة ، ضمن خبر رواه الأصفهاني :

وتصاد الظباء أيضاً بالشرك والحبالة(171) ، (والمنظر الذي يتخيره أبو خراش للظبي حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد بثوا حبالهم في مسارحه ليعلق فيها ، ولكنه ينجو منها . . فاذا ما سمع صوت ذباب يطوف حوله ذعر وخيل اليه انه صوت سهام الرماة . . . :

فواللهِ ما رَبـــداءُ أو علـــجُ عانة أقـــبُّ ومـــا أن تَيْسُ ربـــلٍ مصمّمُ
وبُثّـــتْ حبـــالٌ في مراد يرودُهُ فأخطـــأه منهـــا كفـــافٌ مخزّمُ(172)

وشاهد الفرزدق حبالة دست لظبية مغزل ، في أعلى الولولان ، ولكنها أخفقت في امساك تلك الظبية ، ولاذت بالفرار :

أصابـــت بأعلى الولـــولان حبالةً فما أمسكتْ حتـــى حسبْـــنَ بهـــا نفرا(173).

وفي خبر رواه أبو الفرج عن ارطأة يذكر شعرا يشبه ارطأة نفسه وقد علق وجزة بظبي أفلت ثم صادته الحبائل(174) .

---

(167) ديوان طرفة (الشنتمري) : 115 . تواغله : تسارقه النظر .
(168) ديوان ابن الدمينة : 51 . مرودها : تنقلها وجولانها
(169) شرح ديوانه : 2-613
(170) الأغاني : 10-258 ـ 259
(171) المصائد : 207 ، أنس الملا : 133 ، صبح الأعشى : 2-44
(172) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، الدكتور يوسف : 220 . (ط1 القاهرة1959) . ربداء : نعامة ـ علج عانة : حمار وحش ـ تيس : وعل ـ بثت حبال : نصبت له الحبائل ـ مراد يرودها : أمكنة يقصدها .
(173) شرح ديوانه : 1-22
(174) الأغاني : 13-35

أما الحارث بن حلزة فيذعر الظباء بفرسه السريع الطويل ، الذي لا يعيق جريه الرمل المستدير :

.... وظبـــاء محنية ذعـــرتُ بسمحجِ(175)

ومثله الفرزدق في كلامه على فرسه الذي يذعر بها قطيعاً من الظباء النقية الجلود ، وينطلق بها حتى يدرك تيساً ونعجة ، فينفران متباعدين ولكنه يلحق بها ويطعنها بالرمح ، قبل أن تتعب فرسه :

ذعـــرت بهـــا سربـــاً نقياً كأنَّهُ نجـــومُ الثـــريا أسفـــرتْ من غمامها
فعـــاديت منهـــا بـــين تيسٍ ونعجة وروَّيْتُ صدر الرمـحِ قبـل عنائها(176)

وتصاد الظباء بالنار كذلك ، لأنها عندما تديم النظر اليها وتتأملها يعشى بصرها ، ويذهل عقلها ، وقد يصحب ايقاد النار تحريك الأجراس(177) . وبهذه النار نوه طفيل الغنوي :

سَوى نارِ بيضٍ أو غزالٍ بقفزة أغـــنَّ من الخنْسِ المناخـــرِ توأمِ(178)

وفي حديث الأعشى عن امرأة ناشص تعرض لذكر طريقة صيد الظباء بايقاد النار ، فهناك رجل راود تلك الناشص كما يراود القناص الظباء بتلك النار ، فتذهب ببصر الطريدة :

تغمرَّهـــا لســـحُ عشـــاءً فأصبحت قُضـــاعيةً تأتـــي الكواهـــنَ ناشصا(179)

وتصطاد الظباء بالكلاب ، وقديماً رسم عبيد بن الأبرص هذه المشاهد شعرا ، فقد رأى ظبياً يرعى أرضاً سهلة مطمئنة فأثاره جماعة ، وأغروا كلابهم بصيده ، فكلها تجد في أثره :

مراتعـــهُ القيعـــانُ فَرْدٌ كأنَّهُ اذا ما تُمـــاشيهِ الظِّبـــاءُ نَطيحُ
فهـــاج له حيٌّ غداةً فأوسَدُوا كلابـــاً فكلٌّ الضـــارياتِ يُشيحُ(180)

---

(175) ديوان شعر الحارث (المشرق) : 698

(176) شرح ديوانه1 -4

(177) الحيوان : 4-484,349 ، المصايد : 207 ، نهاية الأرب : 9-333 صبح الأعشى : 1-410

(178) ديوان الطفيل الغنوي : 78 (تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، بغداد1968)

(179) شرح ديوان العجاج (مخطوط) ورقة : 8 . لم أجد البيت في ديوان الأعشى (دار صادر) . تغمرها : راودها فنالها ـ ناشص : نفور .

(180) ديوان عبيد : 48

ومع اطلالة العصر العباسي تتخذ كلاب الصيد محلاً أثيراً في عالم الصيد والطرد . ولذا نرى أبا نواس يوليها اهتماماً كبيراً ، اهتماماً ينسيه الطريده ، وباتت الكلاب يطغى شأنها على وسائل الصيد الأخرى كالفرس ،وطرأ تغيير واضح عليها، وسنرى في فصل آت أن كلاب الصيد تتلقى عناية أكبر من ذي قبل ، واليك نموذجاً واحداً من طرديات أبي نواس ، فهو يصف كلبه الذي انطلق به مع تباشير الصباح ، اسنانه العليا فيها انعطاف ، طويـل مقدم الأنف ، واسع الفم . قوي على السير ، طويل الظهر ، شديد الجري ، ذعر أبو نواس بهذا الكلب الظباء في كنسها :

قد أغتـــدي والصبـــحُ مشهورُ قد طلعـــتْ فيه التباشيرُ
بمخـــطفِ الأيْلَلِ في خطمهِ طولٌ وفي شدقيْهِ تأخيرُ
عملَّس العجـــزِ بعيدُ الخُطا مسلجـــمُ المتنـــينِ محِضيرُ
حتـــى ذعرنـــا كُنْســـاً لم يُصَبْ بهـــا من الأحـــداثِ مقدورُ(181)

ويلجأ البعض الى صيد الظباء حذفا بالعصا ، وهذا امرؤ القيس يشبه فرسه في سرعتها بظبية أفزعها القانص حين رماها بعصاة :

وتعـــدو كعـــدْوِ نجـــاةِ الظباءِ أخطأهـــا الحـــاذف المقتدرُ(182)

وربما اتخذ القانص ناقة ، يستتر بها تسمى الدريَّة ، ثم يتوغل في المراعي ويستمر متخفياً حتى تتعود الظباء النظر اليه ، وبعدها يدنو من الظبي ويمسكه أو يرميه عن كثب ، ويفهم من بيتين نسبهما كشاجم لأبي الطمحان أن الصائد يكثر حني ظهره، لذا شبه به نفسه ، لما أدركته الشيخوخة وأحنت ظهره :

حنتْنـــي حانياتُ الدهرِ حتَّى كأنـــي قانصٌ أدنـــو لصيدِ
قريبُ الخطـــوِ يحســـبُ من يراني ولســـتُ مقيداً أمشي بقيدِ(183)

وقد يصطادون الظباء بالخربق ، وهو نبت كالسـم يغشى على اكلـه ولا يقتلـه ، وخربق المشارع جعل فيها الخربق(184) ، وقد يصطادها الأعراب الشديدو العدو بالجري

---

(181) ديوانه : 635 . الأيلل : جمع يلل (محركة) وهي الاسنان العليا فيهـا قصر أو انعطـاف ـ عملس (الـلام مفتوحـة مشددة) : قوي على السير ـ مسلجم : طويل ـ محضير : شديد الجري .
(182) شرح ديوانه : 82-83 . الحاذف : الرامي بالعصا .
(183) المصايد : 207-208 ، البيزرة : 136
(184) البيزرة : 39

حتى يقبض على قرنه)[185] ، وبالفهد والجوارح .

ولم يخل هذا المجال من طرائف روى الأصفهاني بعضاً منها فقال : (مر المجنون برجلين قد صادا ظبية فربطاها بحبل وذهبا بها ، فلما نظر اليها وهي تركض في حبالها دمعت عيناه ، وقال لهما : حلاها وخذا مكانها شاة من عمى ـ وقال ميمون في خبره : وخذا مكانها قلوصاً من ابلي ـ فأعطاهما وحلاها فولت تعدو هاربة ، وقال المجنون للرجلين حين رآها في حبالهما :

يا صاحِبَيَّ اللـذين اليوم قد أخذا   في الحبل شبهاً لليلى ثم غلاها
انـي أرى اليوم في أعطـاف شاتكما   مشابهـاً أشبهـت ليلى فخلاّها

وقال فيها وقد نظر اليها وهي تعدو وأشد عدو هاربة مذعورة :

أيا شبهَ ليلى لا تُراعـي فانني   لك اليومَ من وحشية لصديقُ
ويا شبهَ ليلى لو تلبثتِ ساعةً   لعلَّ فؤادي من جواه يفيقُ
يقـرُّ وقـدْ أطلقتُهـا من وِثاقِها   فأنتِ لليلى لو علمتِ طليقُ[186]

ويروي الأصفهاني في مثل هذا الموقف خبراً آخر فيقول : (ان الوليد خرج يتصيد ذات يوم ، فصادت كلابه غزالاً فأتى به فقال : خلوه . فما رأيت أشبه منه جيداً وعينين بسلمى ، ثم أنشأ يقول :

ولقـد صدْنـا غزالاً سانحاً   قد أردْنا ذَبْحَـهُ لما سنحْ
فاذا شبهُـكَ ما تنكره   حـين أزجـى طرفـه ثم لمحْ
فتركنـاه ولـولا حبكم   فأعلمـي ذاك لقـد كان انذبحْ
أنـت يا ظبـيُ طليقٌ آمنٌ   فأغـدُ في الغـزلان مسروراً ورُحْ[187]

ونقرأ في كتاب الأغاني خبراً ثالثاً فقد (خرج المهدي وعلي بن سليمان الى الصيد ، فسنح لهما قطيع من ظباء ، فأرسلت الكلاب ، وأجريت الخيل ، فرمى المهدى ظبياً بسهم فصرعه ، ورمى علي بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله ، فقال أبو دلامة :

قد رمـى المهـدي ظبياً   شكَّ بالسهـمِ فؤادَهُ

---

(185) المصايد : 208 ، البيزرة : 136
(186) الأغاني : 2-81 ـ82
(187) الأغاني : 7-48

وعليّ بن سُليما نَ رمى كلباً فَصادَهُ
فهنيئاً لهما كلّ أمرىء يأكلُ زادَهُ

فضحك المهدي حتى كاد يسقط عن سرجه ، وقال : صدق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة)(188) .

وعن أبي حية النميري ، الذي عرف بالكذب ، ينقل الأصفهاني خبرين أولهما : (قال : وحدثنا يوماً قال : عن لي ظبي يوماً فرميته ، فراغ عن سهمي فعارضه السهم ، فما زال والله يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبانات)(189) ، وفي الخبر الثاني (قال : وقال يوماً : رميت والله ظبية ، فلما نفذ سهمي عن القوس ، ذكرت بالظبية حبيبة لي ، فعدوت خلف السهم ، حتى قبضت على قذذه قبل أن يدركها)(190) .

4 ـ الوعول

الوعل (بفتح الواو وكسر العين) التيس الجبلي ، وتسمى الأنثى أروية (بضم الهمزة ، وسكون الراء وكسر الواو وتشديد الياء) والجمع أراوي وهي شاة الوحش ، وجمع وعل أوعال ووعول ، وأضيف في القاموس ، وعل (بضمتين) ووعلة (فتح وسكون) والأنثى بلفظها(191) .

والصدع (بفتحتين) من الأوعال الفتى الشاب القوي ، والأعصم منها ما كان في ذراعيه ، أو في احداهما بياض ومسائرها أسود أو أحمر والأنثى عصماء(192) . وروى الجاحظ بيتاً لم ينسبه الى شاعر ورد فيه هذان الأسمان :

والصَّدَعُ الأعصمُ في شاهقٍ وجأبةُ مسكنُها الوَعْرُ(193)

والوعول تعتبر مثالاً للقوة ، وتتخذ موضوعاً للتأسي ، لأنها على قوتها لا تنجو من الدهر ونكباته ، فهي تجعل الجبال الشوامخ مساكن لها ، ولكنها لا تعصمها من الموت ،

---

(188) الأغاني : 10 -258 ، طبقات الشعراء لابن المعتز : 59 (تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة1956) .
(189) الأغاني : 16 -309
(190) الأغاني : 16 -309
(191) حياة الحيوان : 1 -22 ,2 -351 ، القاموس ، (الوعل) ، نهاية الأرب : 9 -329
(192) الحيوان : 6 -306 ، القاموس (عصم ، الصدع) .
(193) الحيوان : 6 -306

هذا ما عبر عنه الأفوه الأودي :

والدهــــرُ لا يُبْقــى على صرفِه مُغْفِـرةً في حالــق مَرْ مريس(194)

وتعرض لهـذا المعنى شعـراء منهـم : لبيد(195) والنمـر بن تولـب(196) ، وصخـر الغيِّ(197) ، وعدي بن الرقاع(198) ، وديك الجن(199) .

ومبعث اعتبار الشعراء الوعول في مأمن حصين انها تجعل مساكنها في أعالي الجبال ، ونجد بشر بن أبي خازم يصف وعلاً خفيف الجسم ، يعتصم في جبة ، أو شوط من جبل طيء الأملس ذي الكهوف ، هذا الوعل ليس بأكثر أمناً منه في ملجئه من جار أوس بن حارثة الذي مدحه الشاعر :

فما صَدَعٌ بجبَّــة أو بشوط على زلــقٍ زوالــقَ ذي كهافِ
تزلُّ اللِّقــوةُ الشغــواءُ عنها مخالبُهـــا كأطــرافِ الأشافي
بأحْــرَزَ موئــلاً من جارِ أوسٍ اذا ما ضيم جـيران الضعافِ(200)

وفي بيت واحد استطاع عدي بن زيد أن يرسم ملجأ الأروي ، فهو جبل شاهق ، تبلغ قمته السحاب أوتكاد ، مسالكه وعرة :

وأرى الشاهِــقَ المدلَّ به الأرْ وى دُوَيْنَ السحــابَ وعــرْ المراقي(201)

ويقول العجاج : لو أن العصم التي تسكن رؤوس جبل النير يسمعن حديثي وخبري عن أموري في شبابي لنزلن :

لو أنَّ عصــمَ شعفــاتِ النيرِّي يسمعْنَــهُ باشرْنَ للتبشيرِ(202)

ويتم صيد الوعول بأن يختبىء القانص في قترة ، يراقب هذا الوحش وقد أعد أسهماً

---

(194) ديوان الأفوه الأودي (الطرائف الأدبية) : 16 . الحالق : الجهل الشامخ ـ المرمريس : الأمل .

(195) ديوانه (الكويت) : 272 ، (ليدن) : 33

(196) شعر النمر : 103

(197) شرح أشعار الهذليين : 1 -246

(198) الطرائف الأدبية (القصيدة الخامسة) : 82

(199) ديوان ديك الجن : 75

(200) ديوان بشر : 148 -149 . الشغواء : العقاب ـ الأشافي : جمع الأشفي (بكسر الهمزة) : وهو مثقب تثقب به الأساقي والمزاود والقرب ونحوها عند الخرز ـ الموئل : الملجا .

(201) ديوان عدي : 154

(202) شرح ديوانه (مخطوط) ورقة : 68 ، ويروي : ياسرن للتيسير .

في كفه ، بينما هيأ الى جانب ذلك كنانة كانت عامرة بالسهام ولم يبق لديه سوى سهم واحد ، فهو حريص على أن ينال به مقتلا ، وأرسله فأصاب نواهق الوعل وفمه ونفذ فيه ، ذلك ما عرضه النمر بن تولب :

أتاح له الدهرُ ذا وفضة يقلِّبُ في كفهِ أسهما
وراقبَهُ وهو في قترة وما كان يَرْهَبُ أن يَكْلَما
فأرسل سهماً له أهزعا فشكَّ نواهقَهُ والفما(203)

ويتتبع صخر الغي صائداً يكسب لأبيه الشيخ الذي تحنت ضلوعه ، واحدودب ظهره ، جائعاً ، ألم به الشتاء ، فابنه يحميه من الأذى . أما في الصيف فيبحث له عن الثمر ، وهو قد نذر نفسه لذلك ، فلما رأى الوعل تعجب منه مستبشراً ، فهو عظيم سمين ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : لو استطاع صيد هذا الوعل لعاش شيخه بلحمه حتى موسم الخصب ، ورماه بسهم واسع النصل ، فأرداه صريعاً ، واستغاث بأخيه ، ليبادره بسكين يذبح به هذا الوعل :

أتيح له يوماً وقد طال عمرُهُ جريمةُ شيخٍ قد تحنَّب ساغبِ
يحامي عليه في الشتاء اذا شتا وفي الصيف يبغيه الجنا كالمُناحبِ
فلما رآه قال للهِ مَنْ رأى من العُصْم شاةً قيلَهُ في العواقبِ
لو آن كريمي صيد هذا أعاشَهُ الى أن يغيث الناسَ بعضُ الكواكبِ
أحاطَ به حتى رماهُ وقد دنا بأسمرَ مفتوقٍ من النبلِ صائبِ
فنادى أخاه ثم طارَ بشفرة اليهِ اجتزارُ الفعْفعي المناهبِ(204)

ونهج حميد بن ثور للتدليل على جمال مليحته بأنها لو ظهرت لوعل ، قد سكن الجبل ذا المسالك الوعرة ، من التي هجرت السهل ، لنزل اليها مبهوراً بجمالها ، غير عابىء بالرماة الذين يتصدون له ، وينصبون له حبائل الموت ، فنرى الشاعر هنا أشار الى صيد الوعول بالحبائل ، اضافة الى صيده بالرمي :

فلو أنَّها كانت بدتْ يوم حيَّة لُمنعطفِ القرنين وَعْرِ مطامِره
من الهائبات السهل في مشمخرَّة بِحيْدِ وعولِ يأمَنُ القوم فادره

---

(203) شعر النمر : 104- 105

(204) شرح أشعار الهذليين : 1 -249 ـ250 . جريمة : كاسب ـ المناحب : الذي عليه نذر ـ مفتوق من النبل : يعني سهماً واسع النصل ـ صائب : قاصد ـ اجتزار : قطع ـ الفعفعي : الخفيف .

أتاهـــا ولـــو قامَ الرمـــاةُ وساقَهُ حبـالُ الصِّبـا حتـى تحـينَ مقادِرُه[205]

والصعاليك من الذين ألفوا وحش الفلوات ، وتردد في مأثور شعرائهم ، فاختار الشاعر حاجز منظراً للوعل ، وهو في سرعة فائقة ، يريد أن ينجو بنفسه حيث أحس صياداً وكلابه :

وكأنمـــا طردوا بجنبـــي عاقلٍ صَدَعـــاً من الأروى احسَّ مكلِّبا[206]

ومن ذلك يتوفر لدينا أن الوعول تصاد رميا بالسهام ، وطردا بالكلاب وربما نصبوا له الحبائل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الوعول ما زالت في جزيرة العرب ، اذ يخبرنا (فليبي) أنه التقى أثناء جولته التي قام بها في المنطقة الواقعة شمال المدينة حتى مدائن صالح في حدود سنة 1953 برجل يصيد الوعل ، ويحدثنا أيضاً عن بعض رجال السعودية أنهم وصلوا ذلك المكان (لقضاء بضعة أيام في الصيد والقنص في تلك المنطقة)[207] ومن البديهي أن نعرف اختلاف وسائل الصيد عنها في العصور الغابرة ، فالبنادق والسيارات قد حلت مكان السهام وغيرها .

5 ـ الأرانب

واحده ارنب ، وهو اسم جنس يطلق على الذكر والأنثى[208] ، وفي الحيوان : (وتقول العرب : هذه أرنب ، كما يقولون : هذه عقاب ولا يذكرون)[209] ويسمى الذكر منها : الخزز (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي الأولى) والجمع خزان مثل : صرد وصردان[210] .

وفي طردية للشمردل اليربوعي يخبرنا عن صيده الخزز :

في خربٍ وخُـــزَزٍ يُعْلى بهِ لفتيةٍ صيدُهـــم يدعـــى بهِ[211]

---

(205) ديوان حميد : 91 . منعطف القرنين : الوعل ـ مطامرة : اماكن وثوبه ـ الحيد : حرف شاخص من الجبل .

(206) الشعراء الصعاليك : 221

(207) أرض الأنبياء (الترجمة العربية) : 9, 124

(208) حياة الحيوان : 1 -19

(209) الحيوان : 6 -357 ، صبح الأعشى : 2 -45

(210) القاموس : (الخز) ، حياة الحيوان : 1 -265

(211) الأغاني : 13 -362

وتدعى الأنثى عكرشة (بكسر العين والراء المهملتين)[212] .

ويكون ولد الأرنب خرنقاً (بكسر الخاء) ، ثم سُحَلَة (بضم السين وفتح الخاء واللام) ثم أرنبا[213] ، وهو حيوان صغير الجثة قريب من لون الثعلب[214] .

وفي حيوان الجاحظ أبيات لم يسمِّ قائلها ، في أحدها يشبه الشاعر نفسه ، وقد قبض قلب سلمة قبضة قوية كما يقبض العقاب قلب الخرنق :

ولقد قبضْتُ بقلب سَلْمَة قبضة قبض العقابِ على فؤاد الخِرْنق[215]

ومن خصائص الأرنب أن شعرها وفير ، الى حد نجده في بواطن أشداقها ورجليها ، وتنام مفتوحة العينين ، ويعرف الصائدون ذلك فيأتونها من أمامها ، ويأخذونها ، فهي حينئذ لا تبصر ، يداها قصيرتان ، ومع هذا فهي سريعة العدو ، وهي من الحيوانات التي توبر ولا سيما في السهل أي تطأ الأرض بباطن كفيها ، لتعفى على آثارها ، وتلجأ الى الجبال اذا طردت ويشتد عدوها فيها ، ولكنها لا تأوي الى سواحل البحر ، والأنثى لا تسمن وهي مما يحيض[216] . وهي شديدة الخوف ، كثيرة الولادة[217] .

ويقول الجاحظ : (ويزعمون أنه ليس في الوحش ، في مثل جسم الأرنب أقل ليناً وذروراً على ولد منها)[218] ، ثم يروي أربعة أبيات للشاعر عمرو بن قميئة عكس ذلك المعنى في أحدها :

ليس بالمطعمِ الأرانب اذ قلص در اللقاح في الصنبرِ[219]

ويسهل للأرنب التوغل في الجبال ، لقصر يديها ، ولذا من محاسن كلب الصيد أن يكون قصير اليدين[220] .

---

(212) الحيوان : 2-169 ، وفي القاموس (العكرش) الأرنبة الضخمة .

(213) حياة الحيوان 1-19, 264 ,2-15

(214) صبح الأعشى : 2-45

(215) 6-350

(216) الحيوان : 6-357 ، المصايد : 146-147 ، عيون الأخبار ، ابن قتيبة : 102 (دار الفكر ـ بيروت 1955) ، صبح الأعشى 2-45

(217) الامتاع والمؤانسة ، أبو حيان : 1-182 (ط2 القاهرة 1953) .

(218) الحيوان : 6-357

(219) الحيوان : 6-357

(220) الحيوان : 6-356

وينتفع بجلد الأرنب ووبرها ، ولحمها ، فهو لذيذ اذا كان مشوياً ، وقلما تجتمع في طير هذه الفوائد(221) .

ومن الوسائل التي تصاد الأرنب حذفها بالعصا ، وفي هجاء للفرزدق ، وجهه الى بني عامر ، لأنهم يعطون أموال غني وباهلة في النوائب ، وهم اذلاء يشبههم بالأرنب ترمى بالعصا ، فتلوذ بالفرار ، ولكنها لا تنجو اذ يرقبها جارح يتحين الفرص للانقضاض عليها :

تعطى ربيعةُ عامرٍ أموالَها في غيرِ ما اجترحوا وهم كالارنبِ
ترمى وتحذفُ بالعصى وما لها من ذي المخالبِ فوقها من مهرب(222)

وتصاد الأرنب بالطيور الجوارح ، فمن المناظر المألوفة في صحراء جزيرة العرب ، والتي تمثل صراع الوحش فيما بينها ، أن ينقضّ باز أو عقاب على أرنب طلباً للقوت ، وتحصيلاً للمعاش ، واستغل الانسان هذه الغريزة في الجوارح فضراها ، وصارت تأتيه بالصيد دون أن تمسه بسوء ، وهذا امرؤ القيس يشبه فرسه ألمنطلق ، وقد علاه غلامه يبازٍ محلق في السماء رأى أرنباً فهوى عليها ، سرعة ونشاطاً :

كأنّ غلامي اذ علا حالَ متنِهِ على ظهر بازٍ في السماءِ مُحلِّقِ
رأى أرنباً فانقضَّ يهوي أمامه اليها وجلاها بطرف مُلقلقِ(223)

وأبو خراش أيضاً لم يغفل ذلك الصراع المستمر بين حيوان الجزيرة ، فهو ينقل الينا صورة حية ، نابضة بالصدق لصقر حط على نشز من الأرض ، وفجأة يلمح من بعيد أرنباً تتوارى بين شقوق الأرض ، فتهيأ لها ، وضم جناحيه ، ثم شرع يطاردها ، وحين أحست به اسرعت لتنجو من الموت بنفسها ، ولكنها أعجز ما تكون عن الهرب أمام هذا الطير الجارح ، فأصاب منها القلب :

ولا أمعرُ الساقين ظلّ كأنَّه على محزئلاتِ الاكامِ نصيلُ
رأى أرنباً من دونها غَولُ أشرُجٍ بعيدٌ عليهن السرابُ يزولُ
فضمَّ جناحيه ومن دون ما يرى بلادٌ وحوشٌ أمرعٌ ومحولُ

---

(221) الحيوان : 6-356
(222) شرح ديوان الفرزدق : 1-37
(223) شرح ديوانه : 120 . جلاها : نظر اليها من بعيد ـ الملقلق : الحديد الذي لا يفتر .

ثوائِـــلُ منــه بالضرّاء كأنها سَفــاةٌ لهــا فوق التـــرابِ زَليلُ
يقرِّبـــه النهضُ النجيحُ لما يرى ومنـــهُ بدوٌّ تارةً ومثولُ
فأهـــوى لهـــا في الجـــو فاختـــلّ قلبَها صَيودٌ لحبـــاتِ القلـــوبِ قَتولُ(224)

أما الشمردل فيتخذ الصقر وسيلة يصطاد بها الخزز والخرب . ثم يذهب بها مع جماعته الصيادين الى بيت اتخذوه لطهي الصيد ، أو شيِّه وهو يصف خروجه للصيد صباحاً ، ويسهب في ذكر نعوت الصقر حتى يبلغ نهاية الطردية ، اذ يقنصون نحو ثمانين بين خرب وخزز ، والأرجوزة تقع في ستة عشر بيتاً ، رواها الأصفهاني(225) :

وتصاد الأرنب طرداً بالكلاب، فعند حديث أبي نؤاس عن كلبه زنبور ذكر أنه كان سريعاً يدرك الثعلب فيعفره ، وينال الأرنب فيصرعه :

من ثعلـــبٍ غادرَه عفيرا أو أرنـــبٍ جوَّرهـــا تجويرا(226)

وقد يمسك الأرنب بمخالبه ، وتبقى فيها شريحة من لحمها :

يلحـــقُ أرنبَـــه بحـــدِّ المخلبِ فماتنـــي وشيقـــةٌ من أرنبِ(227)

6 ـ الضباب

الضب (بفتح الضاد) من الحيوانات البرية المعروفة ، يكنى بأبي حسل ، وجمعه ضباب (بكسر الضاد) وأضب ، مثل : كف وأكف ، والأنثى ضبة(228) .

الضب حيوان كيِّس ، فهو لا يتخذ بيته الا في الأمكنة الصلبة ، خشية أن ينهار عليه بالسيل أو الحافر(229) .

ويحرص الضب على تعميق الحفر ، (ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة لأنه يحفر في الصلابة(230) ، وفي بيت هو احد أربعة رواها الجاحظ للشاعر خالد بن الطيفان ، نجد هذا المعنى :

---

(224) الشعراء الصعاليك : 244 . أمعر الساقين : لا ريش عليهما ـ المحزئل : المرتفع ـ الأشرح : شقوق في الأرض طويلة ـ بلاد وحوش : واسعة تسكنها توائل : تتوارىٰ ـ الضراء : الشجر الكثيف ـ السفاة : الشوكة ـ أختل قلبها : انتظمه .

(225) الأغاني : 13 -361 ـ 362

(226) ديوان أبي نؤاس : 633 . جورها : صرعها .

(227) ديوان أبي نواس 634 ما تني : ما تزال ـ وشيقة : شريحة من اللحم .

(228) حياة الحيوان : 2 -67

(229) عجائب المخلوقات ، القزويني : 2 -289 (على هامش حياة الحيوان) ، حياة الحيوان : 2 -68

(230) الحيوان : 6 -39

ترى الشرَّ قد أفنـى دوابـرَ وجهه   كضبٍّ الـكُدى أفنـى براثنَـه الحفرُ[231]

وروى لدريد بن الصمة أيضاً قوله :

ووجدْنـا أبـا الجبـار ضبّـا مورِّشاً   له في الصُفـاة بُرثُـنٌ ومعاولُ[232]

والضب مما يحب التمر ، اضافة الى الذئب ، والسِّمْع ، والعقرب والثرملة ، والخنفسة ، عدوها في شعره أبو دارة ، الذي أخبرنا الجاحظ بأنه رآه ، وقال عنه : وكان صاحب قنص :

ومـا التمـرُ الا آفـةٌ وبليّةٌ   على جُلِّ هذا الخلـق من ساكنِ البحرِ
وفي البـرِّ من ذئـب وسِمْع وعقرب   وثرمُلـة تَسْعَـى وخنفسـة تسري
وقـد قيل في الأمثـال ان كنـت واعياً   غديرك أنَّ الضـبَّ يُحْبَـلُ بالتمرِ[233]

ويصاد الضب بالحرش ، وهو أن يعمد الصائد الى حك حجر الضب فيحسبه الضب ثعباناً ، فيخرج له ذنبه ، ويمسكه حينئذ ، ويصاد أيضاً بالحبالة ، جاء هذا في شعر دريد بن الصمة ، في كلامه على شخص كنيته أبو الجبار ، فشبهه بضب أغرى ليصاد ، ولكنه اتخذ بيته في صخرة ملساء يعجز الصياد ، سواء أكان حارشاً أم حابلاً ، ثم يقول : مكث يراعي الشمس وهو نائم ، ولولا الملل لتشقق جلدي :

وجدنـا أبـا الجبـار ضبـا مورشاً   له في الصفـاة بُرثـنٌ ومعاول
له كُديْةٌ أعيتْ على كل قانصٍ   ولـو كان منهـم حارشـان وحابل
ظللـت أراعـي الشـمس لولا ملالتي   تزلـع جلـدي عنـده وهـو قائل[234]

ويصف دعلج عبد المنجاب ضبا بالكبر ، حتى يبلغ به كبره أن يتجاهل المخاطر والمهالك، فيطاول الصياد الذي ينصب الحبالة ، ويظهر له ، وذلك انه ألفى الضب نفسه بين ضباب كثيرة :

اذا كان بيتُ الضـبِّ وسـطَ مضبَّة   تطاول للشـخصِ الـذي هو حابله[235]

(231) الحيوان : 6-40
(232) الحيوان : 6-40 . المورش : من التوريش وهو الاغراء ليخرج من جحره ـ الصفاة : الصخرة الملساء .
(233) الحيوان : 6-63 . الثرملة : أنثى الثعلب ـ يحبل : يصاد
(234) الحيوان : 6-40 ـ41
(235) الحيوان : 6-68

مر بنا أن الضب يحب التمر كثيراً ، وربما يرده حتفه ، فقد يوضع له في حبالة ، فاذا رآه ذهب ليأكله ، فيقع في الحبالة ، قال الجاحظ : (وأنشدني ابن الأعرابي ، لابن دعمي العجلي :

سوى أنكم دُرّبتُمْ فجريتم على دُربّة والضبُّ يُخبَلُ بالتمرِ

فجعل صيده بالتمر كصيده بالحبالة)(236) .

ويتمنى أبو حجين المنقري أن يحظى بمكان في البادية ليس فيه مسجد يتفرغ فيها الى صيد الضباب وأكلها ، فاذا حان وقت الصلاة ، ينصرف اليها وريح الضب لما تزل في يديه ، ثم يتشهى شرب ماء في مكان اسمه لينة :

الا ليت شعري هل ابيتنَّ ليلةً بأسفل واد ليس فيه أذانُ
وهل آكلن ضباً تلعة وعَرْفَجُ أكماعِ المديد خواني
أقوم الى وقتِ الصلاة وريحُهُ بكفّيً لم أغسِلها بشُنانِ
وهل أشرَبْن من ماء لينة شربةً على عطش من سؤرِ أمِ أبانِ(237)

7 ـ الثعالب

الثعالب جمع مفرده الثعلب ، وهو حيوان مشهور بالمكر والروغان(238) وربما دعي ثعالة (بضم الثاء) ، وقيل : أرض مثعلة (بفتح فسكون) أي كثيرة الثعالب ، وورد في الأمثال : (أروغ من ثعالة ، ومن ذنب ثعلب)(239) .

ويجمع على أثعل أيضاً ، وروى عن الرسول (ص) : « شر السباع هذا الأثعل) يعني الثعالب(240) أما أنثاه فتسمى ثعلبة ، وثرملة (بالضم) والذكر ثعلبان . وانشدوا لسادن صنم اسمه غاوي بن ظالم قوله :

أربٌ يبولُ الثعلبانُ برأسهِ لقد ذلَّ من بالَتْ عليهِ الثعالبُ(240)

---

(236) الحيوان : 6-62

(237) الحيوان : 6 - 86 . البيت الأول فيه اقواء العرفج : ضرب من النبات الد مهلي ـ الأكماع : جمع كمع (بالكسر) ، وهي أماكن في الأرض ترتفع حروفها ، وتطمئن أوساطها ـ المديد : موضع قرب مكة ـ لينة (بالكسر) ، مكان في نجد .

(238)المصايد149 ، حياة الحيوان : 1-159 ، صبح الأعشى : 2-46

(239) مجمع الأمثال ، الميداني : 1-317 (حققه محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة1955) .

(240) حياة الحيوان : 1/157, 159

قد طالما أفلت يا ثُعالاً وطالما وطالا
جلت بكلبي يومك الأجوالا ما طلتَ من لا يسأمُ المطالا
حتى اذا اليوم حدا الأصالا أتاكَ حين يقدم الآجالا(249)

ويصطنع الفهد وجوارح الطير في صيد الثعلب كذلك(250) ، اذ اسهب الشعراء في وصفه ، ولاسيما شعراء العصر العباسي .

8 ـ الضباع

الضباع جمع مفرده الضبع (بفتح الضاد وسكون الباء وضمها) ، نوع من السباع ، واللفظ للانثى ، وتسمى أيضاً ضبعانة ، وجيأل وهي معرفة بدون ألف ولام ، فقيل : (أنبش من جيأل) ، لأنها تنبش القبور ؛ وتخرج جيف الموتى من باطن الأرض الى ظاهرها(251) .

والذكر ضبعان (بكسر الضاد) ويطلق عليه حضاجر ، لسعة البطن وعظمه ، واللفظ معرفة ، قال الحطيئة :

هلا غضبت لرحلِ جا رِكَ اذ تنبذه حضاجرُ(252)

ويدعى الذكر ذيخ (بكسر الذال) اذا كان كثير الشعر ، ويجمع على ذيوخ وأذياخ وذيخة . والأنثى ذيخة وجمعها ذيخات ولا يكسر(253) .

وتكنى العرب بالضبع عن سنة الجذب ، وبذلك فسر بعضهم قول العباس بن مرداس :

أبا خراشةَ أما أنتَ ذا نَفَرٍ فانّ قومي لم تأكلْهُم الضَّبعُ(254)

وفي اللسان (قال ثعلب : جاء أعرابي الى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله أكلتنا الضبع ، فدعا لهم)(255) .

---

(249) ديوان أبي نواس : 634 . ثعالا : الثعلب ـ ماطلت : راوغت .
(250) صبح الأعشى : 2-46
(251) اللسان (ضبع) ، المصايد : 213-214 ، حياة الحيوان : 2-70
(252) اللسان (ضبع) ، حياة الحيوان : 1-215
(253) اللسان (ذيخ) ، حياة الحيوان : 1-330
(254) الحيوان : 6-446 ، خزانة الأدب : 4-10 ـ12
(255) اللسان (ضبع) .

وذكر القزويني أن الضبع (حيوان قليل العدو ، قبيح المنظر ، ينبش القبور ، ويخرج الجيف ، والعرب تزعم أنها لا تأكل الا لحوم الشجعان [256] وهو ما يألفه النسر ويسالمه ويشاركه في الفريسة[257] .

ونرى الصعاليك أكثر من غيرهم اطلاعاً على الضباع ، فانهم توحشوا مثلها ، وتعودوا رؤيتها ، فالأعلم الهذلي ـ قد أبصر بضبع غليظة لها ثمانية جراء ، خلف اظلاف تلك الضبع شعرات متجمعة ، وفوقها دوائر كأنها الخلاخيل لونها يغاير ما حولها :

عشنــزرةٌ جواعرهــا ثمانٍ فويقَ زماعاتِهــا خَدمٌ حُجولُ[258]

وعن كثب راقب الأعلم الضباع وصغارها ، وخيل اليه أن ضبعاً لها جراء قد جرت لحمه اليهن ، فأخذن يجررن لحمه كما يجر الصناع البطائن القديمة المذهبة التي تغشى بها أجفان السيوف ، وكانت الجراء ضخام البطون ، سود الجلود ، كثياب الراهب ، أما آذانهن ، وهن مجتمعات حول الفريسة ، فتشبه المغارف :

وتجــرُ مُجْــرِيَةٌ لها لحمــي الى أجــر حَواشِبْ
سودٍ سحــاليلُ كأنَّ جلودُهــنَّ ثيابُ راهبْ
آذانهُــنَّ إذا احتضرْ نَ فريســةٌ مثــل المذانبْ
ينزعــن جلــد المرء نز عَ القــينِ أخــلاقَ المذاهبْ[259]

وعند صيد الضبع يأخذ الرجل حبلاً ، ويدخل وجارها ، ويسد ببدنه وبثوبه كل المنافذ ، لئلا يصل شيء ولو كان قليلاً من الضياء فانها حينئذ تثب عليه وتفتك به ، وان أحكم كل شيء يقل لها : خامري أم عامر ، فتمكنه من ربطها بالحبل ، ويخرج بها من وجارها[260] ، والى ذلك أشار الشنفري الأزدي ، فهو لا يخشى الضبع اذا مات ، ويطلب من رفاقه الا يدفنوه ، فدفنه محرم عليهم ، بل يترك للضبع التي يقال لها اذا صيدت : خامري أم عامر :

---

(256) عجائب المخلوقات : 2-203
(257) الحيوان : 6-333
(258) الشعراء الصعاليك : 242 . الخدم : جمع خدمة وهي لون يخالف سائر لون رجلها .
(259) الشعراء الصعاليك : 242 . مجرية : ذات جراء ـ الحواشب : المنتفخات ـ السحاليل : العظام البطون ـ المذانب : المغارف . المذاهب : بطون مذهبة .
(260) الحيوان : 6-48 ، المصايد : 214 ، حياة الحيوان : 1-331

واحدى كناه أبو الحصين ، والأنثى أم عويل ، ومن معاني الهجرس أنه ولد الثعلب(241) .

ويبدو أن الشاعر اذا أراد نعت شيء بالذل والاستهانة يقول أن الثعالب بالت عليه ، فقد تكرر هذا المعنى في أحد بيتين نسبهما الدميري الى حميد ابن ثور :

ألم ترَ ما بيني وبين ابن عامرٍ من الود قد بالَتْ عليهِ الثعالبُ(242)

(والثعلب سبع جبان مستضعف ، ذو مكر وخديعة ، لكنه لفرط الخبث والخديعة يجري مع كبار السباع)(243) ، ويتخذ الثعلب ضرباً من الحيلة في كسب رزقه ، فهو يتماوت ، وينفخ بطنه ، ويرفع قوائمه ، ويقترب اليه حيوان ظناً بأنه ميت حقاً ، فيثب عليه الثعلب ويصطاده ، ومن أسلحة الثعلب فضلاً عن الروغان والتماوت ، سلحه ، فهو انتن والزج وأكثر من سلاح الحباري ، وقد يقذف القنفذ به ان كان كالكرة متحصناً بشوكه فسرعان ما ينبسط القنفذ ، فيقبض عليه(244)

ومن خصائص الثعلب أنه اذا تمرغ في الحقل فلا ينبت مكانه ، ويسفد الكلبة فتلد كلباً شبيهاً بالسلوقي ، له فراء كريم ، وأثمن الوانه الأسود ، ومنه الأبيض ، ويكثر وجوده في الآجام والكروم(245) .

وقديماً كان الصراع مستعراً بين الثعلب وجوارح الطير ، فالعقاب تطارده ، ويستشعر وجودها ، فيستولي عليه الخوف ، ويرفع ذنبه ، وصار كمن روعه الذئب ، ولكنها أدركته ، وانقضت عليه ، وطرحته أرضاً ، وأصبح تحتها وقد اشتد به الغم ، وأحدثت في وجهه جروحاً ، اذا ارتطم بالحجارة وأخذ يصيح ، اذ نفذ مخلبها في دفته ، واخترقت صدره ، تلك صور من الصراع بين وحش الجزيرة ينقلها الينا عبيد بن الأبرص :

---

(241) المصدر السابق : 2-329

(242) حياة الحيوان : 1-164 . لم أجد البيتين في ديوان حميد ابن ثور (تحقيق عبد العزيز الميمني) ، ولكن ورد اسم ابن عامر في بائية أخرى (ديوان حميد : 50) قال المحقق في شرح البيت أنه يخاطب نفسه ، والصحيح أن ابن عامر شخص ثان ، ولا سيما اذا صح ما أورده الدميري .

(243) حياة الحيوان : 1-160 ، ومثله في صبح الأعشى : 2-46

(244) حياة الحيوان : 1-160 ، الامتاع والمؤانسة : 1-179

(245) المصايد : 151 ، حياة الحيوان : 1-160 - 161 ، صبح الأعشى : 2-46

فاشتـــالَ وارتـــاعَ من حَسِيسِها وفِعْلَـــهُ يَفْعَـــلُ المذؤوبُ
فأدركتـــهُ فطرَّحَتْهُ والصيدُ من تحتهـــا مكروبُ
فجدَّلتُـــه فطرَّحَتْهُ فكدَّحـــتْ وَجهَـــهُ الجَبُوبُ
يضغـــو ومخلبهـــا في دفِّهِ لا بُدَّ حيزومُـــهُ منقوبُ(246)

يحتل الثعلب مكانة أثيرة في طرديات أبي نواس ، فقد وصفه وصفا دقيقاً ، فهو يخرج مبكراً من بيته يبحث عن قوت لصغاره ، مسروراً يدور هنا وهناك ، هذا دأبه في طلبه الطعام ، ولكن أبا نواس عارضه بكلب جائع يمرح بزينته وقلائده :

لما غدا الثعلـــبُ من وجارِهِ يلتمسُ الكَسْـــبَ على صغارهِ
جذلانَ قد هيَّج من دوارِهِ عارضتـــه في سنـــنِ امتيارهِ
بضرمٍ يَمْـــرحُ في شِوارِه في الحلـــقِ الصُّفْـــر وفي اسيارِهِ(247)

ثم يسترسل الشاعر في وصف الكلاب ، ولكنني ارجأت ايراد الأبيات هنا ، على أمل العودة اليها عند الكلام على وسائل الصيد .

وينطلق الكلب مدركاً الثعلب ، فيمزق أذنيه بأظفاره ، ثم يمرغه في التراب ، فيخلع فقراته ، ويقلع صداره :

حتـــى اذا أخصفَ في احضارهِ خرَّق أذنيهِ شبـــا أظفارهِ
حتـــى اذا ما انشـــامَ في غبارهِ عافـــره أخـــرقَ في عفارهِ
فتلتـــل المفصـــلَ من فقارهِ وقَـــدَّ عنـــه جانبـــي صدارهِ
خير في الثعلب في ابتكارهِ(248)

ويحادث أبو نواس ثعلباً ، متشفياً به ، قائلاً له : انك كثيراً ما أفلت مني مرات ومرات، ولكني دائب في التجوال بكلبي ، صبور لا أسأم المماطلة وأخيراً فما كاد ينتهي النهار حتى أدركك الهلاك ، ووقعت فريسة لمخالب كلبي :

---

(246) ديوان عبيد : 30 . اشتال : رفع ذنبه ـ حسيسها : أي الصوت الخفي الذي تحدثه ـ جدلته (بتضعيف الدال) : طرحته على الجدالة أي الأرض ، الجبوب : الأرض الغليظة ـ يضغو : يصيح ، والضغاء : صياح الثعلب .
(247) ديوان أبي نواس : 629 . الوجار : الجحر ـ ضمز : جائع ملتهب .
(248) المصدر السابق : 630 . ولأبي نواس طردية أخرى في المعاني ذاتها : 639 . أخصف : لشتد ـ احضاره : جريه ـ انشام : دخل عافره : مارسه أو جعله في التراب ـ تلتل : حرك وجذب ـ قد : شق ـ صداره : صدره ها هنا

لا تقبروني إنَّ قبري محرَّم عليكم ولكن أبشري امَ عامر[261]

ويذكر الجاحظ بيتاً للشاعر الكميت ، في معرض كلامه على قيام الذئب بشأن جراء الضبع ، يعيد الكميت فيه طريقة صيد الضباع نفسها :

كما خامرت في حضنِها أمُ عامرٍ لذي الحبلِ حتى عالَ أوسُ عيالها

وما زالت الضباع في الجزيرة العربية الى يومنا هذا ، والى وجوده يشير (سنت جون فيلبي) فيقول : (وقد مررنا بآثار حديثة لضباع كثيرة حين بدأنا تحميل خيامنا في الصباح ، كما شاهدنا في أحد الوديان بعد العصر آثار أقدام ضبعين أكبر سناً من تلك التي رأينا آثارها في الصباح)[263] وما زال الناس في العراق يألفون رؤية الضباع في القرى والأرياف والمناطق الجبلية النائية .

9 ـ الأسود

الأسود جمع مفرده أسد ، وهو من السباع المعروفة ، ويجمع أيضاً أُسْد ، وآساد ويقال لانثاه : اللبوة ، ولولده الشبل[264] .

ونقرأ للدميري : (قال ابن خالويه للأسد خمسمائة اسم وصفة وزاد عليه علي بن قاسم بن جعفر اللغوي مائة وثلاثين اسما)[265] .

واشتهر من أسمائه : أسامة ، والبيهس ، وحيدرة ، والرئبال ، والسبع ، والضرغام ، والضيغم ، والغضنفر ، والقسورة ، والليث ، والورد[266] .

وجد الأسد في أمكنة معروفة في البلاد العربية ، وأطلقوا عليها مأسدة ، ويذكر بشر بن أبي خازم منها عثر (بفتح العين وتشديد الثاء المفتوحة) في معرض مدحه أوس بنَ حارثة ، ويبين أن أسداً يسكن الشجر الكثير الملتف ، حوله المياه ، الذي يتكاثر حوله

---

(261) ديوانه (الطرائف الأدبية) : 36 ، الشعر والشعراء ، ابن قتيبة : 1-80 (تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة1967) ، الصناعتين لأبي هلال العسكري : 183 (ط1 القاهرة1952) .

(262) الحيوان : 6-398

(263) أرض الأنبياء (الترجمة العربية) : 271

(264) حياة الحيوان1-3 ، صبح الأعشى : 2-34

(265) حياة الحيوان : 1-3

(266) حياة الحيوان1-3 ، صبح الأعشى : 2-34

البعوض ، يصيد يوماً وآخر لا يصيد فيه ، ينظر الشمس يرقب نزولها ، لينصرف الى الصيد في الليل ، وينتهي الى القول ، ليس ذلك الأسد بأشد من الممدوح في نزاله للكفء والنظير :

وما ليثٌ بَعثَّرَ في غَريف يغنّيهِ البعوضُ على النِّطافِ
مُغِبٌّ ما يزالُ على أكيلٍ يُناغي الشمس ليس بذي عطافِ
بأبأسَ سورةً للقِرْنِ منهُ اذا دُعيتْ نزالِ لدى الثقافِ(267)

ومأسدة أخرى هي خفية (بفتح الخاء وتضعيف الياء) تقع في سواد الكوفة ، فيقول سلامة بن جندل : أن قلبه يرفض أن يقصد السدير وساكنيه ، ولو أنه عرف بالعيش الطيب الحسن ، لأن فيه البق والحمى ، والأسود التي تكثر في خفية ، وكذلك فيها عمرو بن هند يظلم الناس ويتجاوز على حقوقهم :

أبى القلب أن يأتي السَّديرَ وأهلَه وان قيل : عيشٌ بالسديرِ غريرُ
به البقُّ والحمى وأسْدُ خَفِيَّة وعمرو بن هند يعتدي ويجورُ(268)

ولقد اشتهر حديث الأسد مع أبي زبيد الطائي ووصفه اياه في مجلس عثمان بن عفان (رضي) ، (الى أن قال عثمان رضي الله عنه : أسكت قطع الله لسانك ، فقد أرعبت قلوب المؤمنين)(269) .

ويقول ابن قتيبة عنه : (ولم يصف أحد من الشعراء الأسد وصفه . قال شعبة للطرماح : ما شأن أبي زبيد وشأن الأسد ؟ قال : انه لقيه أسد بالنجف فسلَّحه(270) .

وحين ألقى الحجاج بن يوسف القبض على جحدر العكلي ، وكان خارجاً على طاعة الحاكم ، يسرق ويروع الناس في اليمامة ، وكان عقابه أن ألقاه الحجاج بين يدي أسد جائع ، قد أصطيد من مأسدة حول واسط ، ولكن جحدرا هذا قتل الأسد منتصراً عليه

---

(267) ديوان بشر : 149 . عثر : موضع تسكنه الأسود من أرض تهامة جنوب الطائف، ذكرها عروة بن الورد أيضاً ، ديوانه : 56

(268) ديوان سلامة بن جندل : 241 (تحقيق فخر الدين قباوة ، حلب1968) السدير : نهر بناحية الحيرة مشهورة ، وقيل قصر بناه النعمان بن امرىء القيس .

(269) خزانة الأدب : 4-143

(270) الشعر والشعراء : 1-302

فعفا عنه الحجاج[271] .

والشراة (طريق في سلمى كثيرة الأسد ، وجبل بنجد لطيء ، وجبيل بتهامة كثير السباع)[272] ، وضربوا بأسدها المثل ، وفي حديث الفرزدق عن زوجه النوار، شبهها بأسد الشراة ، فلا يستطيع من يسعى اليها اعتراض سبيلها :

وانّ امرءاً أمسى يخببُ زوجتي كساعٍ الى أسْدِ الشرَى يستبيلُها[273]

من كل ذلك أخلص الى الاقرار بأن الأسد كان من الحيوانات التي سكنت الجزيرة والعراق وما جاورهما ، ولكنه لم يعد موجوداً فيها الآن . وهذا لا يعني أن الشعر الذي ورد في وصفه موضوع ، وانما يفهم منه أن الأسد هو الذي انقرض بعد أن صارت هذه البقاع غير ملائمة لسكناه ، ولقد كان صيده في العراق رياضة مارسها الخلفاء وعلية القوم[274] .

ويخبرنا الجاحظ عن السوراني الذي (ضرى أسداً حتى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً)[275] ويعتبر هذا العمل غريباً يدعو الى العجب ، ويدل على براعة السوراني في تضرية الوحوش ، ولكن ذلك غير مطرد ، فهو شاذ ، اذ المعروف أن الأسد يصطاد لنفسه ، وما عرف عنه الصيد لغيره .

أما صيده فقد افتنَّ العرب فيه ، ويتم بطرق كثيرة ، وذكر زكي محمد حسن بعضها[276] . يركب الصياد فرساً مدرباً على مواجهة الأسد ويتظاهر الفارس بالهرب ، فيتبعه الأسد ، ولكنه لا يدركه ، لأن الفرس أسرع منه ، فيتعب بسرعة ، ثم يستدير الصياد نحوه ، وعند اقترابه يرشقه بسهم هادفاً أحد أقدامه ، ويبقى الأسد مستمراً بالملاحقة ، والصياد يواصل رميه بالسهام حتى تقل المسافة بينهما تدريجياً ، ثم يضع

---

(271) الوصف في شعر العراق : 219 . عن : الأمل في شرح الكامل للمرصفي ، في قصيدة جحدر العكلي .

(272) القاموس (شراه) .

(273) شرح ديوان الفرزدق : 170 (المستشرق جيمس د . سايمز بيروت) ورواه الدميري :

وان الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع الى أسد الشرى : يشتبيلها وقال عن (يشتبيلها) : أي يأخذ أولادها (حياة الحيوان : 1 -9)

(274) الوصف في شعر العراق : 219

(275) الحيوان : 26

(276) Hunting as Practised :4-6

الصياد نهاية للأسد المتعب بسهام أخرى .

ويستطيع رجل وحده ، أن لمس في نفسه الشجاعة ، أن يتصدى للأسد ، ويتسلح برمح وسيف وعدد من السكاكين ، فأن هاجمه الأسد سدد رمحه نحو رقبته ، وحاول ضربه بالسيف على سيقانه ولا سيما الخلفية ، ويقفز الى الخلف ، وربما حاول أن يطعن أحدى عينيه ، أو فمه ان أمكن ، وقد يغمد خنجراً في جسم الأسد ، ثم يقف جانباً يراقب الأسد المنهار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة .

ويصاد الأسد أيضاً بتعاون رجلين ، ويقوم أحدهما بخداع الأسد بينما يتبعه الآخر محاولاً اصابة أقسام الأسد الخلفية ، وعندما يستدير الأسد نحو مهاجمه يسارع الأول الى شل سيقانه ، ليتمكن شريكه من غمد سيفه في جسم الطريدة ، ويحرص على ايصاله الى القلب ، أما اذا هاجم الأسد الصياد الأول في البداية فيلجأ الثاني الى طعنه في عينيه ، ليعمى ويسهل الانقاض عليه .

وثمة طريقة أخرى ، وان كانت شاقة ، لكنها تتطلب الحذر والانتباه والاستجابة الدقيقة السريعة ، يقوم بها جماعة من الصيادين ، يترقبون الأسد حتى ينام وقت القيلولة ، ثم يتقدمون منه بشكل دائري ، وبكل هدوء والرماح بأيديهم ، وبعد أن يتمكنوا من تطويقه ، يوجهون رماحهم نحوه وهو موجود في وسطهم ، وباشارة أخرى يقذفونه برماحهم .

وأما الطريقة الأخرى فهي لا تخلو من مخاطرة ، يقوم بها رجل رابط الجأش ، شجاع ينبطح عند عرين الأسد ، ويعمل أصواتاً ، يقذف حصى داخل العرين ، فاذا خرج الأسد تحرك الصياد نحوه ، وقد لف يده اليسرى بالصوف ، فاذا عض ذلك الصوف فأنه بهذا يكشف عن جسمه للصياد ، فتواتيه الفرصة لاستعمال سيفه .

وذكر كشاجم طرقاً أخرى لصيده ، فأهل نهاوند الجبلين يصيدونه بالأوهاق ، أما العرب فيصيدونه بالزبى وكذلك باللبابيد[277] ، وسنتولى بسط هذه الطرق عند الحديث عن « وسائل الصيد » .

---

(277) المصايد : 187 -182 . الأوهاق : مفرده وهق وهو الحبل يرمي في أنشوطة فتؤخذ به الدابة .

ولقد مر بنا في بحثنا « دوافع الصيد » كيف تمكن بشر بن عوانة الفقعسي من قتل أسد بسيفه .

وفي قصيدة يهجو الطرماح بها الفرزدق ، يشبه الذي يبتغي شراً بطيىء محاولاً مهاجمتهم بالصائد الذي يطلب الأسد في الشجر المتلف حيث يأوي الأسد :

يا طيءَ السهل والأجبالِ مَوعدُكمْ كالمبتغي الصيدَ في عرِّيسةِ الأسدِ(228)
والليثُ من يلتمسُ صيداً بعقْوتهِ يُعْـرَجُ بحوبائِه من أحرزِ الجسدِ

10 ـ الذئاب

الذئاب جمع مفرده الذئب ، وأنثاه الذئبة ، ويجمع ذؤبان وذئبة كذلك ، وله أسماء أخرى منها السِّيد ، والسرحان (بكسر السين)(279) وجمعه سراح وسراحين ، والأنثى سرحانه(280) .

ومن أسمائه الأخرى الأوس ، وورد هذا في شعر الكميت :

كما خامرتْ في حضنِها أمُ عامرٍ لذي الحبل حتى عالَ أوسٌ عيالَها(281)

ويسمى أيضاً ذؤالة (كأسامة للأسد ، وهو معرفة ، سمي بذلك لأنه يذال في مشيته ، وهي المشية الخفيفة)(282) .

والذئب أحرص السباع على المطالبة ، فاذا عجز استغاث عاوياً فتتجمع الذئاب لعوائه ، وتهاجم الانسان وتأكله ، وقد انفرد بهذه(283) .

وروي كشاجم بيتين لم يسم قائلهما ، فيهما ذلك المعنى :

لم تكُ كالليثِ اكتفى مفردا بنفسهِ لما أراعَ القرى
بل كنت كالذئب رأى عجزَهُ فاستنجدَ الذؤبانَ واستنفرا(284)

---

(278) ديوان الطرماح : 158 -159 . عريسة (بكسر العين والراء المشددة) الشجر الملتف ، ويكون مأوى الأسد ويألفه ـ عقوته : ساحته وموضعه يعرج بحوبائه : أي يذهب بنفسه .
(279) المصايد : 103 ، حياة الحيوان : 1 -325
(280) حياة الحيوان : 2 -17
(281) حياة الحيوان : 1 -97
(282) حياة الحيوان : 1 -318 ، 330
(283) المصايد : 104 ، عيون الأخبار : 109 -110
(284) المصايد : 104

ويدعى الموضع الذي يصاد فيه الذئب الكمحة[285] ، وهو يصاد بالكلاب وغيرها ، فان الشمردل أخبرنا بأرجوزة عن ذئب قتله ، لأنه يفتك بغنمه ، ولازم مرعاها ، وكان يفترس منها الشاة تلو الأخرى ، ولكن الشاعر ترصده ، حتى أقبل كعادته ، فرماه بسهم قاتل ، وقال فيه :

هل خُبِّر السرحانُ اذ يستخبرُ عني وقد نام الصِّحاب السُّمَّرُ
لما رأيت الضأن منه تنفرُ نهضتُ وسنانَ وطارَ المِئزرُ
وراع منها مرح ومستبهرُ كأنه أعصارُ ريح أغبرُ
فلم أزل أطردهُ ويعكرُ حتى اذا استيقنت ألا أغدرُ
وان عقرى غنمي سيكثرُ طارَ بكفي وفؤادي أوجرُ
ثُمَّتَ أهويت له لا أزجرُ سهماً فولىٰ عنهُ وهو يعثرُ
وبتُّ ليلي آمناً أُكَبِّرُ[286]

ولم يقتصر وصف الذئب رجزاً على الشمردل ، فقد أسهم في وصفه رؤبة أيضاً بأرجوزة تقع في أحد عشر بيتاً[287] ، أما حميد بن ثور فانه أسهب في وصف ذئب وامرأة بقصيدة عينية تتكون من عشرين بيتاً[288] ، وقد أورد استاذنا الدكتور أحمد الحوفي أبياتاً للنابغة الجعدي ، ينعت ذئباً لم تخل من دقة ، فالشاعر تصدى لوصفه وهو يفترس غزالاً[289] .

ومن المفارقات التي رواها الجاحظ عن حذق السوراني لتدريب الوحوش (أنه ضرى ذئباً حتى اصطاد به الظباء ، وما دونها صيداً ذريعاً وأنه ألفه حتى رجع اليه من ثلاثين فرسخاً)[290]

---

(285) المصايد : 105
وورد في اللسان (كمح) : الكمح : رد الفرس باللجام ، والكمحة الراضة .
(286) الأغاني : 13 -362 . المستبهر : الذاهب عقله ، وفي الأصل المتخايل ـ العقري : الجرحى ـ الأوجر : الخائف .
(287) مجموع أشعار العرب : 32
(288) ديوان حميد : 103 -106
(289) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي : 149 (ط 1 القاهرة 1908) .
(290) الحيوان : 6 -46 ، صبح الأعشى : 2 -46

الفصل الثاني
الطيور

1 ـ النعام

النعام اسم جنس يذكر ويؤنث ، كقولنا حمام وحمامة ، ويقال للذكر الهيق (بفتح الهاء وسكون الياء) ، وقد تزاد اليه الميم فيكون الهيقم ، ويسمى الظليم كذلك(1) ، ويجمع على ظلمان ، والأنثى نعامة وتجمع على نعائم ونعامات ، اذا كن ثلاثاً الى عشر ، وللأكثر من عشر نعام ، ويطلق على الجماعة منه خيط ، وولده الرأل ، والأنثى رألة(2) .

وعن النعامة يقول القزويني : (حيوان مركب من خلقة الطير والجمل . . . أخذ من البعير العنق والوظيف والمنسم ، ومن الطير المنقار والجناح والريش)(3) وربما نقل القلقشندي عنه نفس الفكرة(4) .

ولعلنا نتساءل عن مواضع النعام ، الا أن استاذنا الدكتور أحمد الحوفي يطفىء تساؤلنا حين يقرر : (عاش النعام في بلاد العرب زمناً طويلاً وعرفوا من أحواله شيئاً كثيراً تبين في أعمالهم ، وفي شعرهم وأمثالهم)(5) .

ومن أعاجيب النعامة (أنها تضع بيضها طولاً ، بحيث لو مد عليها خيط لاشتمل

---

(1) حياة الحيوان : 340, 310/2

(2) المصايد : 221, 219, 217

(3) عجائب المخلوقات : 2 -256

(4) صبح الأعشى : 2 -69

(5) أغاني الطبيعة : 108

على قدر بيضها ولم تجد لشيء منه خروجاً عن الآخر)[6]

ومن مظاهر حمقها أنها ، لو وجدت بيض غيرها ، احتضنته غافلة عن بيضها ، والى هذا أشار ابن هرمة اذ شبه بها نفسه حال تركه ندى الأكرمين من الناس :

فاني وتركي ندى الأكرمين   وقدْحي بكفي زناداً شحاحا
كتاركة بيضَها بالعَراءِ   وملبسة بيض أخرى جناحا[7]

والظليم معروف بالسرعة حتى أن الخيل لتعجز عن ادراكه ، مما حدا بالشعراء أن يستغلوا فيه هذه الخصلة ، فشبهوا به نياقهم أسوة بالحمار والثور الوحشين ، ونعثر في معلقة الحارث بهذا فهو يشبه ناقته السريعة بنعامة لها ولد ، تتنقل في أرض بعيدة الأطراف ، فاحسَّت قناصاً قد بعث صوتاً خفياً ، وكان الوقت عصراً قد دنا منه المساء ، وهذا أدعى لفزعها ، وانطلاقها بسرعة :

بزفوفٍ كأنَها هِقْلَةٌ أمُّ   رئالٍ دوِّيَّةٌ سَقْفاءُ
أنستْ نبأةً وأفزعَها القنَّـ   ـاصُ عصراً وقد دنا الامساء[8]

ونستطيع أن نقرأ أبياتاً شبه فيها زهير[9] ، وعلقمة الفحل[10] ، ولبيد[11] ، والطرماح[12] ، ورؤبة[13] ، نياقهم بالظلمان ، متوخين فيها السرعة والنشاط . أما مالك بن خالد الخناعي فيفاخر بسرعته ، ويدلل عليها بأنه أسرع من نعامة دب فيها السمن وكثر شحمها ، فهي نشيطة[14] .

وعرف النعام بالخوف الشديد والشراد ، وقد تحسس الشعراء هذه الحال فيه واتخذوها وسيلة للسخرية من خصومهم ، فالشاعر عامر بن الطفيل يفاخر خصومه ، اذ قتل قومه رئيسهم ، فولوا الأدبار هلعين فزعين ، كما يشرد النعام حين يطرده القناص :

---

(6) حياة الحيوان : 2 - 31
(7) شعر ابراهيم بن هرمة القرشي : 87 (تحقيق محمد نفاخ وحسين عطوان دمشق1969)
(8) شرح القصائد العشرة : 255-256 ، شرح المعلقات السبع198 -199
(9) شرح ديوانه (بيروت) : 93
(10) ديوانه (بيروت) : 20-21 ، المفضليات : 2-199
(11) ديوانه (الكويت) : 147 -149
(12) ديوانه : 211-212
(13) شرح ديوانه (مخطوط) ورقة : 12 (دار الكتب المصرية ، 519 أدب) .
(14) شرح أشعار الهذليين : 1-461 ، ديوان الهذليين : 14/3 ,15 مع اختلاف بينهما بالألفاظ .

قتلنـــا كبشَهُـــم فنجـــوا شلالاً كما نفَّـــرْتَ بالطَّـــردِ النعاما(15)

والنعامة عند العرب صيد طيب ، يأكلون لحمها ، ويتخذون ريشها زينة ، أما أوتار عصبها فيثبتون بها عظامها على رؤوس سهامهم ورماحهم(16) ولم يؤثر ظهور الاسلام على نظرتهم اليها ، بل كانت من الصيد الحلال ، لذا إستمروا في طردها .

وعد أبو دؤاد الأيادي خروجه على فرسه لصيد النعام شيئاً يستحق التفاخر به ، ولا سيما أن دلل على نجابة فرسه وسرعة انطلاقه وادراكه الطريدة ، فقد خرج الى حقير ، حيث تكثر أوابد الحمير والنعام :

وأخذنـــا به الضّرارَ وقلْنا بحقـــيرٍ بنانـــه اضمارُ
فأتانـــا يسعـــى تفـــرُّش أمِّ الـــ ـــبيض شداً وقـــد تعـــالى النهار
غـــير جعفٍ أوابـــد ونعامٍ ونعـــام خلالهـــا أثوار

ثم يصرع ستًّا ما بين ظليم ونعامة ومهايين وحمار ورئال ، وكأنما قسم بينهما كأس عقار :

ينكشفـــن من صرائـــعِ ستٍ قسِّمـــت بينهـــنَّ كأسُ عقارُ
بـــين ربـــداء كالمظلـــةِ أفقُ وظليمٍ مع الـــظليمِ حمارُ
ومهـــا بـــين حربـــين ورئال وسيوب كأنَّـــه أوتارُ(17)

وممن تعرض لذكر طرد النعام النابغة الجعدي ، فانه خرج مع رفاقه الشاربين في وقت لم تنبت الأرض وتعشب ، يحملون زق خمر ، وضعوه على خوان من خوص يجمع الرطب والهش من الأكل ، ونزلوا مفازة لا نبات فيها ، قد أصابها ماء المطر ، تصحبهم قينة ذات صوت جميل وأرداف مكتنزة ، واذا بهم يلمحون عن بعد قطيع بقر وحشي وظباء ونعام أسود كالأحباش ، فأوعزوا الى خادمهم، ليقوم بواجبه ، فأسرع الى فرس طويل سريع ذي صوت غليظ ، وأرشده الى الصيد ، فالفرس يدركه ويوفر لهم طعاماً ، وعاد اليهم بثور وظليم وظبية ، فأشتووا لحماً طرياً لذيذاً وأكلوا وشربوا دون منَّة ، وأقفلوا

---

(15) ديوانه : 110 . شلالا (بكسر الشين) : طردا .

Hunting as parctised: 10 (16)

(17) الحيوان : 4-365 . حقير : موضع ـ أم البيض : النعامة ـ التفرش : أن ترفرف بجناحها ـ ربداء : نعامة رمادية اللون ـ الأفق (بضمتين) : الرائع للذكر والأنثى ، وسكن الفاء للشعر .

راجعين آخر الليل مع خيوط الفجر الأولى :

ولقــد أغــدو بشرْبٍ أُنف — قبـل أنْ يظهـرَ في الأرضِ ربشْ
معنـا زِقٌ الى سمَّهة — تَسـقِ الآكال من رطـبٍ وهشْ
فنزلنـا بمليعٍ مقفرٍ — مسَّـه طلٌ من الدجْـنِ ورشْ
ولدينـا قينـةٌ مسمعةٌ — ضخمـةُ الأردافِ من غـيرِ نفشْ
واذا نحـن باجـلٍ نافرٍ — ونعـامٍ خيطـهُ مثـل الحبشْ
فحملنـا ماهنـا ينصفنا — فوق يعبـوبٍ من الخيلِ أحشْ
ثم قلنـا دونـك الصيدَ به — تدرك المحبـوبَ منهـا وتعشْ
فأتانـا بشبـوبٍ ناشط — وظليمٍ معـه أم خششْ
فاشتوينـا في غريض طيبٍ — غـير ممنـون وأبنـا بغبشْ(18)

ولقد طرد أبو نخيلة الراجز عشر نعائم ، ووصف ذلك ، فهو اتخذ فرساً جواداً أحمر ، حسناً جميلاً ، وانطلق به يطرد عشراً من النعائم طويلات ، تصطك سيقانها عندما تركض سريعاً ، وشردن ، وتبعهن بفرسه واجتمعن متزاحمات ، اذ خانتهن سيقانهن ، واستطاع أن ينال أخيرتهن فعقرها :

أنعـت مهـراً سبـط القراتِ — ورداً طمـراً مدمَّـج السراةِ
يغـدو بنهـد في اللجـامِ عاتِ — نعـائِماً عشراً مطرداتِ
صك العـراقيبِ هجَنعاتِ — فانصـاعَ وانصعْـنَ مولياتِ
ما كان الا هاكهُ وهاتِ — حتـى اجتمعْـنَ متناغصاتِ
بالسهـب والغـدر من الحماةِ — واختـلَّ حضنـا هيقـة شوشاتِ
فانقعـرت من آخـر الهيقاتِ — بغـير تكبـير ولا صلاةِ
كأنها خالفةُ السراةِ(19)

---

(18) رسالة الغفران ، المعري : 208-209 (تحقيق بنت الشاطىء ط3 القاهرة 1963) وهذه الأبيات مما ينكره المعري اذ كتب عنها : (فيقول نابغة بني جعدة ما جعلت الشين قط رويا . .) .

شرب ـ بالفتح : جمع (شارب) ويعني شاربي الخمر ـ أنف:أباة ـ ربش :نبت ـ سمهة ـ بضم فتشديد مفتوح : خوان من خوص ـ تسق : مجمع ـ مليع : مفازة ـ الدجن المطر آجل ـ بالكسر : قطيع بقر وحش ـ خيطه : جماعته ـ ماهنا : خادما ـ أم حشش : ظبية ـ غبش وقت الفجر .

(19) طبقات الشعراء لابن المعتز : 65-66 .

القرات : التاء زائدة وأصلها القرى أي الظهر ـ الطمر : الفرس الجواد ـ السراة : الظهر ـ الورد : الأحمر الى صفرة ـ صك العراقيب : من أوصاف النعام ـ الهجنع : الطويل ـ السهب : الفرس الواسع : الجري ـ الحماة : عضلة الساق .

ولأبي نخيلة طردية أخرى في طرد النعام رواها أيضاً ابن المعتز[20] .

2 ـ الحبارى

الحبارى (بضم الحاء) طائر بحجم الديك العظيم له ريش كثير ، وهو اسم جنس يدعى به المذكر والمؤنث ، ويشمل المفرد والجمع ، ويجوز أن يجمع على حباريات ، ويقول الدميري : (وأهل مصر يسمون الحباري الحبرج) واعتبره ثانية ذكر الحباري[21] .

والخرب (بفتح الخاء والراء) ذكر الحبارى ، وجمعه خراب وأخراب وخربان[22] .
ونجد الشمردل ذكره في احدى طردياته ، ووصفه بالذل :

وخـــرب قد ذلَّ بعـــد الفقسِ   كالبـــكرِ يُعطـــى رأسَـــهُ للعكسِ[23]

ويروي صاحب الأغاني شعراً لدريد بن الصمة يشبه نفسه بالخرب[24] .

وتتخذ الحباري من سلحها الرقيق الذي تختزنه في دبرها وامعائها سلاحاً ، فهي (اذا قصدها الصقر لا تزال تعلو وتنزل مع الصقر حتى تجد فرصة فترميه بزرقها ، فيبقى الصقر مقيداً مثل المكتوف ، فعند ذلك تجتمع عليه الحباريات وتنتف ريشه وفي ذلك هلاك الصقر)[25] ، واسترعت الحباري في حالها هذه انتباه زهير ، فجعلها مدعاة للاستهزاء برجل هجاه فشبهه بالحباري ، وهو يحاول الاجتراء عليه :

يكن كالحبـــاري ان أصيبـــت فمثلها   أصيب وان تفْلِـتْ من الصقـر تسلَحِ[26]

والحبـاري تسلـح خوفـاً ، فان وصفـوا أحـد بالجبـن قالـوا : (اسلـح من الحباري)[27] .

ويلوح فزع الحباري في ناظرتيها اذا هاجمها الصقر فأخطأها ، وبها شبه أبو ذؤيب

---

(20) المصدر السابق : 66-67
(21) المصايد : 267 ، حياة الحيوان : 1/205, 206
(22) حياة الحيوان : 1-263
(23) التذكرة الحمدونية (مخطوط) : 5-345
(24) الأغاني : 10-26
(25) عجائب المخلوقات : 2-225 ، حياة الحيوان : 1-206
(26) شرح ديوان زهير : 344 . ونسب الجاحظ البيت الى قيس بن زهير ، الحيوان : 5-448
(27) مجمع الأمثال : 1-354

عيني امرأة خائفة مذعورة ، تتستر وتنظر من خلف جبل :

توقّـــى بأطـــرافِ القــــرانِ وطرفُها كطــرفِ الحُبـــاري أخطأتْهـــا الأجادلُ(28)

ويشبه الطرماح(29) وجرير(30) خصومهما بحباريات تتفادى البزاة جبناً وشراداً .

وصيد الحباري كان مألوفاً عند العرب ، لكنه ضئيل الجسم ، قليل اللحم ، وربما جرى ذكره في مجال الاستصغار والقناعة ، نستشف ذلك من بيت للفرزدق يتمنى فيه أن يعيش مع من يحبها على لحم حباري يكلف صاحباً له دربه على صيده :

وأشــــلاء لحــــمٍ من حُبــــاري يصيدُها اذا نحــــنُ شئنـــا صاحــــبٌ متألّفُ(31)

والحبالة من الوسائل التي شاعت في صيد الحباري ، فهذا الراعي النميري يتهدد خصومه قائلاً لهم : أن شتمكم لي لن يذهب هدراً لأني لست عاجزاً عن الأخذ بحقي ، كالحباري التي تقع في حبالة الصائد فلا حيلة لها سوى أن تقلب عينيها ذليلة :

حلفـــتُ لهـــم لا تحسبـــونَ شتيمتي بعينــــي حُبـــارى في حبالـــةِ مُغْربِ

رأت رجــلاً يسعــــى اليهـــا فحملقَتْ اليهِ بمأْقَـــيَ عينيهـــا المتقلّبِ(32)

وليست الحبالة هي الوسيلة الوحيدة ، وانما للجوارح حظ وافر في طرد الحبارى ، فمن طرديات للشمردل(33) وأبي نواس(34) نعلم أنهما خرجا لصيدها بالبزاة أيضاً .

3 ـ القطا

القطا طير معروف ، واحدته قطاة ، وجمعه قطوات ، وهو نوعان : الجوني ، والكدري ، وأضافوا نوعاً ثالثاً وهو الغطاط(35) .

والجوني ما كان (سود البطون ، سود بطون الأجنحة والقوادم وتسمى العتماء ،

---

(28) شرح أشعار الهذليين : 1- 160 . القران : جبل ـ توقى : تتستر .

(29) ديوان الطرماح : 36

(30) شرح ديوان جرير ، محمد اسماعيل عبد الله الصاوي : 429 (بيروت 1353 هـ) .

(31) شرح ديوان الفرزدق : 2- 555 . متألف : أي ربيناه وتألفناه وعلمناه الصيد ـ أشلاء : بقايا ، واحدها شلو .

(32) شعر الراعي : 25 . المغرب : الصائد لأنه لا يأوي الى بيته .

(33) التذكرة الحمدونية (مخطوط) : 5/ 345, 344

(34) ديوان أبي نواس : 663 , 667,666

(35) المصايد : 277 ، حياة الحيوان : 2- 220

لأنها لا تفصح بصوتها)[36]

وشبه زهير فرسه بقطاة حان وردها ، لكن اختها قد علقتها حبالة صائد ، فكان ذلك أدعى لسرعتها بدافع الفزع ، وهي جونية ترتع في أرض مستوية ، تشبه حصاة قسمه الماء بين الظامئين ، تنبت فيها البقول والحسك :

كأنهـــا من قطـــا الأجبـــابِ حانَ لها ... وردٌ وأفــردَ عنهـــا أختَهـــا الشَّبكُ
جونيةٌ كحصـــاة القســـمِ مرتَعُها ... بَالسِّي ما تنبـــت القفعـــاءُ والحسك[37]

ومن الشعراء الذين ذكروا القطا الجوني المثقب العبدي[38] ، وذو الرمة[39] .

أما القطا الكدري فهو (غبر الألوان ، رقش الظهور والبطون ، صفر الحلوق ، قصار الأذناب ، وهو ألطف من الجوني . . . والكدرية فصيحة تنادى باسمها)[40] .

ووجدنا الشاعر حميد بن ثور قد نعت قطاة وفراخها ، فهي كدراء انصرفت كي تسقي فراخها ، وهي في موضع بعكاظ اسمه شمظة ، والماء موارده بعيدة ، لكنها تناله متى شاءت لسرعتها :

كما جَبَّبـــت كدراء تسقـــي فراخَها ... بشمظـــةَ رفهاً والمياهُ شعوبُ[41]

أماالغطاط (بالفتح) فهو نوع من القطا (غبر الظهور والبطون والأبدان ، سود بطون الأجنحة ، طوال الأرجل والأعناق ، لطاف لا تجتمع أسراباً ، أكثر ما تكون ثلاثاً واثنتين ، الواحدة غطاطه)[42] وبعضهم عده ضرباً من الطير وليس من القطا[43] .

وحين بكر عبيد بن الأبرص للصيد ، فقد انطلق بفرسه قبل يقظة الغطاط :

وقــد أغتــدي قبـل الغطـاطِ وصاحبي ... أمـينُ الشَّظـا رِخْـوُ اللَّبـــانِ سَبوحُ[44]

---

(36) المصايد : 277

(37) شرح ديوان زهير : 171 . الأجباب : مواضع فيها ركايا وأحدها جب ـ السيء : ما استوى من الأرض ـ الحسك والقفعاء : نباتات .

(38) شعر المثقب العبدي : 35

(39) ديوان شعر ذي الرمة : 277

(40) المصايد : 277

(41) ديوان حميد : 53 . الرفه (بالكسر) : أقصر الورد ـ الشعوب : البعيدة .

(42) حياة الحيوان : 2-162

(43) المصايد : 277-277 ، حياة الحيوان2-162

(44) ديوان عبيد : 47 ، وورد في شعر أبي نواس أيضاً ، لاحظ ديوانه : 626

يصاد القطا بالأشراك ، فهذا مجنون بن عامر يشبه قلبه الخافق حين يسمع بحديث عن ليلاه بقطاة غرها الشرك ، وعلق الجناح ، فباتت تجاذبه ، لكنها لم تظفر بالنجاة ، لا في ليلتها ولا عند الصباح ، فبقي فرخاها في عشهما وحدهما ، تضربهما الريح بشدة :

كأنّ القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى — بليلى العامرية أو يُرَاحُ
قطاةٌ غرّها شركٌ فباتتْ — تُجاذبُهُ وقد علَق الجناحُ
لها فرخان قد غلقا بوكرٍ — فعشُّهما تصفِّقُهُ الرياحُ
فلا بالليلِ نالَتْ ما تُرجى — ولا بالصبحِ كان لها براح(45)

ومثله عروة بن حزم شبّه كبده من شدة خفقانه بخفقان قطاة علقت بجناحها :

كأنّ قطاةٌ عُلِّقَتْ بجناحِها — على كبدي من شدّةِ الخفقانِ(46)

وفي مدح جرير للحجاج شبّه اضطراب قلوب الخائفين منه باضطراب القطا وقعت في الحبائل :

وخافوكَ حتى القوم تنزو قلوبهُم — نُزاءَ القطا التفتْ عليهِ الحبائلُ(47)

أما الوسيلة الأخرى لصيد القطا فتكون بالجوارح ، اذ الصراع بينهما دام تعرض له زهير ، حيث انقض عليها صقر وحشي لم يذلل ، لونه أسود الى الحمرة ، ريشه بعضه ليس بمنتشر :

أهوى لها أسفعُ الخدين مطرِّقٌ — ريش القوادِمِ لم ينصب له الشبك(48)

ويعرض لنا أبو البيداء الأعرابي صوراً أخرى لذلك الصراع القاسي ، اذ أصاب جارح فظ قطاة كدرية ، فمزق حيزومها وأحشاءها ، وبقيت أخريات السرب يحيط بهن الموت والحزن :

فأقعَص منهن كدريَّةً — فمزَّق حيزومَها والحشا

---

(45) ديوان مجنون ليلى : 79 (جمع أبي بكر الوالبي وتحقيق جلال الدين الحلبي ، القاهرة 1939) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، ابن ناقيا البغدادي : 6 (تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ، بغداد 1968) وفي الجمان : عزها بدل غرها ، تعالجه بدل تجاذبه .

(46) شعر عروة بن حزام : 13 (تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ط1 بغداد 1961)

(47) شرح ديوان جرير : 440

(48) شرح ديوان زهير (بيروت) : 66 . مطرق : ريشه بعضه الى بعض وليس بمنتشر ـ لم ينصب له الشرك : أي أنه وحشي لم يؤخذ ولم يذلل .

فطــار وغــادر أشباهَها تطــيرُ الحتــوفُ بهــا والضنا[49]

ومن طرائف الألغاز التي أوردها صاحب المثل السائر[50] ، ما دار بين رجل من تميم وبين شريك النميري ، اذ قال الأول : ما في الجوارح أحب الي من البازي . فقال له شريك : اذا كان يصيد القطا .

فالتميمي أراد قول جرير :

أنــا البــازي المُطِــلُ على نُميْرٍ أُتِيحَ من السماءِ بهــا انصبابا[51]

وقصد شريك بيت الطرماح :

تميمٌ بطـرقِ اللـؤمِ أهــدى من القطا ولــو سلــكتْ طُرقَ المكارمِ ضلَّت[52]

4 ـ الكراكي

الكراكي جمع مفرده الكركي ، وهو طائر مائي كبير ، لونه أغبر وساقاه طويلان ، وقيل أنه الغرنيق (بفتح الغين والنون) ، وهو أيضاً ضرب من طير الماء ، لونه أسود[53] .

ولقد ورد وصف الغواص في شعر أبي ذؤيب ، الذي نفذ في الماء الكثيف ، وكان خفيف اللحم يشبه الغرنيق الذي يسبح في ماء ضحل :

أجــازَ اليْهــا لجَّــةً بعْــدَ لُجَّة أزل كَغُــرْنيقِ الضحــولِ عموجُ[54]

والكركي من طبعه التحارس ، تتناوب الجماعة ، ويهتف الحارس بصوت خفي لينذر بحراسته ، فاذا قضى نوبته يأتي آخر مكانه ، وينام الأول ، وتطير جماعة الكراكي صفا واحداً يتقدمها واحد منها ، وتكون الرئاسة بين أفراده بالتناوب أيضاً ، حتى يصير الذي كان متأخراً في مقدمة الصف ، والكر كي كالوعل يعول والديه اذا كبرا[55] .

والكر كي أحد طيور الواجب الأربعة عشر التي جعلت لرمي الفتيان واعتبروا

---

(49) الزهرة (مخطوط) : 3-134 . أقعص : أصاب ـ الحتوف : المنايا .
(50) المثل السائر ، ابن الأثير الموصلي : 2/234, 235 (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة1939)
(51) شرح ديوان جرير : 72
(52) ديوان الطرماح : 59
(53) حياة الحيوان2/157, 238
(54) شرح أشعار الهذليين : 1-134 . عموج : يعني السابح ـ اليها : الى الدرة .
(55) حياة الحيوان : 2-238

صيدها من قوانين الفتوة في العصر العباسي(56) .

وطردت الكراكي بالبزاة ، ووصف أبو نواس ذلك ، فهو ينعت بازا بأبيات ثم يخصص بالأيضاح نهمه وحرصه على صيد الكراكي ، فأنه آنس منها عشرين في موضع أسمه ذات العيص ، وكيف تخلص من محبسه المجلو وهاجمها منقضاً كالبرق ، ثم دنا من الأرض بسرعة ونال منها خيارها بأطراف مخالبه ، فذبحوا منها وأبقوا سواها ، مقصوصة الجناح مهيئة للشوي وللنقع بالخل :

آلفُ ما صدتُ من القنيص ... بكلِّ بازٍ واسعِ القميصِ
ذي بُرْنُسٍ مذهَّب رصيصِ ... وهامة ومنسرٍ حصيصِ
وجؤجؤٍ عوَّل بالدليصِ ... مُدَبَّجٍ معَّينِ الفصوصِ
على الكراكي نهمٍ حريصِ ... آنس عشرين بذاتِ العيصِ
فانسلَّ عن سكارهِ المحوصِ ... وانقضَّ يهوي كالوبيصِ
داني جناحيه الى نصيصِ ... فاعتامَ منها كل ذي خميصِ
قعَّدهُ بمخلبٍ قبوصِ ... فكم ذبحنا ثمَّ من موقوصِ
وكم لنا في البيتِ من مقوصِ ... معدَّة للشيِّ والمصوصِ(57)

ولم يظهر وصف صيد الكراكي الا في العصر العباسي وبتعبير أدق في البيئات النهرية ، وهذا لا يدعو الى العجب طالما أدركنا أن الكركي من الطيور المائية ، فاننا لا نتوقع وجوده في الجزيرة العربية حيث يعز الماء .

5 ـ المكاكي

مفرده المكاء (بضم الميم بالمد والتشديد) ، وسمي بذلك لأنه يمكو في الرياض أي يصفر(58) ، وهو من طيور البادية يتخذ العوسج أفحوصة ويبيض فيها(59) ، وقد فطن امرؤ القيس الى صوته الجميل ، استمع اليه في الجواء بنجد ، فخيل اليه أن المكاكي قد شربن

---

(56) طيور الفتوة (مجلة العربي) : 99

(57) ديوان أبي نواس: 647. الحصيص : الخالي من الشعر ـ عول : (بفتح الواو المشددة) : أدل وأعجب ـ الدليص المدبج : المنقوش ـ السكار : المحبس ـ المحوص : المجلو ـ الوبيص : البرق ـ النصيص : أقصى السير والحركة ـ القبص : الأخذ بأطراف الأصابع ـ الموقوص : المكسور العنق ـ المصوص : لحم ينقع في خل وانظر طردية أخرى في وصف وقائع الكراكي : 658

(58) حياة الحيوان : 2-286

(59) عجائب المخلوقات : 2/253, 254

في الصباح عصارة الخمر الصافية ، مضافاً اليها الفلفل :

كأنَّ مكاكيَّ الجـــواء غُديَةً صُبِحــنَ سُلافـــاً من رحيقٍ مُفلفلِ(60)

وبين المكاء والحية عداوة ، فهي تأكل بيضه ، فيحرص حينئذ على قتلها ، ويحدثنا الجاحظ عن مكاء أكلت حية بيضه فظل (يشرشر على رأسها ويدنو منها ، حتى اذا فتحت فاها تريده وهمَّت به ألقى فيه حسكة فلم يزل يلقي فيه حسكة بعد حسكة ، فأخذت بحلقها حتى ماتت)(61) ، ثم روى بيتاً أنشده أبو عمرو الشيباني للأسدي الدبيري (+) محذراً رجلاً من أن يُطمعه فيه ضعفه ، فقد يقتل المكاء حية :

ان كنـــت أبصرتنـــي فذّاً ومصطلماً فربمــا قتـــلَ المكاءُ ثعبانا(62)

واصطاده أبو نواس بيؤيؤ أسفع ، يغتر به الصائد ، فهو يرعاه ويهتم به أكثر من اهتمام أمه به حتى ليود لو أطعمه من لحمه ، وعلمه ذلك الصائد على القنص ، وأوحى له اسماً يناديه به ، وهو حريص عليه ويقيه من برد الندى بكمه ، وان هذا اليؤيؤ نازل المكاء ، وطارده حتى ظفر به ، وكم من جميل صرعه مرغماً :

قد اغتـــدى والليل في مكتمهِ بيؤيؤٍ أسفـــعَ يدعـــى باسمهِ
مقابـــلُ من خالـــهِ وعمِّه فأيُّ عرقٍ صالـــحٍ لم ينمهِ
وقـــانص أحفـــى به من أمِّه لو يستـــطيع قاتـــهُ بلحمهِ
ما زال في تقديحِـــهِ ونهمهِ يوحـــي اليه كلماتِ علمهِ
يقيه من بردِ النـــدى بكمِّهِ توقيةَ الأمِّ ابنَهـــا في ضمِّه(63)
ومـــا يلـــذ أنفهـــا من شمِّه ينـــازل المكاء عنـــد نجمهِ
بالغـــتِّ أو ينـــزل عنـــد حكمِهِ يركب أطـــرافَ الصَّـــوى بخطمهِ
وكم جميلٍ حَطَّـــه برغمهِ وقـــد سقـــاه عَلـــلاً من شمِّهِ(64)

---

(60) شرح ديوانه : 137

(61) الحيوان : 7-23

(+) الدبيري : منسوب الى دبير كزبير وهو أبو قبيلة من أسد (القاموس ـ دبر) .

(62) الحيوان : 7-23

(63) ديوانه : 669

اليؤيؤ : طائر كالباشق ـ قاته : أطعمه ـ التقديح : تضمير الفرس وغؤور العين ـ النهم : صوت التوعد والزجر .

(64) المصدر السابق : 669 . بالغت : بالكد والقهر ـ الصوى : ما غلظ وارتفع من الأرض .

6 ـ القبر

واحدته القبرة (بضم القاف وتشديد الباء المفتوحة) ، وقد تأتي باثبات النون (القنبرة) ، وهي ضرب من الطير[65] على رأسه قنزعة شبيهة بما للطاووس ، وهو شديد الاحتياط اذا وقع على شيء لا يزال ينظر يميناً وشمالاً ووراء ، ومع ذلك هي كثيرة الوقوع في الفخ)[66] .

ومن طريف المصادفات أن يقترن صيد القبرة بأول شعر قاله طرفه ، فانه خرج مع عمه وكان ابن سبع ، ونزلا على ماء ، وذهب طرفه بفخ له ، ونصبه للقنابر في موضع اسمه معمر ، وانتظر عامة يومه ، ولكنه لم يظفر بشيء فعاد الى عمه بفخه ، وشاهدا القنابر تلتقط الحب الذي نثره لها ، بعد أن رحلا عن المكان ، فقال طرفه :

يا لك من قُبَّرة بمعمرِ خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري[67]
قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تحذري ؟ ونَقِّري ما شئت أن تُنَقري
قد ذَهب الصيَّادُ عنكِ فابشري لا بُدَّ يوماً أن تصادِي فاصْبِري[68]

7 ـ الدراج

الدراج (بضم الدال وفتح الراء المشددة) ، يطلق على الذكر والأنثى ، والحيقطان يقصد به المذكر فقط ، والأنثى دراجة (بضم الدال) وهو طير باطن جناحيه أسود ، الا أن ظاهرهما أغبر ، يشبه القطا ولكنه ألطف منه ، وهو من طيور العراق ، كثير الانتاج ، ينشط في الربيع ، لأن الهواء الصافي وهبوب ريح الشمال يلائمه ، خلاف ريح الجنوب اذ تعجزه عن الطيران[69] .

وخاطب الفرزدق رجلاً كان عاملاً على سفوان ، حضر غداء الحكم ابن يزيد الأسيدي فأتوهما بدراجة ، فتناول الرجل منها وأسرع فيها ، فجفاه الحكم وعزله :

قد كان بالعِرْقِ صيد لو قَنعْت به فيه غنىً لك عن درَّاجة الحكم[70]

---

(65) حياة الحيوان : 2-208 .
(66) عجائب المخلوقات : 2-250
(67) ديوان طرفه (بيروت) : 46 . ورويت هذه الأبيات لكليب أخي المهلل ، ولذا يكون طرفه مستشهداً بها .
(68) المصدر السابق : 46 . حذفت نون (تحذري) لموافقة القافية ، لالتقاء الساكنين . وانظر : الشعر والشعراء : 188 ، حيث لم يذكر (ونقري ما شئت أن تنقري) .
(69) عجائب المخلوقات : 2-231 ، حياة الحيوان : 1-204
(70) شرح ديوان الفرزدق ، 2-847

وفي الأغاني (شربت زرقاء ابن رامين دواء فأهدى لها ابن المقفع ألف دراجة على جمل قراسى)[71] .

ويصف علي بن الجهم صيداً حضره مع طاهر بن عبد الله بن طاهر بالشاذياخ ، وكانت أيام الزعفران ، واتفق لهم مرج كثير الطير والوحش واصطادوا صيداً كثيراً ، وأقاموا يشربون على الزعفران ، وفيه ذكر لصيد الدراج بالطيور الجوارح :

وطئنا رياضَ الزعفرانِ وأمسكتْ ... علينا البزاةُ البيضُ حُمْرَ الدرّارج
ولم تحمِها الأدغال مِنَّا وانَّما ... أبحنا حماها بالكلابِ النوابجِ
بمستروحاتٍ سابحاتٍ بطونُها ... على الأرضِ أمثال السهامِ الزّوالجِ
ومستشرفاتٍ بالهوادي كأنَّها ... وما عقفَتْ منها رؤوسُ الصوالجِ
ومن دالعاتٍ ألسناً فكأنها ... لحىً من رجالٍ خاضعين كواسجِ
فلينا بها الغيطانَ فلياً كأنها ... أناملُ احدى الغانياتِ الحوالجِ
فقل لبغاةِ الصيدِ هل من مفاخرٍ ... بصيد وهل من واصف أو مخارجِ
قرنَّا بزاةً بالصقورِ وحوَّمَتْ ... شواهيننا من بعدِ صيدِ الزمامجِ[72]

---

(71) الأغاني : 15-66 . القراس (بضم القاف) : الضخم الشديد من الابل ، يقال : قراسي وقراسية ، بتخفيف الياء .

(72) ديوان علي بن الجهم : 120-121 (تحقيق خليل مردم بك ، ط1 ، دمشق1949) ، وانظر الأغاني : 10/22, 228 الشاذياخ : في ضواحي نيسابور . الدرارج : جمع دراجة ـ النوابج : كالنوابح ـ استروح الشيء : تشممه ـ سابحات : سريعات ـ الزوالج : السريعة .

الباب الثالث

وسائل الصيد

لقد لجأ العرب في صيدهم الى وسائل متعددة ، واحتالوا بها في الايقاع بطرائدهم ، وأدركوا بتجربتهم ، وخبرتهم أن لكل طريدة وسيلة تناسبها ، فكانت تلك الوسائل أنواعاً أربعة :

1 ـ الحيوان .

2 ـ الطيور .

3 ـ الأسلحة .

4 ـ الحيل .

وسأتولى في قابل كلامي بالبحث كل وسيلة على انفراد ، متوخياً تتبع ورودها في الشعر عبر العصور ، ذاكراً الشعراء الذين تصدوا لعرضها .

الفصل الأول

الحيوان

1 ـ الخيل

شغف العربي بفرسه ، فوجد فيه صديقاً حمياً ، ينجده في الشدة والرخاء ، لذا (أعز العرب الخيل ، وحدبوا عليها ، وباهوا بها . لأنهم كانوا يركبونها للصيد ، وللرياضة ، وفي الأسفار الدانية . وكانوا يمتطونها في كرهم وفرهم ، وقد عرفوا بتجربتهم الطويلة أن الخيل أنفع في المعركة من الابل ، فكانوا في طريقهم الى المعركة يركبون الأبل ، ويقودون الخيل ليريحوها ، فاذا قربوا من عدوهم نزلوا من الابل وامتطوا الخيل لأنها أكثر عوناً ، وأسرع حركة)(1) .

ومن الطريف أن يقترن دخول الخيل جزيرة العرب وانتشارها فيها باتخاذها وسيلة للصيد ، فقد ذكر ابن الكلبي أن قوماً من أزد عمان قدموا على سليمان بن داود (ع) بعد تزوجه بلقيس ، وسألوه عن أمر دينهم ودنياهم ! ولما أرادوا الانصراف سألوه زاداً يبلغهم بلادهم (فدفع اليهم فرساً من خيله ، من خيل داود قال : « هذا زادكم فاذا نزلتم فأحملوا عليه رجلاً ، وأعطوه مطرداً ، وأوروا ناركم ، فانكم لن تجمعوا حطبكم وتوروا ناركم حتى يأتيكم بالصيد »)(2) .

ووجدنا ربيعة بن مقروم يفتخر بأن له خيلاً جرداً ، شعرها قصير وذلك من دلائل

---

(1) أغاني الطبيعة : 90

(2) أنساب الخيل : 13 -14

نجابتها، يؤثرها بالطعام، ويفضلها على عياله، قد ربطت خلال البيوت يمضغن حديدة اللجام، ليشعرن بعتقهن، وراحتهن التي يوفرها لهن، اعتزازاً منه بهن :

وجـــرداً يقرِّبْـــنَ دون العيالِ خلال البيوتِ يلـــكْنَ الشكيما(3)

وفرس امرىء القيس يقيد الأوابد، سريع يلحق الوحوش النافرة، ويمكن فارسه أن يطعنها طعنة عميقة، فيتدفق منها الدم، ويضرج نحره فيبدو كالشيب المرجل الذي صبغ بالحناء :

كأنَّ دمـــاءَ الهـــادياتِ بنحرهِ عصارةُ حنَّـــاء بشيبٍ مرجَّلِ(4)

ويسترسل شاعرنا في طردية غير مستقلة، بل هي غرض من أغراض مشهورته، ليبرهن على سرعة فرسه، وليصل الى القول، أن تلك النعاج والثيران كانت تتفرق جماعات، لكنه يوالي الجري، حتى يدركهن دون اجهاد، ولما يسل عرقه، فيغسل جسمه :

فعـــادى عداءً بـــين ثورٍ ونعجة دراكاً ولـــم ينضـــجْ بمـــاء فيغسلِ

والذي يفلح فيه امرؤ القيس الى جانب اثباته سرعة فرسه، ابرازه قوة هذا الفرس، وهي ضرورية للسرعة.

ويريد سلمة بن الخرشب(5) أن يعبر عن سرعة فرسه، فأخبرنا أنها تمكنه من الحمار الوحشي النشيط، حين يخرج بها للطرد :

وتُمكننـــا اذا نحـــنُ اقتنصنا من الشَّحـــاجِ أسعَلـــهُ الجميمُ(6)

ومن مظاهر اعزازهم للخيل أيضاً سقيها لبن الابل، ولقد عبر عوف بن عطية بن الخرع عن هذا المعنى، وحين أراد أن يصف سرعتها بين أنها تلحق بحمار الوحش فلا يفلت منها :

وأعـــددْتُ للحـــربِ ملبونةً تردُّ على سائِسهـــا الحمارا(7)

---

(3) المفضليات : 1-187 ، أغاني الطبيعة : 91 . الشكيم : اللجام .

(4) شرح ديوانه : 110 . الهاديات : الطرائد ـ نحره : صدره ـ المرجل : المصفف ـ ينضج بماء فيغسل : أي أنه أدرك الطرائد قبل أن يتعب فيعرق .

(5) هو سلمة بن عمرو بن جارثة الغطفاني، ولقب أبيه الخرشب ومعناه الطويل، وهو جاهلي .

(6) الوصف في الشعر العربي : 1-129

(7) المفضليات : 2-213 ، أغاني الطبيعة96-97 . ملبونة : فرس ربيت على لبن الابل .

وعبدة بن الطبيب كذلك يذكره حصانه بالوحوش التي أفزعها من الكلأ فقد كانت كالابل المطرودة في الصباح ، وهو وقت الغارة عادة :

أفزعتْ منه وحوشاً وهيَ ساكنةٌ كأنها نعمٌ في الصبح مشلولُ(8)

أما المزرد بن ضرار الغطفاني(9) فقد هيأ للحرب فرساً ذا ظهر طويل ، عظيم الكاهل ، يصل غايته ولو جرى جرياً بعد جري ، وصوته أجش كأن صهيله من حسنه صوت مزامير الشاربين ، واذا ركب يخيل لمن يشاهده انه باز قانص ، لتوقده وسرعته وفي سيره تتابع رشيق عند القياد :

طوال القرا قد كان يذهب كاهلاً جواد المدى والعَقْب والخَلْق كاملُ
أجشُ صريحيٌّ كأنَّ صهيلَهُ مزاميرُ شرّبٍ جاوبتها الجلاجلُ
متى يُرى مركوباً يُقلْ بازُ قانصٍ وفي مَشْيِهِ عند القياد تساتلُ(10)

ويسترسل المزرد في وصف جواده ، فيشبهه وهو واقف بالخباء على مرتفع من الأرض ، أو هو كالأسد الواقف، وفرسه يخرج على الخيل، فهو أحصن شيء اذا لم يكن غير الخيل معاقل :

تقولُ اذا استقبلتَهُ وهو صائمٌ خباءٌ على نَشْزٍ أو السِّيدُ ماثلُ
خروجُ أضاميم وأحصن معقلٍ اذا لم تكن الا الجيادَ معاقلُ

ويستشعر المزرد بأن الصورة التي خط معالمها لفرسه ناقصة ، فلا بد من اتمام خطوطها بذكر قدرته على الطرد ، فهو يتبع حمر الوحش فيعقرها كما يعقر المفاخر عدداً من النياق :

مبرِّزُ غاياتٍ وان يتلُ عانةً يذرْها كذود عاثَ فيها مخايلُ(11)

ومثله الأعشى قد انطلق بفرسه في أثر أتان وحشية وحمارها ، فيدركها قبل أن يعرق ، أي من غير تعب ، وكذلك شبه فرسه بالصقر الشره الى اللحم ، وقد انصب على

---

(8) المفضليات : 2-141 ، أغاني الطبيعة : 98

(9) هو يزيد بن ضرار الغطفاني الشاعر المخضرم الفارس . لقب بالمزرد لبيت قاله يصف به زبدة :
فقلت تزردها عبيد فانني لدرد الموالي في السنين مزرد

(10) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني : 35-37 (تحقيق خليل ابراهيم العطية بغداد1962) العقب (بفتح فسكون) جري بعد جري ـ صريحي : منسوب الى فحل اسمه صريح ـ تساتل : تتابع ـ صائم : قائم .

(11) المصدر نفسه .

قطيع بقر وحش ، فتفرقت كأنها في تتابعها عقد لؤلؤ انقطع خيطه فتساقط الواحدة تلو الأخرى :

يصيدُ النَّحوصَ ومِسْحَلَهَا وجحشهُمَا قبلَ أنْ يستحمْ
ويومِ اذا ما رأيتَ الصِّوَا رَ أدبر كاللؤلؤ المنخرمْ
تدلّىً حثيثاً كأنَّ الصِّوا رَ أتبعَه أزرِقيٌ لَحِمْ[12]

ويبدو الصيد بالفرس مألوفاً عند العرب ، وبات من مظاهر الرفعة أن يسخِّر الرجل الخيل والطير في قنصه ، فوجدنا أن عدي بن زيد (قال لعبد بن لخم بن عمر بن كعب بن يزيد اللخمي)[13] شعراً ذكر فيه هاتيك الحقائق :

تقنصك الخيلُ ويصطادُك الـ ـطيرُ ولا تنكعُ لهوَ القنيص

والشاعر نفسه لم يترفع عن ممارسة الصيد ، واقتناصه أتانا طويلة الظهر فيها الحمل ، أرادها بعد أن أصاب حماراً وحشياً وترك الدم يسيل ويدمي نحره :

وتركت العيرَ يدمي نَحْرُهُ ونحوصاً سمحجاً فيها عقق[14]

وكذلك وصف الفرس شعراء آخرون ، وعدوا من فضائله ادراكه الوحش وامكانه فارسه من قتلها، منهم علقمة بن عبدة[15] ، والمرقش الأصغر[16] ، وزهير[17] ، والنمر بن تولب[18] ، وابن مقبل[19] ، والحطيئة[20] ، وعبد المسيح بن عسله[21] ، وعبد الله بن سلمة[22] .

---

(12) ديوان الأعشى : 39-41 . يستحم يعرق من كثرة الجري ـ أزرقي : صقر ـ لحم (بفتح فكسر) : قرم الى اللحم ، جوعان .
(13) ديوان عدي : 69 . النكع : الأعجال ، ونكعه عن الأمر : أعجله عنه .
(14) ديوان عدي : 149 . العقق : الحمل .
(15) شرح ديوان علقمة : 32
(16) المفضليات : 2-42
(17) شرح ديوان زهير: 255
(18) شعر النمر : 91
(19) ديوان ابن مقبل : 247
(20) ديوان الحطيئة : (388)
(21) المفضليات : 2-80
(22) المفضليات : 1-104

ولقد دأب الشعراء على تشبيه الفرس بجوارح الطير ، وأمعنوا في إبراز سرعته بتلك التشبيهات الحسية التي لم تخل من حركة وقوة ، ومن أوضح تلك المشبهات بها العقاب ، ففرس عبيد بن الأبرص كأنها لقوة كثيرة الطلب للصيد ، فهي تنقض عليه بسرعة هائلة ، وتجمع في وكرها العديد من قلوب الطير التي اقتنصتها :

كأنها لِقوةٌ طلوبُ تُخْزَنُ في وكرِها القلوبُ(23)

ويستمر في وصف تلك اللقوة ، وكيف تهيأت لصيد الثعلب ، حتى انطلاقها نحوه بقوة ، فنالت منه مأرباً .

ومثله أبو ذؤيب(24) في اتخاذ العقاب مشبهاً به ، ليصور سرعة فرسه ، وبشر بن أبي حازم(25) ، والأعشى(26) ، وسحيم(27) ، وحميد الأرقط(28) .

وربما شبهوا الخيل بكلاب الصيد ، فهي مسرعات لأنها سمعت صوت الصياد يغريها بالطريدة :

مُسرعاتٍ كأنهُنَّ ضِراءٌ سَمِعَتْ صوتَ هاتف كلَّابِ(29)

وربما شبهوا جماعات الخيل بأسراب النحل كثرة ونشاطاً ، كما فعل عمرو بن كلثوم :

كأنَّ الخيل أيمن من أباضٍ بجنبِ عُوَيْرضٍ أسراب دبرِ(30)

أما طفيل الغنوي فالخيل عنده سهلة العدو، تباري الأسنة كأنها كلاب صيد سمعت صوت القانص ، فانطلقت نحو الطريدة :

تباري مراخيها الزِّجاج كأنَّها ضراءٌ أحسَّتْ نبأةً من مكلِّب(31)

---

(23) ديوان عبيد : 28-3
(24) شرح أشعار الهذليين : / 92، 108، 142
(25) ديوان بشر : 75
(26) ديوان الأعشى : 21
(27) ديوان سحيم : 39
(28) أراجيز العرب : 23
(29) ديوان عبيد : 43
(30) شعر عمرو بن كلثوم : 596 (نشرة العلامة المستشرق فريتس كرنكو في مجلة المشرق العدد السابع بيروت 1922)
(31) ديوان طفيل : 93

ويردد ابن مقبل[32] ، وكعب بن مالك[33] المعاني نفسها مع تغيير طفيف ، يتناول بعض الألفاظ والصور ، ولا سيما في صدر البيت الذي يرد فيه التشبيه .

وفي العصر العباسي تمكن الفرس أن يستحوذ على بعض طرديات أبي نواس ، ووجد طريقه اليها من خلال العدد الكثير من وسائل الصيد ، ولذا نستطيع أن نتصور احتفاظ الخيل بمكانتها في عالم الصيد والطرد ، وهذا حدا بأبي نواس الى التبكير والصبح في المخاض ، والليل تداعبه خيوط السحر حيث النجوم لما تزل تتلألأ ، على فرس طويل الناصية ، قد مال شعره على كاهله ، يشبه في يوم الرهان جارحاً جائعاً أصابه مطر صبيب ، ثم يستمر في وصف ريشه وعينيه ، وخشية الطير وكيف تختبىء منه في الشجر متوخياً السرعة والنشاط :

قد أغتدي والصبحُ مُحْمرًّ الطررْ   والليلُ تحدوه تباشيرُ السَّحَرْ
وفي تواليهِ نجومٌ كالسرَّرْ   بسحقِ الميعةِ ميَّالِ العَذَرْ
كأنَّه يومُ الرهانِ المحتضرْ   طاوٍ غدا ينفضُ صبيانَ المَطَرْ
عن زفٍّ ملحاحٍ بعيد المنكَدَرْ   أقنى يظلُّ طيرُهُ على حَذَرْ
يلذْنَ منه تحت أفنانِ الشجرْ   من صادقِ الوَعْدِ طروح بالنظرْ
كأنما عيناهُ في وقبى حجرْ   بين مآقِ لم تخرَّقْ بالابرْ[34]

ويعاود أبو نواس وصف الفرس مرة أخرى ، ويبكر به مع الصباح كذلك ، والليل بهيم كالحبشي الذي خلع ملابسه ، وكان طويلاً ، كريم النسب ، فهو من نسل الأعوج الأصيل :

قد أغتدي والليلُ في اهابِهِ   أدعج ما جُرِّدَ من خضابِه
مدثر لم يبدُ من حجابِهِ   كالحبشي انسلَّ من ثيابه
بهيكلٍ قوبلَ في انسابِهِ   مردُّد الأعوجِ في أصلابِه[35]

ويمعن أبو نواس في وصف فرسه هذا ، ويقف عند كاهله وعنقه وحافره وقوائمه ، ثم يعلن عن انكشاف الصبح ، وانه كشر عن أنيابه :

---

(32) ديوان ابن مقبل : 16، 6
(33) ديوان كعب بن مالك الأنصاري : 179 (تحقيق سامي مكي العاني ط1 بغداد1966) .
(34) ديوان أبي نواس646-647
(35) ديوانه : 657-658 . يعني : أن فرسه أصيل في نسبه ، فأبوه أعوج الفحل المشهور ، المعروف بصفاته الجيدة .

وكثّرتْ أشداقُــهُ عن نابه عَنَّ لنــا كالــرألِ لا نرى به
ذو حُوَّة أفــردَ عن أصحابِهِ يغــرى مشــان الأرض مع سهابه

ويكثر أبو نواس من التشبيهات ، لعله يفلح في احضار صورة فرسه وتقريرها في مخيلة السامع بأسلوب حاذى به شعراء الجاهلية :

قلنــا له عرِّهِ من أسلابِهِ فلاحَ كالحاجــبِ في سحابِهِ
أو كالصــنيعِ استــلَّ من قرابِهِ فســدَّد الطــرق ومــا هاهــا بِهِ
فانصــاع كالأجــدلِ في انصبابِهِ أو كالحــريقِ في هشيمِ غابِهِ(36)
ملتهبــاً يستــنُّ في التهابِهِ كأنمَّــا البيداءُ من نهابِهِ
فحــازهُ بالرمــح في اعجابِهِ شكَّ الفتــاة الــدرَّ في أضرابِهِ(37)

ومن النصوص التي حللتها آنفاً يمكنني القول : أن الخيلَ بقيت عند العربي الوسيلة التي يهرع اليها في حربه وسلمه ، فكانت عونه على أعدائه ، وملاذه في صيده وطرده ، ومعينه في تنقله وسفره .

ولعلني وفقت في عرض الجوانب المهمة لهذا الحيوان ، التي وجدت أصداءها في شعرنا العربي ، في جاهليته وعصوره الأخرى .

2 ـ الكلاب

لقد شاطرت الكلاب العربي حياته الصعبة ، وقاست معه شظف العيش وعانت مثله ما كان يعانيه في حله وترحاله ، فألفت كل ذلك ، وفطن العربي الى وفائها ، فوكل اليها مشاركته في حماية ما يحرص عليه من حطام ، وكانت تنبهه الى أعدائه ، وتحتفي بضيفه ، وفي هذا يقول الدكتور أحمد الحوفي : (أهم مظهر للكلاب في شعرهم أنهم اتخذوا من الفها للوافدين عليهم دليلاً على كرمهم ، وتردد الضيوف على دورهم ولهذا افتخروا ومدحوا بجبنها ، وذموا أو هجوا بنباحها الوافدين)(38) ، واستشهد بقول حاتم الطائي :

---

(36) ديوانه 657 -658 حوة (بالضم) : سواد الى الخضرة أوحمرة الى السواد ـ السهاب : جمع أسهب ، وهو الفرس الشديد الصنيع : السيف الصقيل ـ هاها : زجر ـ انصاع : انفتل راجعاً .

(37) ديوانه : 658

(38) أغاني الطبيعة : 101

اذا ما بخيلُ النـــاس هرَّتْ كلابُه　　وشـقَّ على الضيفِ الضـعيفِ عقورُها
فانـي جبـانُ الكلـــب ، بيتــي موطّأً　　أجــودُ اذا ما النفس شحَّ ضميرُها
وانّ كلابـــي قد أهـــرَّتْ وعُوِّرت　　قليلٌ على من يعترينـــي هريرُها(39)

وضرى العرب كلابهم على الصيد ، وجعلوها عوناً لهم في استحصـال القـوت ، يرسلونها على الطريدة اذا يئسوا أن تنالها نبالهم ، وفي هذا يقول لبيد :

حتـــى اذا يَئِسَ الرُّمـــاةُ وأرسلوا　　غُضْفـاً دواجـــنَ قافـــلاً أعصامُها(40)

وكانت مثار اعجابهم ، وموطن أعزازهم ، وأولوها اهتماماً كبيراً ، وحرصـوا على (ابـراز خصائصهـا ، من فراهـة ونشـاط وشراسـة وحـدة في السمـع والبصر وخلـق خاص)(41) ، وحفظوا انسابها كالخيل(42) ، وأطلقوا عليها الأسماء فمنهـا زنبـاع وفـارغ اللذان وردا في شعر بشر بن أبي خازم :

فأزهـــقَ زنبـاعـــاً وأتلفَ فارغاً　　وأنفـــذَهُ منهـــا بطعنـــةِ مُخْلِسِ(43)

ومنها ضمران في شعر الذبياني :

فكان ضمـــرانُ منـــه حيثُ يوزعُه　　طعنَ المعـاركِ عنـد المحجـرِ النجدِ(44)

وواشق أيضاً :

لما رأى واشـــقُ اقعـــاصَ صاحبِهِ　　ولا سبيلَ الى عقـــلٍ ولا قودِ(45)

أما المزرد فانه أورد اسماء كلاب ستة :

سحـــام ومقـــلاء القنيصِ وسهلبٌ　　وجـــدلاءُ والسرحـــانُ والمتناولُ(46)

ولعل ذلك يصور مقدار رعاية العرب لكلابهم ، ومدى اعزازهم لها حـين ميزوا

---

(39) ديوان حاتم (دار صادر ـ دار بيروت) : 62- 63
(40) شرح ديوان لبيد (بيروت) : 226 . القفول : اليبس ـ أعصامها : بطونها .
(41) أغاني الطبيعة : 102
(42) المصائد : 131
(43) ديوان بشر : 104
(44) ديوان النابغة : 27- 28
(45) ديوان المزرد : 47
(46) شرح ديوانه : 80 ، وانظر أيضاً101 . الفغم الداجن : الكلب الألوف المعد للصيد ـ طلوب : شديد الطلب ـ نكر : داه ـ الص الضروس : ملتصق الأنياب ـ حبي الضلوع : ظاهرها ـ تبوع : حريص على تتبع آثار الصيد حتى يدركه . اشر : نهز .

بينها بالأسماء كما يميزون أبناءهم .

ومن أوائل الشعراء الذين تعرضوا لوصف الكلاب امرؤ القيس ، اذ نقل الينا صراعها مع ثور الوحش ، فثمة كلب أليف أعده للصيد ، ذو سمع حديد ، وحرص شديد على الطريدة ، أنيابه ملتصقة ببعضها ، وأضلاعه ظاهرة ، الح في تتبع الثور حتى أدركه وانشب أظفاره في نسا احدى قوائمه ، ثم استحث الشاعر رفيقه أن يتقدم نحر هذا الثور الذي أمسك به الكلب ، فيطعنه ، وينتصر للكب عليه ، ولكن الثور شد على الكلب وطعنه بقرنه ، وتركه يترنح مثل حمار دخلت النعرة في أنفه :

فيُدركنا فَغْمٌ داجنٌ سميعٌ بصيرٌ طلوبٌ نكِرْ
ألَصُّ الضُّروسِ حبيُّ الضلوعِ تبوعٌ طلوبٌ نشيطُ أشرْ
فأنشَبَ أظفاره في النَّسَا فقلتُ هبلْتَ ألا تنتصرْ
فكرَّ اليه بمبراتِهِ كما خلَّ ظهرَ اللسانِ المُجرْ
فظلَّ يرنَّحُ في غَيْطَلٍ كما يستديرُ الحمارُ النَّعِرْ[47]

ونحن عاجزون عن الادعاء أن امرؤ القيس وحده الذي فطن الى الصراع بين الطريدة وكلاب الصيد ، وأمامنا أبيات ابن أبي خازم تخبرنا بحديثه عن مباكرة ابن مرّ أو ابن سنبس بكلابه التي أرسلها ، وهو واثق بأنها ستصرع الثور ، وأدركنه ، ونلن ساقه ومزقن نساه كما يمزق صبيان ثوب راهب جاء بيت المقدس ، تبركا :

فباكرهُ عندَ الشروقِ غديَّةً كلاب ابن مر أو كلابُ ابن سُنْبسِ
فأرسلَها مستيقنَ الظنِّ انَّها ستحدسُه في الغيبِ أقربَ مَحْدِسِ

واشتهر السلوقي[48] من كلاب الصيد ، وعرفه العرب ، وذكره ابن مقبل في تشبيهه الخيل سرعة بكلاب سلوقية دعاها صاحبها :

فأنا سنبكيه بجُرْدٍ كأنَّها ضراءُ دعاها من سَلوقٍ مكلِّبُ[49]

وأورد ذكرها المزرد[50] في حديثه عن ستة من كلاب الصيد ، وأخبرنا أنها من نسل

---

(47) ديوان بشر : 103 . ويروى البيت الأول والثالث لامرىء القيس ، وانظر ديوان بشر : 121 ,51 ,56 ، بخصوص صور أخرى للصراع .

(48) سلوق : قرية باليمن ، واليها تنسب الكلاب والدروع (العمدة لابن رشيق : 2-232) .

(49) ديوان ابن مقبل : 16

(50) ديوان المزرد : 47

سلوقيين ، وذكرها أيضاً القطامي[51] والأخطل[52] ، وهذا دليل نجابتها ومهارتها في الصيد ، ومن علائم خبرته أنه (اذا عاين الظباء ، قريبة كانت أو بعيدة ، عرف المعتل وغير المعتل ، فعرف العنز من التيس)[53] .

ووجدنا العرب في الجاهلية والاسلام يؤثرون من كلاب الصيد ما كان ضارياً ، حذق الطرد ، واتقن قواعد الصيد ، وتعوده فهو حريص على ادراك الطريدة ، قد ضمره التعليم ، وطراد الوحش ، واعتبروا استرخاء آذانها من صفاتها الحميدة ، وكانوا يعمدون الى تجويعها ، كي تكون شرهة نهمة مصممة على نيل الصيد ، واخبرنا النابغة الذبياني بأن صائداً سعى لطرد ثور وحش ، ومعه كلاب مسترخية الآذان ، قد اضرَّ بها السفر الطويل ، والطرد الكثير فبرى لحمها :

يسعى بغضف براها فهي طاويةٌ طولُ ارتحال بها منه وتسيارُ[54]

وفي هذا المعنى يقول بشر بن أبي خازم :

ففاجأتْهُ ولم يرهبْ فُجاءتها غُضْفٌ نَواحِلُ في أعناقِها القِدَدُ[55]

وتكون الكلاب ، بدافع من تعليمها الصيد وتجويعها ، مصممة على نيل الطريدة ، وربما غضبت ان لم تنلها بفترة وجيزة ، وتديم النظر الى الصيد ، لتعرف من أين يثور ، فتزارق عيونها ، وذلك شعار جودتها ، وعلامة اتقانها الطرد ، يقول زهير :

زرقُ العيونِ طواها حسنُ صنعتِهِ مجوَّعاتٌ كما تطوي بها الخرقا[56]

ويتردد بعض تلك المعاني في شعر ابنه كعب فيقول :

مقعياتٍ اذا علوْن يفاعاً زرِقاتٍ عيونهُا لتُغِيرا[57]

والكلاب التي وصفها ذو الرمة زرق أيضاً ، وهي مجوَّعة يابسة ، قد هزلها وغيرها الجوع والعطش :

---

(51) ديوان القطامي : 17

(52) الأخطل (الروائع) : 17

(53) الحيوان : 2-117 ، وانظر2/ 118 ,119 في ذكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد .

(54) ديوان النابغة : 52

(55) ديوان بشر : 56

(56) شرح ديوان زهير : 47

(57) شرح ديوان كعب : 168 . اليفاع ما ارتفع من الأرض - زرقات عيونها : من الغضب

هاجَتْ له جوّعٌ زرْقٌ مُخَصَّرةٌ شوازِبُ لاحَهـا التغريثُ والجَنَبُ(58)

وفضلوا الكلاب ذات الأشداق الواسعة ، والرؤوس الدقيقة القليلة اللحم ، وما بين يديها متباعد ، فانهم عدوا ذلك اصالة في نسبها ، وعلامة من علائم نقاء عرقها ، يقول ابن أبي خازم :

معروقة الهامِ في أشداقها سعةٌ وللمرافقِ فيما بينها بَدَدُ(59)

وكلاب الصيد الجيدة عند العجاج ما كانت تفهم الاشارة ، فضلاً عن الصفير ، فقد يضطر الصياد الى اللجوء الى الاشارة ، خشية أن تفطن الوحش :

يهْمِدْنَ للأجراسِ والتشويرِ واللمعِ ان خافَ نَدَى الصَّفيرِ(60)

ولا بد أن تكون سريعة ، كيلا تفوتها الطريدة ، يقول زهير :

فصبَّحتْه كلابٌ شدُّها خَطِفٌ وقانصٌ لا ترى في فعلِه خرقَا(61)

أما ابنه كعب فينعت كلاباً عوابس ، أشداقها واسعة ، تأخرت شقوقها ، جيدة في الصيد سريعة. كأنها طافية من خفتها كالنحل تطير مع اتجاه الريح :

كالحاتٍ معا عوارضَ أشداقٍ ترى في مشقِّها تأخيرا
طافيات كأنهنَّ يعاسيب عشيّ باريْن ريحاً دَبورا(62)

ومن امارات الكلاب الجيدة عندهم إنها كثيرة الصيد حتى يرى الدم قد اصطبغت به أكتافها ، قال حميد بن ثور متحدثاً عن كلاب احدهم :

فجاءها قانصٌ يسعى بضارية ترى الدماءَ على أكتافِها نَفَصا(63)

أما الأخطل فقد أضفى خيالاً لطيفاً على الكلاب التي تسربلت بالدم بعد صراعها

---

(58) ديوان شعره : 23 . شوازب : يابسات ـ التغريب : الجوع ـ الجنب : العطش .

(59) ديوان بشر : 56 . الهام : الرؤوس ـ معروقة الهام : رؤوسها قليلة اللحم ـ البدد : في ذوات الأربع تباعد ما بين اليدين .

(60) أراجيز العرب : 93 . يهمدن : يسرعن ـ اللمع : الاشارة .

(61) شرح ديوان زهير : 46 . خطف : سريع ـ الخرق والنزق والعجلة سواء وهي العجرفة ـ شدها : عدوها .

(62) شرح ديوان زهير : 168 -169

(63) ديوان حميد : 101 . النفص : نضح الدم القليل .

مع الطريدة ، اذ وصفهن يصطلين ناراً ملتهبة ، ومعروف أن ذلك يلون الجالس عند الموقد بالأحمر .

كأنهـــنَّ وقـــد سرُبلْنَ من عَلَقٍ يَغْشَـينْ موقـد نارٍ تقـــذفُ الشعلا (64)

وفي مناسبة أخرى يحدثنا الأخطل عن كلاب سلوقية ، مسترخية آذانها ، تندفع خلف الطريدة ، يشليها صياد من جديلة أو ثعل ، وهؤلاء كانوا يسقون كلابهم من دماء الصيد ، فتعودت ذلك ، فكأنها تشرب العسل ، فصار ذلك ادعى لحرصها ونشاطها :

مكلِّبـــين اذا اصطـــادوا كأنَّهم يسقـــون بدمـــاءِ الأُبَّـــدِ العَسَلا (65)

ومن علائم كلاب الصيد أن يقدوا لها سيراً من الجلد ، ويضعوه في اعناقها ، وربما كان ذلك السير من جلد فرائسها، ويبدو هذا من مظاهر أعزازهم لها ، وتمييزها عن سواها، وأشار الى ذلك ابن أبي خازم :

ففاجأتـــه ولـــم يرهـــبْ فجاءتها غُضْفٌ نواحـــلُ في أعناقِهـــا القددُ (66)

ونوه بهذا الأخطل أيضاً ، واصفاً صياداً ملابسه رثة ، يسعى للصيد وحوله كلاب مسترخية الأذان ، ناحلة هزيلة ، في أعناقها القلائد :

من مُخلـــقِ الأطمارِ يسعـــى حولَهُ غُضْفٌ ذوابـــلُ في القلائـــدِ ضُمَّرُ (67)

أما العباسيون فنجد أبا نواس أكثر الشعراء اهتماماً بالكلب ، فقد فضله ـ كما يتراءى لنا ـ على باقي وسائل الصيد ، (وقد أطنب في وصف الكلب وكان أحياناً يشغل معظم الطريدة بوصف الكلب ، وأحياناً يصفِ الفريسة المطاردة)(68) .

ومن طرديات أبي نواس في الكلب نستطيع أن نلم بالصفات المرغوبة فيه ، فيحمد أن يكون الكلب أغر محجل الزند ، شدقاه متأخران ، وخداه طويلان ، سريعاً ، عبثاً تحاول الظباء الفرار منه :

---

(64) الأخطل (الروائع) : 18
(65) المصدر السابق : 17
(66) ديوان بشر : 56
(67) الأخطل (الروائع) : 26
(68) الوصف في الشعر العباسي حتى دخول السلاجقة بغداد ، أحمد أمين مصطفى : 50 (رونيو ، رسالة باشراف الدكتور أحمد الحوفي نوقشت في16 -2-1969 ومنح واضعها درجة الماجستير) .

ذا غرّة محجّلاً بزندِهِ   تلذّ منه العينُ حسن قَدِّهِ
تأخير شدقيهِ وطول خدِّهِ   تلقى الظباءُ عنتاً من طردِه(69)

ولسرعته ونشاطه يدرك الطريدة وان كانت على العيوق فيشفى غليل الصائد :

اذا عدا عدوّة لا معوق   يلعب بين السهل والخروقِ
يشفى في الطردِ جوى المشوقِ   فالوحشُ لو مرّتْ على العيوقِ
أنزلها دامية الحلوقِ   ....(70)

أذناه غضفاوان ، ينطلق نحو الطريدة كالصقر ينقض على القطا :

وانصاع يتلوه على قِطاطهِ   أغضفُ لا ييأسُ من خِلاطِهِ
يصيدُ بعد البعدِ وانبساطهِ   ان لم يبتّ القلب في انتياطهِ
فلم يزلْ يأخذ في لطاطهِ   كالصقرِ ينقضُّ على غطاطهِ(71)

ولسرعته خدشت رجلاه في آباطه ، ومن نشاطه خرم أذنيه :

لشدة الجريِ ولاستحطاطهِ   ما ان تمسُّ الأرضُ في أشواطه
قد خدشت رجلاه في آباطِهِ   وخرّم الأذنينَ بانتشاطِهِ(72)

والطرديات التي استهلها أبو نواس بقوله « أنعت كلباً . . . . » متعددة في ديوانه(73) ، وبلغ شغف أبي نواس بكلابه أن قال عن أحدها :

نعم الخليلُ والأخ المواسي   من غير ما بيعٍ ولا مكّاسِ(74)

ولقد استحوذ الحزن على أبي نواس حين لسعت حية كلبه فمات اذ رثاه بأبيات مطلعها :

يا بؤسَ كلبي سيّدَ الكلاب   قد كان أغناني عن العُقابِ(75)

---

(69) ديوانه : 624
(70) ديوانه 625
(71) ديوانه 626
(72) ديوانه : 624، 625، 626، 642
(73) ديوان أبي نواس : 624 -625
(74) المصدر السابق : 633
(75) ديوانه : 643

ومرة أخرى نجد كلب أبي نواس ذا تبعات ، يسعى في رزق أهله ليكسب لهم قوتهم ، وحظهم مرهون بسعيه واجتهاده ، فأفضاله استعبدت صاحبه :

أنعتُ كلباً أهلُهُ من كده قد سَعَدتْ جدودُهم بجدِّهِ
وكلُّ خيرٍ عندهم من عندِهِ يظلُّ مولاه له كَعَبْدِهِ(76)

وهو نحيف ، بارع الجمال ، لا يسبقه كلب آخر ، جاءت به الملوك من سلوق ، ذو نشاط خارق ، يعدو متنقلاً بخفة في الأرض الواسعة ، يحقق آمال صاحبه ، يدرك الفريسة ولو كانت مرتفعة على العيوق ، فأنه ينزلها وحلوقها دامية ، ويعد عمله هذا واجباً ، فرزقه حق يصيبه كل صياد :

أنعت كلباً ليس بالمسبوقِ مطهَّماً يجري على العُروقِ
جاءتْ به الأملاكُ من سَلوقِ كأنّه في المقودِ الممشوقِ
اذا عدَا عدوة لا معوق يلعب بين السَّهل والخروقِ
يشفي من الطَّرْدِ جوى المشوقِ فالوحشُ لو مرَّتْ على العيوقِ
أنزلها داميةَ الحلوقِ ذاك عليهِ أوجبُ الحقوقِ
لكل صيَّاد بهِ مرزوقِ(77)

ومن محامد الكلاب ان تتعلم قواعد الصيد ، من ايماء وصفير وما يصدر عن الكف من الايماء والاشارة ، مع بلوغها الأشهر الستة من عمرها :

حتى توفَّ الستة الشهورا من سنِّه أو بلَغ الشفورا
وعرف الايماء والصفيرا والكفَّ أن تومىء أو تشيرا(78)

واشتهر من ألوانها الأبيض الناصع ، والأصفر :

من أصفر اللون ومبيضٍ يَقِقْ كأنما أذناه من بعض المزق(79)

أو تكون في لونه غبرة للسواد :

---

(76) ديوانه : 624

(77) ديوان أبي نواس : 624-625

(78) المصدر السابق : 633

(79) المصدر السابق : 638

يقـــود كلبـــاً للطـــرادِ أطلسا لم يلف عن فريســـة تحوّسا(80)

والكلب في شعر أبي نواس ذو نسب ، فالعم والخال من أرومة طيبة ذات سيادة :

بأغضف غذّى بحســـنِ حالِ مســـوَّدُ العُـــمِ ، حسيبُ الخالِ(81)

وصاد بالكلاب الظباء :

.... تلقـــى الظبـــاء عَنَتـــاً من طردهِ(82)

.... فأدرك الظبـــي ولـــم يُباطهِ(83)

فسمونـــا للحـــزيز به فدفعنـــاه على أُظُبِ(84)

لا يمهـــل الظبـــي على أقدارهِ حتـــى يرى بـــين شَبَـــا أظْفَارِهِ(85)

وصاد أيضاً بالكلاب ثور الـوحش(86) ، والأرانـب(87) ، والثعالـب(88) وكل تلك الطرائد يتسلط عليها كلب أبي نواس كالحاكم الظلوم ، فيحطم عظامها ، ويمزق لحمها مثل خياط يشقق الحرير السابري أو القبطي ، يتم هذا لحظات يحتدم الصراع ، ويمتزج الغبار بالدم :

يلقـــين منـــه حاكماً مشتطًا للعظـــم والأديم عبطا

فرى الصنـــاعِ سابـــرا أو قبطا اذا النجيعُ بالغبـــارِ اشمطا(89)

أما الشاعر أحمد بن زياد بن أبي كريمة فآثـر أن يلتـزم القصيد في وصفـه لكلاب الصيد ، فهي سريعة كأنها القداح ، قد مزقت مخالبها اذانها :

---

(80) المصدر السابق : 644 . أطلس : في لونه غبرة للسواد ـ التحوس : الاقامة .

(81) ديوانه 646

(82) ديوانه 624

(83) ديوانه : 626

(84) ديوانه : 632

(85) ديوانه : 638 ، وانظر أيضاً . 640 ,641 ,346

(86) ديوانه : 625

(87) ديوانه : 633 ,634

(88) ديوانه : 628 . المشتط : الظالم ـ العبط : الشق ـ السابر : الثوب الرقيق الجيد ـ القبط (بالضم) : الثياب القبطية ـ أشمط : اختلط .

(89) الحيوان : 2 -368 ,369 . تجنيب : قيادة ـ الخبت : البطن الواسع من الأرض ـ الكذان (بالفتح) : حجارة فيها رخاوة ـ نار الحباحب : الشرر الذي يحدث من تصادم الحجارة .

بتجنيبُ غضْفِ كالقِـــداحِ لطيفة مشرَّطـــةٍ آذانهـــا بالمخالب

وهي اذا انطلقت في الأرض الواسعة تثير العجاج ، أما اذا اجتازت الكذان فأنها توريها وتحدث فيها شرراً متطايراً ، وهي أسرع من لمح البصر كأنها السهام أو الرجوم ، وقد أهزلها طرادها للوحوش في الفلوات المترامية الأطراف ، القفرة المسالك ، تكاد تخرج من قلائدها لولا أن تعيقها مناكبها العراض :

اذا افترشـــتْ خبتـــاً أثـــارت بمتنهِ عجاجـــاً وبالـــكذَّان نارَ الحباحبِ
يفــوتُ خطاهــا الطـــرف سبقـــاً كأنهَّا سهـــامُ فعـــالٍ أو رجـــومُ الكواكبِ
طراد الهـــوادي لاحهـــا كلّ شتوة بطامســـةِ الأرجـــاءِ مَرْتَ المسارب
تكاد من الأحـــراج تنســـلُ كلّها رأت شيخـــاً لولا اعتـــراضُ المناكب(90)

شمها قوي فهي تتبع الوحش في مرابضها وانفاقها ، وفي كل مرتفع وفلاة كأن أنين المكاكي وصرير الجنادب يفزعها ، فيطير لبها ، وتهرع الى الوحش بسرعة خارقة :

تســـوق وتـــوفي كل نشـــزِ وفدفدِ مِرابضَ أبنـــاءِ النفـــاقِ الأرانبِ
كأنَّ بهـــا ذعـــراً يُطـــير قلوبها أنـــينُ المكاكي أو صريرُ الجنادبِ

ومن المعاني التي ألفيناها في شعر ابن أبي كريمة ، وفي أراجيز أبي نواس ، ان تلك الكلاب اذا سمعت صوتاً ، ولو كان خفياً ، من وحش تنشط في انطلاقها نحوه ، تكاد أن تشقق جلودها سرعة وحرصاً على بلوغه :

يقول أبو نواس :

تراه في الحُضر اذا هاهـــا بهِ يكادُ أن يخـــرجَ من أهابهِ(91)

وعند ابن أبي كريمة :

تكاد تغـــري الأهْـــبُ عنهـــا اذا انتحت لنبأةِ شَخْـــتِ الجِـــرْمِ عاري الرواجب(92)

وتذكرنا هذه الصور بيت لذي الرمة :

لا يذخـــران من الأبغـــالِ باقيةً حتـــى تكادَ تفـــرّي عنهما الأهب(93)

---

(90) الحيوان : 2-369 . مرت المسارب : قفرة المسالك ـ الأحراج : قلائد الكلاب واحدها حرج (بالكسر) .
(91) ديوانه : 631 . الحضر (بالضم) : شدة العدو ـ هاها به : زجره .
(92) الحيوان : 2-370
(93) الحيوان : 2-370 انظر هامش المحقق .

ولقد لاحظنا أن شعراء العرب على اختلاف في عصورهم وبيئاتهم مكثوا يتطلعون الى كثير من الصفات في كلاب الصيد ، وان كان ثمة اختلاف بينهم فانه في الألفاظ والتعابير وسبل عرض المعاني والصور .

3 ـ الفهود

الفهود من الحيوانات التي اتخذت وسيلة للصيد ، وقنصت بها الظباء ، وأحيانا بقر الوحش ، وللفهد (ضروب من الصيد : منها المكابرة وهي لفظة يستعملها الفهادون يريدون بها المواجهة ، والدسيس ، والمجانبة)(94) . وقد بسط صاحب البيزرة صفة ضراءته ، منذ أخذه وحشياً حتى يصير كاسباً يمسك على صاحبه الطرائد(95) .

وقيل في حسن قنصه أنه (يرسل على بعد من الطريدة بعد أن يتشوفها ويتلطف لارساله من غير قلق ، فتراه يمر مثل عناق الأرض رافعاً يداً وواضعاً أخرى ، على وزن وقدر متناسب ، ما دامت الظباء ناكسة رؤوسها ترتعي ، فاذا شالتها فخاف منها التنبه عليه امسك على الصورة التي تنتهي به الحال اليها ، لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يرفع الموضوعة ولا يضع المرفوعة ، فاذا طأطأت رؤوسها سلك سبيله الأولى)(96) .

ونوم الفهد يضرب به المثل ، فقيل (أنوم من الفهد)(97) وفي هذا المعنى ورد هذان البيتان :

رقدت مَقلتي وقلبي يقظا ... ن يجسُّ الأمورَ جساً شديدا
يُحْمَدُ النومُ في الجوادِ كما لا ... يمنع الفهدَ نومهُ أن يصيدا(98)

ويقول الجاحظ : (وقد يصاد بضروب ، منها الصوت الحسن ، فأنه يصغي اليه اصغاء حسناً ، واذا اصطادوا المسن كان أنفع لأهله من الجرو الذي يربونه ، لأن الجرو يخرج خبا ، ويخرج المسن على التأديب صيودا غير حب ولا مواكل في صيده)(99) .

---

(94) المصايد : 183 . المكابرة : ان يلقي الصائد السرب به مكافحة فحيث ذهب الظبي قابله بالفهد حتى يدنو فيلقيه عليه مقابلا له ، وهذا صيد الملوك وفيه تعسف شديد ـ الدسيس : أن ينزل الفهد من الدابة بعد أن يتشوف الظباء ويدب اليها متخفياً جهده وينتهز الفرصة فيوقع بها ـ المذانبة : أن تمتد الظباء ويأتي في أثرها وأذنابها فيلقي الفهد عليها .

(95) البيزرة : 118 -119

(96) المصايد : 186 ، البيزرة : 121

(97) مجمع الأمثال : 2-355

(98) المصايد : 185 ، البيزرة : 120

(99) الحيوان : 6-471 . الخب (بالفتح) أو (الكسر) : الخداع الخبيث .

وذكروا أن (أول من صاد به كليب وائل ، وقيل همام بن وبرة ذو اللهو والطرب ، وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية ، وأكثر من اشتهر به أبو مسلم الخراساني ، وولع به المعتصم)(100) .

وأول شاعر وصف الفهود في الصيد هو أبو نجم الراجز ، ولم تمدني المصادر بشعر تمخض لوصف الصيد بالفهد قبله ، فلقد روى الأصفهاني (أن عبد الملك بن بشر بن مروان) قال لأبي النجم صف لي فهودي هذه فقال :

أنا نزلنا خيرَ منزلاتِ بين الحمْيرات المباركاتِ
في لحمِ وحشٍ وحُبارياتِ وان أردنا الصيدَ ذا اللذاتِ
جاء مطيعاً لمطاوعاتِ علِّمْن أو قد كن عالماتِ
فَسكِّنْ الطرف بمطرفاتِ تُريكَ آماقاً مخططاتِ(101)

ولقد اختاروا للصيد بالفهود الخروج مبكرين :

قد أسبقُ الآذانَ بالتغليسِ قبل غناءِ القسّ والناقوس(102)

وقال أبو نواس في مطلع أرجوزة يصف بها الصيد بالفهد :

قد أغتدي والليلُ أحوى السُّدِّ والصبحُ في الظلماءِ ذو تقدّ(103)

ويؤيد ذلك قول الرقاشي :

لما غدا للصيد آلُ جعفرِ رهطُ رسولِ اللهِ أهلِ المَفْخرِ(104)

وفضلوا من صفات الفهد كونه واسع الشدقين ، مكتنز اللحم ، قوي البنيان ، غليظ الكفين والرجلين ، ينطلق بسرعة كالأسد ، لونه منقط بنقاط :

قد أغتدي والليلُ أحوى السدِّ والصبحُ في الظلماءِ ذو تقدِّي
مثل اهتزازِ العَضْب ذي الفِرندِ باهرتِ الشدقين مُرْمئد

---

(100) مناهج السرور (مخطوط) ورقة : 65

(101) الأغاني : 10 -160

(102) المصايد : 187 . لم ينسبه لقائل .

(103) ديوان أبي نواس : 662 ـ ورواها الجاحظ للرقاشي ، انظر الحيوان6-472 وفي نفس المعنى أنظر ديوان أبي نواس أيضاً : 649

(104) الحيوان : 6 -475ن

أزيرَ مضبـــور القـــرا عِلكَدٍ طاوى الحَشـــا في طيٍّ جســـمٍ معد
كرْهِ الرَّواجَـــمِ غُضـــونِ الخدِّ دُلامـــزٍ ذي نكفٍ مسْوَدِّ
شرّنبتٍ أغلبَ مُصْمَعِدِ
كالليثِ الآنُمـــرة بالجلد للشبـــح الحائـــل مستعدِّ(105)

ويروي الجاحظ أبياتاً للرقاشي في وصف فهده ، نجد فيها الصور والمعاني ذاتها ، تلك التي اتحفنا بها أبو نواس ، والغريب أن تقتصر أبيات الرقاشي على عرض صفات الفهدة دون التطرق الى اطرادها وصراعها مع الطرائد ، وقد يكون الجاحظ مجتزئاً اياها من طردية للرقاشي ، كانت طويلة ، الا أنه أبعد الشعر الذي ينقل ذلك الصراع والطرد ، لذا بدت الأرجوزة خالية من غرضها الأساس)(106) .

ويروي الجاحظ أيضاً أبياتاً من القصيد يصف الشاعر أحمد بن زياد بن أبي كريمة بها الفهود ، اثر تعرضه لوصف الصيد بالكلاب ، فهي ضامرة الاعجاز صغيرتها ، ولكن صدورها عظيمة :

بذلك نبغـــي الصيدَ طورا وتارةً بمخطفةِ الأكفـالِ رُحْـــب الترائب(107)

ويسترسل في تقصي ألوانها وأعضائها ، مشبهاً اياها بألسنة اللهيب في ظلمة الليل ، جباهها عريضة ، وملامحها متجهمة ، وأشداقها واضحة كأنها خط كاتب ، قد نصبت آذاناً كالمداهن تسترق بها السمع ، لها مخالب تكاد أن تنشب في الصخر على صلابته ، فهي حادة دون أن يشحذها حداد ، معكوفة كأصداغ العذارى الجميلات :

مرققـــةِ الأذنـــابِ نُمْـــرٍ ظهورها مخطَّطـــة الآمـــاق غُلْـــب الغوَاربِ
مدنَّـــرةِ وُرْقٍ كان عيونها حواجـــلُ تستدمـــي متـــونَ الرواكب
اذا قلَّبتُهـــا في الفجـــاجِ حسبتها سّنـــا ضرم في ظلمـــةِ الليْلِ ثاقبِ

---

(105) تقدى : يريد أن الصبح ينبثق في الليل ويسير فيه ـ المرمئد : الماضي الجاد ـ الأزبر : الأقوى ـ مضبور القرا : المضبور : المكتنز اللحم والقرا : الظهر ـ علكد (بكسر فسكون وفتح وتشديد) : ضخم ـ جسم معد : غليظ ضخم ـ دلامز : قوي ـ النكف غدد صغار في أصل اللحى ـ الشرنبث : الغليظ الكفيف والرجلين ـ الصمعد : المنطلق انطلاقاً سريعاً والأسد أيضاً ـ النمرة : النكتة في أي لون كانت.

(106) الحيوان : 6-475

(107) الحيوان : 2-371 . يلاحظ أن أحمد بن أبي كريمة شاعر عاش بعد أبي نواس ، وأوردنا قصيدته لنقف على تأثير أبي نواس في الشعراء الذين جاءوا بعده .

مولَّعــــة فطـــحِ الجبــاهِ عوابسٍ تخـــال على أشداقِهـــا خطُ كاتبِ
نواصـــب آذانٍ لطـــاف فكأنهَّا مَداهـــنُ للأجـــراس من كل جانبِ
ذوات أشـــافِ ركَبـــتْ في اكفِّها نوافـــذَ في صُمِّ الصُّخـــورِ نواشبِ
ذِراب بلا ترهيفِ قـــينٍ كأنهَّا تعقـــربُ أصـــداغِ الملاحِ الكواعبِ(108)

ويذكر كشاجم طردية نسبها الى عبد الصمد بن المعذل في وصف الفهد قال : ان معانيها مسروقة من أحمد بن زياد بن أبي كريمة(109) .

ونرى أبا نواس يدفعه حبه للفهد وشوقه للصيد به الى أن ينادي فهاده بتودد ، مظهراً له رغبته في أن يرد الفهد ، فيعود به محمولاً على الفرس لونه بين الصفرة والسمرة :

ناديت فهـــادي برد فهدِه نداء من جادَ له بودّه
فجـــاء يزجيه على سمندِه أصفـــر أحـــوى بَـــينْ بَـــينْ وردهِ(110)

فكان الفهد كامل القدر لا يشبهه سواه ، فأمر أبو نواس الفهاد أن يطلقه ، فاذا به يظفر بقطيع من بقر الوحش ، أدركها آمنة مطمئنة عند موردها ، تشرب الماء على مهل ، بل تحسوه حسوا ، فانطلق نحوها كالعفريت ، وبات أصحابه ضيوف حسامى غمده :

واحـــد قدٍّ في اكمـــلالِ قَدِّهِ قلـــت ارتدفْـــه فانثنـــى لزَنْدِه
ما كان الا نظـــرة من بعدهِ ونظـــرة اخـــرى بأدنـــى جهدهِ
حتـــى أرانـــا العـــين دون وردهِ مطـــرداً يحســـو بشَفْـــري عِدِّه
فانصـــاعَ مرقَّـــدا على مرقَدِه كأنَّـــه حـــين انفـــرى في شدِّهِ
وامتـــدّ للناظـــر في مرتدِّه كوكبُ عفـــريتٍ هوى لعدِّهِ
كما انطـــوى العاقـــدُ من ذي عقْدِهِ خمســـين عامـــاً بيدي معتدِهِ
حتـــى احتـــوى العـــين ولما يُرْدِهِ فنحـــنُ أضْياف حسامـــى غمدِهِ(111)

---

(108) الحيوان : 2-371, 372 . نمر (ضم فسكون) : جمع أنمر وهو الذي فيه نمر أي نكت بيضاء وسوداء - غب الغوارب : غلاظ ما بين العنق والظهر . مدنرة : أي بها نكت كأنها الدنانير - حواجل : القوارير الواسعة الرؤوس - تستدمي : تتبع .

(109) المصايد : 190 -192

(110) ديوان أبي نواس : 649 . اكملال قده : كمال وتمامه .

(111) ديوانه : 649- 650 . العين : بقر الوحش - يحسو : يشرب شيئاً بعد شيء - الشفر (بالضم) : ناحية كل شيء - العد (بكسر ثم تشديد) : الماء الجاري الذي لا ينقطع - مرقّدا : مسرعاً .

ويحدثنا أبو نواس ثانية عن فهده الذي أطلقه ، فعاين من بعيد سربين قد ظهرا ، فأنساب نحوهما ، يختلهما ببطء وتأن كأنه حية نشيطة تقطع المرتفع ، وحين اقترب منهما كانا في أرض مستوية فيهاجمها مباغتاً ، وعاث فيهما فساد بعد شيء من الطمع والمنع ، ثم يختم الشاعر طرديته معلناً أن كل الخير في صيد الفهد ، ولا خير في صيد سواه :

عاينَ بعد النظرِ الممتدً سر بين عنًا بجبين صلدِ
فانفض يأدو غير مجرهِدً في لهب عنه وختل أدِ
مثل انسياب الحيةِ العِرْبدً بكل نشزٍ وبكلً وَهْدِ
حتى اذا كان لها في القصدِ صعصعها بالصحصحانِ الجرْدِ
وعاثَ فيها بفريغ الشدّ بعد شريجيْ طمعٍ وحردِ
لا خير في الصيد بغير فهدِ(112)

وصفوة القول أن أبيات أبي نجم الراجز ، على سلاستها وايجازها تعد محاولة أولى في وصف الفهود ، أما أبو نواس فكان في هاتيك الأبيات يجوس بنا مسالك وعرة ، ربما لا نستطيع فهم معانيها قبل أن نلوذ بأحد معاجم اللغة ، وربما لا ندرك بغيتنا قبل بذلنا الجهد الكبير ، وهذا ديدنه في طردياته ، فكأنه اتخذها ميدانا يظهر فيه مقدرته الشعرية ، ويعرض ثروته اللغوية ، وحسن ائتلافه الألفاظ ، ليستولدها ما يريد من معان وصور .

ومع ذلك استطيع أن أزعم في ضوء ما أسعفتني الظروف به من مصادر أن العصر العباسي شهد اهتماماً ملحوظاً بهذا النوع من وسائل الصيد ، فلقد كان أبو نواس فارس الميدان ، وجاء بعده الرقاشي وابن أبي كريمة ، وعبد الصمد بن المعذل ، ثم حذا ابن المعتز حذوهم ، متخذاً من معاني أبي نواس ومبادراته معيناً يغترف منه معانيه وصوره ، مما يحملني على الاعتقاد بأن هذا العصر قد شهد انتشار الطرد بهذا الحيوان .

4 ـ عناق الأرض

عناق الأرض ، وله اسم آخر هو التفة ، (دابة نحو الكلب الصغير تصيد صيداً حسناً ، وربما واثب الانسان فعقره ، وهو أحسن صيداً من الكلب)(113) وخصص

---

(112) ديوانه : 662-663 ـ يأدو : يختل ـ مجرهد : أجرهد أسرع وامتد وطال فهو مجرهد ـ الأد : الأمر الفظيع المنكر ـ الصحصحان : الأرض المستوية .

(113) الحيوان : 6-352

كشاجم صيدها بالكركي وما شابهه من الطير(114) ، ويروي طردية لشاعر لم يسمه يصف فيها صيد عناق الأرض للكركي ، فنهضه بطيء ، لكنه سريع الطيران والهبوط :

يا رب كركي بطـــيء النهضِ مشتعـــل المطـــارِ والمنقضِّ(115)

ثم يشبه سرب الكراكي بعقد لؤلؤ تناثرت حباته ، يحرس بعضها بعضاً بعين لا تعرف الغمض ، اذ يمنعها خوفها من الردى أن تنام ، استطاع عناق الأرض الداهية أن يسلط عليه العذاب ، فهو كثير الصيد ، وفعله مشهور :

سربـــاً كعقـــد اللؤلـــؤ المرفضِ بمُقْلَـــة هاجـــرة للغمضِ
يمنعهـــا خوف الـــردى أن تُغْضي صبـــت عليه بعـــذابِ محضِ
داهية لا تشتـــكي بالحضِّ مقامهـــا في الصيد غـــير دحضِ

لها ناب قتال ولا سيما اذا عضت الطريدة ، وهي تثب بعد أن تختفي رابضة مدة طويلة في مكان لا يفطن اليه أحد ، فهي أخفى من نبض العرق الضعيف ، وهي عنيفة في طردها ، تحطم العظام تحطياً ؛ وتنزع الجلد نزعا ، وبعد أن تستولي على فريستها تقضي عليها ، فضحاياها كثيرة ؛ لذا جعلت أصحابها في عيش رضى ، فلحوم الطير كثيرة ، منها المملح ومنها الطري ، وهي مورد للقوت لا ينضب ، فلا صيد الا بعناق الأرض :

أقتـــل شيءٍ نابهـــا بالعضّ ساخطـــة عليه سخطـــاً يرضى
وثّابـــة من بعـــد طولِ ربض أخفـــى من العـــرقِ الخفـــيِّ النبضِ
ماضية كأنهـــا لا تمضي ترض عظـــم الهـــام أي رضٍّ
وتنفض الأهـــاب أي نفضِ حتـــى اذا أمكنهـــا أن تقضي
قضـــت على حوبائـــه أن تقضي فنحـــنُ من غارتهـــا في خفضِ
ولحـــم طـــير مالـــح وغضٍّ قامـــت لنـــا مقـــام مال نضٍّ
لا صيْدَ الا بعناق الأرض(116)

ويورد كشاجم طردية أخرى في صيد عناق الأرض ينسبها للناشيء(117) تقع في خمسة

(114) المصايد : 220

(115) المصايد : 220

(116) المصائد : 225 . المرفض : العقد تناثرت حباته ـ غير دحض معترف به ، لا يمكن دحضه أي نكرانه .

(117) هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء الأكبر المعروف بابن شيرشير ، ولد في الأنبار وأقام مدة في بغداد ثم خرج الى مصر وأقام فيها الى أن توفي سنة293 هـ ـ906 م ، وهو شاعر مكثر في طبقة ابن الرومي والبحتري ، له أشعار في الخمر والغزل وأشعار كثيرة في الصيد والاته وفي الطرد على مثال طرديات أبي نواس .

عشر بيتاً ، يشغل وصف أعضاء عناق الأرض ولونه وطبعه في الصيد أحد عشر بيتاً منها ، أما الأبيات الأربعة الأخيرة فخصصها الصيد بعناق الأرض ، ولكنه أغفل نوع الطريدة(118) .

وذكروا حيوانات أخرى أدعوا أنها اتخذت وسيلة للصيد ، لكن المصادر التي أطلعت عليها لم تسعفني بشعر يؤيد ذلك ، ومن تلك الحيوانات النمر(119) ، والقط الذى قال عنه محمد المنكلي : (وهو من جملة الضواري وأول من تصيد به بنو خفاجة ، وطبع القط في حركاته كلها طبع الفهد . . وهو يصيد الطيور مثل الدراج والطيهوج)(120) .

أما الابل فانها كانت تتخذ درية في مخاتلة الظباء وصيدها ، وربما طردوا بها نادراً ، فقد نقل ابن قتيبة قول رجل من أهل اليمن عن ناقته : (. . . وأصيد عليها الوحش)(121) وهذا عندي من الشواذ فلا يعتد به .

---

(118) المصايد : 225-226

(119) مناهج السرور (مخطوط) ورقة : 66

(120) أنس الملا بوحش الفلا : 80 . الطيهوج (بفتح الطاء) : طائر يشبه الحجل الصغير .

(121) عيون الأخبار (كتاب الحرب) : 57

الفصل الثاني

الطيور

لم يكتف العرب بالحيوان وسيلة للصيد ، وانما وجدناهم قد اتخذوا جوارح الطير وعلموها الطرد ، ونحن اذا لمحنا بشيء من الشعر الجاهلي نجد أنهم تنبهوا الى تلك الكواسر ، ووصفوا صراعها مع الأرانب والثعالب والظباء وغيرها ، واذا ما تركنا العصر الجاهلي نجد أن الشعراء في العصر الأموي والعباسي قد جعلوها محوراً لبعض طردياتهم ، فهي معلمة على القنص ، تمسكه لصاحبها ، وسنتطرق الى ذكر أهم الطيور الجوارح التي تردد صداها في شعرنا العربي .

1 ـ العقبان

نرى أمرأ القيس المعجب بفرسه يشبهه بعقاب قد لاح لها في أرض قفرة ذئب ، وكانت تشرف عليه ، لأنها اتخذت لها مرقبة في قمة جبل عال ، وعندما قربت منه ، وصارت فوقه انصبت عليه من علو شاهق كأنها دلو مملوءة تقطعت أسبابها فانهارت بكل ثقل وقوة ، وكأن العقاب الشقاء قد حل بالذئب :

كأنهَّا حين فاض الماءُ واحتفلتْ ... صَقْعَاءُ لاحَ بالقفرة الذيبُ
فأبصرتْ شخصهُ من فوقِ مرقبة ... ودون موقعها منه شناخيبُ
فأقبلتْ نحوه في الجوِّ كاسرةً ... يحثُّها من هوى الريحِ تصويبُ
صبَّتْ عليهِ وما تنصبُ من أمم ... ان الشقاءَ على الأشقين مصبوبُ
كالدلو ثبْت عُراها وهي مثقلةٌ ... اذ خانها وذمٌ منها وتكريبُ(1)

---

(1) شرح ديوانه : 53 ـ صفعاء : عقاب ـ شناخيب : رؤوس الجبال . كاسرة : منقضة ـ تصويب : ارتفاع ـ من أمم : من قرب ـ الوذم السيور بين أذان الدلو والعراقي ـ تكريب : انحل كربها .

ثم نراه في غير ما ملل يتتبع الصراع حتى يدرك نهايته ، فالعقاب قد انقضت من السماء ، والذئب في الأرض وهو مطلوب ، كلاهما حريص على بغيته العقاب تريد الايقاع بالذئب ، وهو يقصد النجاء بنفسه ، ولكنها أدركته فانشبت مخالبها فيه ، واستطاع أن يتخلص منها ، فزاغ من تحتها أصيب جنبه ، وشرع يلوذ بالصخور التي تبللت بالماء ، ولكنها استنجدت بتراب الأرض فأخذت تعفره به ، فكان في لسانه وشدقيه آثاره ، ولقد نجا الذئب أخيراً من الموت بعد أن كان منه قيد أنملة ، وكتبت له الحياة ، وبقي يومه مختبئاً منها والرعب يملأ قلبه ، يترقب الليل عساه يستره فينجيه منها :

لا كالـــذي في هواءِ الجـــوِّ طالبة ... ولا كهـــذا الـــذي في الأرض مطلوبُ
كالبـــزِّ والـــريح في مرآهما عَجَبُ ... ما في اجتهـــادٍ على الاصرار تعييبُ
فأدركتْـــه فنالتْـــه مخالبُها ... فانســـلَّ من تحتهـــا والـــدفُ معقوبُ
يلـوذُ بالصخـرِ منها بعـــد ما فَتَرتْ ... منهـــا ومنـــه على الصخرِ الشآبيب
ثم استغاثـــت بمتـــن الأرض تعفرهُ ... وباللســـان وبالشدقـــين تتريبُ
فأخطأتـــه المنـــايا قِيسَ أنمَلة ... ولا تحـــرزَّ الا وهـــو مكتوبُ(2)
يظـــل منحجـــراً منهـــا يراقبُها ... ويرْقُـــب الليلَ انَّ الليلَ محجوبُ

وامرؤ القيس يكرر هذه الصورة كلما أعاد تشبيه فرسه بالعقاب ، فتراه يخيل اليه وهو على فرسه كأنه على عقاب لينة الجناحين ، سريعة الاختطاف حاذقة بالصيد وقد اعتادته ، فهي تتخطف ذكور الأرانب الراتعة في الشربة ضحى ، وتتخفى منها ثعالب أورال ، فلقد عرفتها كاسرة شديدة البطش ، وتجمعت في وكرها قلوب الطير منها الرطب الذي أصطيد حديثاً ، ومنها اليابس الذي اصطادته من أمد بعيد ، فكأن القلوب العناب والحشف الجاف ، وسرعان ما يعود امرؤ القيس الى مساعيه وهواجسه لادراك ثأره واعادة ملك أبيه :

كأنـــي بفتخـــاء الجناحـــين لَقْوةٍ ... صيودٍ من العقبـــانِ طأطـــأتْ شِملالِ
تخـــطَّف خِزَّان الأُنيعمِ بالضُحى ... وقـــد جحـــرتْ منهـــا ثعالـــبُ أورالِ
كأن قلـــوبَ الطـــيرِ رطبـــاً ويابساً ... لدى وكرهـــا العنـــابُ والحَشَفُ البالي
فلـــو أن ما أسعـــى لأدنـــى معيشة ... كفانـــي ولـــم أطلـــب قليلٌ من المالِ(3)

---

(2) شرح ديوانه 145 -146

(3) شرح ديوانه : 146 ـ طأطأت : طامنت رأسي للكز الفرس ـ الشملال : السريعة القوية ـ الأنيعم وأورال : موضعان .

وعلى هذا النحو يحدثنا عبيد بن الأبرص عن عقاب أخرى كثيرة الصيد فتجمعت في وكرها قلوب طرائدها وجفت ، كانت تلك العقاب على نشز تشبه عجوزاً قد ثكلت أبناءها ، وفي يوم شديد برده ، كان الجليد يتحدر عن ريشها ، أبصرت من بعيد ثعلباً يعدو مسرعاً ، وتفصله عنها فلاة قفراء مجدبة ، فنفضت ريشها ، وحركت جناحيها وطارت لتلحق به ، وشعر الثعلب بالخطر المحدق به ، فتملكه الفزع فرفع ذنبه ، وأخذ يبعث صوتاً ملؤه الخوف ، وسقطت العقاب على رمل قريب منه ، وشرع الثعلب يدب في خفاء وحذر ، يقلب عينيه فرقاً ولكنها أدركته ورمته ، وظل الثعلب صيداً أصابه الكرب والشدة ، اذ طرحته أرضاً وفتكت به وكانت الأرض صلبة فكدحت وجهه ، ونالته بجروح ، وظل المسكين يصيح ومخلبها في جنبه ، وربما كان صدره مثقوباً أيضاً :

كأنها لقْوة طلوبُ ... تيبَّس في وكرها القلوبُ
باتت على ارمٍ عذوباً ... كأنَّها شيخَةٌ رقوبُ
فأصبحت في غداةِ قر ... يسقطُ عن ريشِها الضرَّيب
فأبصرتْ ثعلباً سريعاً ... ودونه سبسبٌ حديبُ
فنفضتْ ريشَها وولَّتْ ... وهي من نهضة قريبُ
فاشتالَ وارتاعَ من حسيسٍ ... وفعله يفعلُ المذؤوبُ
فنهضت نحوه حثيثاً ... وحردت حرده تسيبُ
فدبَّ من خلفها دبيباً ... والعينُ حملاقُها مقلوبُ
فأدركته فطرَّحَتْه ... والصيدُ من تحتها مكروبُ
فجدَّلته فطرحته ... فكدّحت وجهه الجبوبُ
يضغو ومخلبها في دفِّه ... لا بدّ حيزومه منقوب[4]

ونتلمس بعض تلك المعاني في شعر صخر الغي[5] ، وساعدة بن العجلان[6] ، والشماخ[7] ، ومما أوردته من نصوص ندرك أن العرب قد فطنوا الى صراع العقاب وسعيه

---

(4) ديوان عبيد : 29-30 . لقوة : عقاب أرم : جبل - رقوب : لا يعيش لها ولد - قر : برد - الضريب : الجليد - سبسب : أرض بعيدة مستوية - أشتال : رفع ذنبه فزعا - حسيس : صوت خفي - المذؤوب : الذي روعه الذنب - جدله : طرحه - كدحت : جرحت الجبوب : الأرض - يضغو : يصيح - الدف : الجنب - الحيزوم : الصدر .

(5) شرح أشعار الهذليين : 1-250, 251

(6) المصدر السابق : 1-342

(7) ديوان الشماخ : 100

في كسب قوته ، ولكن (أول من صاد بها أهل المغرب)[8] وهي نوعان : عقاب وزمج ، وأخبرنا الدميري بكثير من أوصاف كل نوع منها ، وعكف على طبائعها يعددها ، وعاداتها يعرضها[9] .

ونجد صاحب البيزرة يعتبر عقبان المغرب والمشرق متساوية في ألوانها وأوزانها ، والعمل بها ، الا أنه فضل عقاب المغرب بحجة (أنها أصلب وجهاً ، وأصدق نية في الصيد من عقبان المشرق)[10] .

2 ـ البزاة

البزاة[11] نوع من الصقور الصفراء ، وهذا يؤيده قول غيلان :

أسفع الخدين طاوٍ أصفر متخذ يسري يديه منبرا[12]

(والأناث منها أجرأ على صيد عظام الطير ، والبازي هو الأنثى وذكره هو الزرق)[13] وفي القاموس زرق كسكر طائر صياد جمعه زراريق[14] ، وذلك الرأي لم يأخذ به ملك صقلية[15] ، وصححه بقوله : (أن الصائد الكبير الجثة المعتبر في الصيد في جميع أجناس الجوارح هو الاناث)[16] .

وعدَّ البازي رمزاً للبطش والقوة ، لذا شبه جرير نفسه به عندما تصدى لهجاء الراعي النميري فقال :

أنا البازي المدلَّ على نُميرْ أتحتُ من السماءِ لها انصبابا[17]

ويتمسك جرير بهذا المفهوم ، لكنه في هذه المرة يتخذ جبن الحباري وفزعها من

---

(8) حياة الحيوان : 2-111

(9) نفس المصدر : 2/ 110, 111

(10) البيزرة : 110

(11) مفرده بازى بتخفيف الياء وتشديدها وقد تحذف ، والأفصح بياء مخففة .

(12) المصايد : 12 . لم أجد البيت في ديوان شعر ذي الرمة .

(13) المصايد : 55 .

(14) القاموس (الزرق) .

(15) هو الأمبراطور الألماني فريد الثاني المتوفي سنة1250 ، ألف متأثراً بالعرب الذين حكموا صقلية قبله كتاب « صفة الصيد بواسطة الجوارح » باللاتينية .

(16) الباز الأشهب (مجلة فكروفن) : 24 (تصدر في ألمانيا باللغة العربية العدد الرابع 1964) .

(17) شرح ديوان جرير : 72

البزاة وسيلة للحط من شأن خصمه :

صفقتم للبزاةِ حبارياتٍ فاخزى الخُنْثيين منَى الضَّلال(18)

أما الطرماح فيشبه ممدوحه خالد بن عبد الله القسري بباز لحم شجاع مدرب ومعلم على الصيد تخضع له الصقور ، سلاحه جناحان ومنقار ومخالب :

لو لم تكنْ رجلاً لكنتَ بما ترى لَحِماً تدين له الأجادل ضارى
صقرٌ يصيد اذا غدَا بجناحه وبخطمه ، ويصيد بالأظفار(19)

والبازي حين يكر على الطريدة ينطلق بسرعة عظيمة ، فاذا فاتها يصعب عليه الرجوع لشدة حمله ، وكذلك وجد الراعي النميري نفسه حين يهاجم خصومه ، فهو يشبه ذلك البازي الفاتك الذي يتسلط على الأرانب ، فلا تحميها الوديان أو القلاع :

ململمٌ كمدقٍّ الهضبِ منصلتٌ اذا تفرَّقْنَ عنه وهو مندفعُ
يسبقن بالقصدِ والايغالِ كرَّتَهُ ولا يكادُ اذا ما فاتَ يُرتجع
وظلٌ بالحزن لا تصري أرانبه من حدٍّ اظفارهِ الحُجران والقلعُ(20)

والراعي هنا لم يذهب بعيداً عن المفهوم الذي ردده جرير والطرماح ، بل نستطيع القول أن الشاعر قد انطلق في وصفه للبازي وفي ذهنه فكرة عن قوة هذا البازي وخوف الأرانب منه ، وهي الفكرة ذاتها التي عرضها جرير والطرماح مع اختلاف في نوع الطريدة ، فهنالك الحباريات والأجادل ، وهنا الأرانب .

ويسمى البازي في سنته الأولى فرخاً ، وفي الثانية كرز عام ، وفي الثالثة كرز عامين ، قال رؤبة :

لما رأتني راضياً بالأهمادِ كالكرَّزِ المربوط بين الأوتادْ(21)

ويطيب للراجز رؤبة أن ينعت البازي ، ويتابعه وهو يسمو ويسف طارداً

---

(18) المصدر السابق : 429 . الخنثيان : بنو مجاشع وبنو نهشل .

(19) ديوان الطرماح : 235-236 . اللحم (فتح فكسر) : البازي لأن أكله اللحم ـ الأجادل : الصقور جمع أجدل وهو الصقر ـ الضاري : الذي قد ضرى بالصيد واعتاده .

(20) شعر الراعي النميري: 94 . الحجران : جمع حاجر وهو المكان ترتفع جوانبه ويطمئن وسطه وله حروف تمنع الماء أن ينبثق ـ القلع : جمع قلعة .

(21) المصايد : 59 ، وانظر اللسان (كرز) .

فرائسه ، وهو لم ينتح اتخاذ البازي موضوعاً لأرجوزته قصداً ، بل جعله مشبهاً به فاضطر الى ابراز خصائله ، وتقصي صراعه مع الطريدة ، فهو باز حسن ، قد قرنص مرات ، وقد التف بريشه الوفير كما يلتف شيخ بمشمله ، يبكر قبل الطير ، ببصر حديد ، سلاحه مخالب حادة ، فاذا لمح من بعيد صيداً انقض عليه ، وهو ماهر في احتياله للفريسة ، يرتقي معها في الجو ، ويهوي أثرها الى الأسفل ، حتى يتعبها ، وينشب مخالبه فيها ، وتكون له طعاماً شهياً :

كأنها ألواحُ بازٍ نهضلِ كرَّزٍ يلقى ريشَهُ ويفتلي
أكلف ملتف بريش غفلِ تلفف الشيخ الثْوى في المشمل
اذا غدا والطيرُ لم تصلصلِ غدا بصيرَ العين لم تكللِ
بحدٍّ أطراف شباً مؤسل فانحطَّ يهوي بعيدَ المحتملِ
ان طرْنَ ساماهن عالٍ من علِ وان تطأطأن انحنى للأسفل
أو دين بعد النقض والتحفُلِ من لَطم ذِي معمعة مولولِ(23)

وفي العصر العباسي أضحت ممارسة الصيد ضرباً من الرياضة والمتعة لذا ازداد اهتمامهم بها وبوسائلها ، فكانوا يلبسون الكلاب وجوارح الصيد القلائد ، والملابس الخاصة التي تظهر اعتزازهم بها ، وشغفهم بتلك الرياضة ، وأبو نواس من أولئك الذين كلفوا بالصيد ، وأكثر من وصف هذه الرياضة وما يتعلق بها من وسائل وطرائد ، وما يرافقها من ظروف وأحوال وهو في احدى طردياته ينعت بازاً ألبسه الملابس الفاخرة المذهبة ، وله هامة ومنسر عظيمان ، مولع بصيد الكراكي ، ولذا حين أبصر عشرين منها في مكان اسمه « ذات العيص » طار نحوها ، وانقض عليها كالبرق الخاطف ، يضرب جناحيه فينطلق بسرعة فائقة ، فأدركها واختار خيرها ، وأحدث فيها مجازر مروعة مقطعاً بعضها بمخالبه ، فذبحوا الكسير ، وأبقوا غيره ، وكان في بيتهم من صيده أعداد أخرى هيؤوها للشي ، وأنقعوا بعضها في الخل :

آلف ما صدتُ من القنيصِ بكلِّ بازٍ واسعِ القميصِ
ذي بُرْنُسٍ مذهَّبٍ رصيصِ وهامة ومنسرٍ حصيصِ
وجؤجؤٍ عوّلٍ بالدليصِ مدبَّج معيَّن الفصوصِ

---

(22) المصايد : 62 . النهضل : المسن من الرجال .

على السكراكي نهمٍ حريصِ آنس عشرين بذاتِ العيصِ
فانسلَّ عن سكارهِ المحموصِ وانقضَّ يهوي وهو كالوبيص
داني جناحيه الى نصيص فأعتام منها كل ذي خميص(23)
فَقَدَّ بمخلبٍ قبوصِ فكم ذبحنا ثم من موقوصِ
وكم لنا في البيتِ من مقصوص معدَّة للشيِّ والمصوصِ(24)

وأبو نواس كان يكثر من وصف البزاة ، يتقصَّى صفاتها بعناية ، ويمعن في تصوير أحوالها ، ولقد اتحفنا بصور طريفة ، ولنأخذ مثلاً ثانياً عله يوضح مبلغ براعة هذا الشاعر الذي أرسى أسس فن الطرديات ، وأضفى عليها اللمسات الأخيرة ، وأسهم بجدارة في توطيد أركانها، فهو يقول : عندما شعرت أن الليل أدرك نهايته ، وأعد نفسه للرحيل ، مبشراً بالفجر ، تهيأت للصيد وكسوت كفي بقفاز ذي شعر ، صنع من جلد سنجاب ، بحجم يناسب الكف ، ليقي من البرد ، ومن جرح البازي حين يطفر عن يدي بنشاط ، ولقد دربت هذا البازي على أخذ الطيور الصغيرة ورفوفها ، وهو يدق أعناقها :

لما رأيت الليلَ قد تشزرا عني وعن معروف صبحٍ أسفرا
كسوتُ كفي دستباناً مشعرا فروة سنجاب لؤاماً أوبرا
تقي بنان الكف الأَّ تحصدا وغمزة البازي اذا ما طَفَرَا
قسمت فيه الكفَّ الا الخنصرا أعددت للبُغثانِ حتفاً محقرا(25)

وكان لون بازيه أبرش ، ريش جناحيه طويل ، أرقط أنصع مخضوضر ، أبيض. ظاهر الجناحين ، تنتشر في ريشه بقع بيض وسود ، فهو مجموعة من الألوان الزاهية ، تضيف على قوته جمالاً ومنظراً حسناً :

أبرش بطنان الجناح أقمرا أرقط ضاحي الدفتين أنمرا(26)

ثم يبدع أبو نواس في وصف حاليه ، في الجوع ، وادراكه الثأر ، فكان شدقيه وهو جائع شقا جبل ، أما عيناه فكأنهما ، لحظات ينال ثأره وفرحه بعد غضبه ، فصا عقيق

---

(23) ديوانه 647 . الحصيص : الخالي من الشعر ـ عول : أول وأعجب ـ الدليص : المدبج المنقوش ـ ذات العيص : موضع ـ السكار : المحبس المحموص : المجلو ـ الوبيض : البرق .
(24) ديوان أبي نواس 647 . دستبانا : قفازا ـ لؤام : ملائم .
(25) ديوانه : 650 . المحقر : ضارب العنق ـ أبرش : مختلف اللون بطنان الجناح : طويل الريش .
(26) ديوانه : 650 . المحقر : ضارب العنق ـ أبرش : مختلف اللون ـ بطنان الجناح : طويل الريش .

أحمر ، ركبا في هامته المرتفعة ، وتحت ذينك الفصين منسر معكوف ذو نهاية حادة ، يشبه حرف جيم رسمته يد عسراء ، هرمي الشكل ، ولو رأى ذكي هذا المنقار مضافاً اليه العين والفاء والراء لتذكر اسم « جعفر » ولا تجد الطير في بازيه الا المحطم الطعان :

كأنَّ شدقيْهِ اذا تضورا صُدغان من عرْعرة تفطَّرا
كأنَّ عينيه اذا ما اثأرا فصّان قضا من عقيق أحمرا
في هامة علياءَ يهدي منسرا عطفةِ الجيمِ بكفٍّ أعسرا
يقولُ من فيها بعقلٍ فكرا لو زادَها عيناً الى فاء ورا
فأتصلتْ بالجيم كانت جعفرا فالطير يلقاه مدقّاً مدْسِرا(27)

وعلى هذا النحو يتردد وصف البزاة في شعر أبي نواس الذي يعتبر صدى لكلف ذلك العصر بالصيد ، والذي يجسده تجسيداً لم يخل في بعض الأحايين من تكلف وصنعة ولا سيما ما لمسناه في تشبيه منقار البازي باسم « جعفر » وما رافق هذا التشبيه من تعسف واغراق في التكلف.

أما الزرق فلم يهمله أبو نواس ، وانما اعتبره من وسائل صيده أيضاً وربما خرج به مبكرا ، وهو يؤيؤ فاتك سريع القطع والقتل ، أصيل ، ريشه وأصوله دقيقة ، ويخبرنا أبو نواس أنه اصطاده من موضع اسمه « نعمان سهر داز » ويجلب له الرزق العميم حين يرسله ، فهو زينة للكف والقفاز ، وكم من طائر مائي كنيته أبو كزاز يتردد على المستنقعات بخفة وسرعة ، ويتحصن بالأماكن الأمنة ، الا أن هذا الزرق قد انقض عليه وهو في الأرض الصلبة ، فشقق رقبته بمخالبه منحنية ، نافذة الطعن ، فهو يختار فريسته منفردة ويثقب جلدها وهو ذو نسب معروف ، وأبوه باز قد علمه الفتك والاقدام ، وهو نعم الخليل في وقت الحاجة :

قد أغتدي بزرق جُرازِ مَحْضٍ رقيقِ الزِّفِّ والطِّرازِ
دُبِّقَ من نعمان سَهْرَ دازِ تصيدنا رِزقاً ودستخاز
زيْن يدِ الحاملِ والقُفَّازِ فكم وكم من طوِلٍ جَأَّز
مغامر يكنى أبا كزازِ جمّ الوقاع موجزِ الايجاز

---

(27) ديوانه : 650 -651 . العرعرة : رأس الجبل ـ قضا : شقا ـ المدسر : الكثير الطعن . وانظر أيضا : 660، 663، 666، 667، 670، 671 .

قد طالما أوطـــن بالأحراز علّقـــهُ بالجدجـــدِ البراز
مشقـــاً يقـــدُ ثبـــج الأحوازِ بحجنـــات صدفـــة التوخاز
مثـــل أشـــافي الصنـــع الخراز يعتامُهـــا فرداً بـــلا جلوازِ
قَدَّ ابـــنِ بازِ وصـــنيع بازِ نِعْـــمَ الخليلُ ساعَـــة الأعواز(28)

3 ـ الصقور

الصقـر من الجـــوارح ، والعـــرب تسمـــى كل طائـــر يصيد صقـــراً خلا النسر والعقاب(29) ، وأول من صاد به الحارث بن معاوية بن ثور بن كندة(30) ، وقد تطرق زهير ابن أبي سلمى الى مطاردة القطاة حين شبه فرسه بها ، فالشاعر يصور القطاة راتعـة في وطنها ، سعيدة بعيشها ، ولكن طمأنينتها لم تدم، اذ انقض عليها صقر ذو خدين أسفعين خالط حمرتهما سواد ، وكان هذا الصقر وحشياً ، لم يصطده قانص ، فاحتفظ بقوته :

جونيَّةٌ كحصـــاة القســـم مرتعها بالسَّـيِّ ما ينبـــت القفعـــاء والحَسكُ
أهـــوى لهـــا أسفـــع الخـــدين مطرق ريش القـــوادم لم يُنْصَـــبْ له الشبكُ(31)

ومثله الأخطل حين شبه فرسه بالقطامى الذي تعود الفتك بفرائسه ، أسود ذو بصر حديد ، قد جاع ليلة كاملة ، ولم يجد شيئاً مدخراً يأكله ، وبقي حاله تلك ، يتضـور جوعاً حتى منتصف اليوم التالي ، قد أبقاه في وكره بذي الحرث مطر غزير وبرد قارس ، وفي الصباح اتخذ مكاناً مشرفاً في جبل ربيئة ، يراقب منها ما يريد قنصه ، يجيل النظـر ويطيله ، ويقلب عينيه الزرقاوين في الأرض الواسعة التي تنفتـح أمامـه ، ولـم يظفـر بشيء ، وعند العصر لاحت له قطاة تريد الجبأتين حيث الماء فانطلق نحوها ، وحاولت أن تنجو منه فصدت بوجهها كما يصد الخصم عن عدوه ، ولكنه شديد الجوع فألح وأسرع في طلبها وأنشب مخالبه في جسمهـا ، ففرقت ريش الذنابي ، ولـم يكتف ذلك الصقر وانما

---

(28) ديوانه : 648 . الجراز : الأكل والفتك بسرعة. الطراز : أصل الريش . دبق : جمع ـ دستخاز: متطاير عنـد رؤية الصيد ـ طول : طائر مائي . وقاع : مستنقعات ـ موجز الأيجاز : سريع الحركة .

(29) القاموس (صقر) ، حياة الحيوان : 2-57

(30) المصايد : 84 ، والصة موجودة كاملة .

(31) شرح ديوان زهير : 171 . جونية : قطاة لونها أسود أو الجوني : نوع من القطا أسرعه ـ حصاة القسم : اذا قل ماء المسافرين وضعوا حصاة في القدح، وصبوا عليها الماء حتى يغمرها ، ليقسم بينهم الماء بالسوية ، وهي مجتمعة ملساء ، فشبهوا بها القطاة ـ السي : موضع ـ القفعاء : بقلة من أحرار البقول ـ الحسك ـ بفتحتين : ثمر النقل يستخرج منه حب فيؤكل .

تصدى لأسراب القطا الأخريات ، فوق جبل « عاهن » بسرعة كلمع البصر ، ليس فيها تباطؤ ، أو سير سيء كسير الرجل البدين ، فكان القطابين ناج وهالك ، ثم قصد سهلاً استنقع فيه الماء يؤمه القطا ليلاً ونهاراً ، وظل هذه حاله ، يفتك بالأرانب ضحى ، واذا لمحته الثعالب تلوذ بالفرار ، وبعد أن أطفأ جوعه ، وملأ بطنه تذكر وكره فعاد اليه :

رجعت به يرمي الشخوصَ كأنَّهُ قطاميُّ طير أثخنَ الصيدَ خاضبُ
أحمُّ حديدُ الطرفِ أوحش ليلةً وأعوزه أذخارهُ والمكاسبُ
فظلَّ الى نصف النهار يُلفُّهُ بذي الحرث يومٌ ذو قِطارٍ وحاصبُ
فأصبح مُرتبياً الى رأسِ رُجْمَة كما أشرفَ العلياء للجيش راقبُ
يقلِّب زرقاوين في مُجْرهَدَّة فلا هو مسبوقُ ولا الطرفَ كاذبُ
فَحُمَّتْ له أصْلاً وقد ساءَ ظنُّهُ مُصيفٌ لها بالجبأتين مشاربُ
فعارضها يهوي وصدّتْ بوجهِها كما صدَّ من حسِّ العدوّ المكالب
فلم أرَ ما ينحوه ينحو لطائر ولا مثل تاليها رأى الشمس طالبُ
فأهولى بها ما لا ترى وتحرَّدت وقد فرَّقت ريشَ الذنابي المخالبُ
بلمع كطرفِ العين ليست تريثه وركض اذا ما واكل الركضَ ثائبُ
فعارض اسراب القَطا فوق عاهنٍ فممتنعٌ منه وآخر شاحبُ
اذا غشَى حسْياً مِلْ حساء درت له صوادرُ يتلون القطا وقواربُ
يفرّق خِزَّانَ الخمائل بالضحى وقد هربت مما يليهِ الثعالبُ
فلمَّا تناهى من قلوب طَريَّة تذكَّر وكراً فهو شبعانُ آيبُ(32)

ولما خاطب الراعي النميري المرأة التي ينسب بها ذكر القطامي ، فقال : لوكانت لي معذرة في نصري على من يمنعك عني لطيرت صقور قومي غربان قومك ثم صيرهم في البيت الثاني كفرخ النعام ذي الريش الضعاف :

فلو كنت معذورا بنصرِك طيرَّتْ صقوري غربانَ البعير المقيَّدِ(33)

(32) الأخطل (الروائع : 33-35 . القطامي : الصقر ـ أجم : أسود ـ أوحش : جاع ـ ذو الحرث : اسم مكان ـ قطار : مطر ـ الحاصب : البرد والثلج ـ مرتبيا : مرتبئا : علا المربأ وهو المكان المشرف من الجبل ـ واكل : أساء السير ـ الثائب : السمين الضخم الجسم ـ عاهن : جبل ـ شاجب : هالك ـ حسيا : سهل يستنقع فيه الماء مل حساء : من الاحساء ـ المجرهدة : الأراضي الواسعة ـ صمت : قدرت ـ أسلا : عصرا ـ المصيف : القطاة المفرخة في الصيف ـ الجباتان : موضع فيه ماء ـ تحردت : تفردت .

(33) شعر الراعي : 66 . النواهض الربد : افراخ النعام الصغار ـ المسبد : الضعيف .

لظلٍّ قطاميٍّ وتحت لبانهِ نواهض رُبْدٌ ريشٍ مُسبدِ

والشعراء الثلاثة في تعرضهم للصقر قد نعتوا الوحشي منه ، وصراعه مع القطاة وغيرها بدافع الاقتيات ، فهو يمسك لنفسه ، وبعبارة أخرى أنهم لم يصفوا الصقر وسيلة للصيد ، قد علم الامساك على صاحبه ، أما الشمردل اليربوعي فمنحاه غير هذا المنحى ، اذ ثبت له الأصفهاني(34) أرجوزة كثيرة الشبه بأراجيز أبي نواس وتضاهيها ، وفي تلك الأرجوزة التي تتكون من ستة عشر بيتاً ، يتصدى الشاعر لنعت الصقر وسيلة للصيد ، والغريب في الأمر أنه انتهج في بناء طرديته منهجاً وجدناه في طرديات أبي نواس ، فهو يصف وقت خروجه للصيد الذي يكون عادة في الصباح الباكر جدا ، ثم يذكر أن خروجه كان بتوجي اعتاد الصيد منذ شبابه ، فقد درب عليه ، ووعى الصوت الذي ينادي به ، وينقل الشمردل لنا حواره مع القانص الذي جاء بالصقر اليه ، ثم يخرجون به للقنص ، مخالبه مذربة كسكاكين القصاب أو كحرابه ، واستطاعوا أن يصيدوا ثمانين ما بين فحل حباري وفحل أرانب ، ثم يعكفون الى بيت أعدوا لطبخ الصيد فيه أو شيه فاحتطبوا وأوقدوا نارهم وتلذذوا بأكل ما اصطادوه :

وقد أغتدي والصبحُ في حجابهِ والليلُ لم يأو الى مآبهِ
وقد بدا أبلقَ من مُنجابهِ بتوجيّ صادَ في شبابه
معاود قد ذلّ في أصعابهِ قد خرَّق الضِّفارَ من جذابهِ
وعرف الصوتَ الذي يُدعى بهِ ولَمعةُ المُلْمعِ في أثوابِهِ
فقلتُ للقانصِ اذا أتى بهْ قبل طلوع الآل أو سرابهِ
ويحكَ ما أبصر اذ رأى بهِ من بطنِ ملحوبٍ الى لبابهِ
قشْعاً ترى التَّبتَ من جنابهِ فأنقضَّ كالجلمودِ اذ علا بهِ
غضبان يوم قنية رمى بهِ فهنَّ يلقينَ من اغتصابهِ
تحت جديدِ الأرضِ أو ترابهِ من كلِّ شحَّاجِ الضُّحى ضغَّابِهِ
اذ لا يزالُ حربة يشقى بهِ منتزع الفؤادِ من حجابهِ
جادَ وقد أنشبَ في أهابهِ مخالباً ينشبْنَ في انشابهِ
مثلِ مدى الجزارِ أو حرابهِ كأنما بالحلق من خضابهِ

(34) الأغاني : 13 /362, 361

عصفــرة الفــؤاد أو قضابهِ حوى ثمانــين على حسابهِ
من خَرَبٍ وخُــزَز يُعْلى بهِ لفتية صيدُهــم يُدعــى بهِ
واعدهــم لمنــزل بتنــا به يطهــى به الخربــان أو يشــوى به
فقــام للطبــخِ ولاحتطابهِ أروع يهتــاجُ اذ هجْنــا به[35]

ويحسن مني أن أعكف على تحليل بعض أراجيز أبي نواس ، اذ يمكن اعتبارها مثلاً للطرديات التي استولدت في أواخر العصر الأموي على يد الشمردل وغيره ، وتوطدت أركانها في العصر العباسي حين تناولها أبو نواس ووضع « رتوشها الأخيرة » .

ويخيل لي أن أبا نواس معجب بصيد الصقور ، ويعتقد أنها ذكية ، فهو يعلن في مستهل احدى طردياته ((لا صيد الا بالصقور اللمح) ، وصقره له حجافان لم يجرحا ، ولم يغتذِ باللبن الشائب ، كان مولده في أعالي الجبال الشوامخ ، وليس في السهول ، ريش قوادمه قليل منكمش ، وألوان ظهره متباينة ، يتسلط على أرانب الصحارى النافرة لوحشتها ، ويصطادها بعد نشوز وجماح فكأنه يضربها برمح قصر مسموم ، منقاره معكوف كالمجدح ، وهن مرتفعات في السماء ومهيئات للحاق النشيط ، واستطاع صقر أبي نواس أن يصطاد منها ، قبل التعب وقبل عودة الذاهب بالعشي ، خمسين سهاناً ما بين مذبوح وآخر لم يذبح :

لا صيد الا بالصقــورِ اللُمَّح كلّ قطَامــيٍّ بعيد المطرحِ
يجلــو حجَاجَــيْ مقلــة لم تجرحِ لمِ تَغْــدُهُ باللبــنِ المضيَّحِ
أمَّ ولــم يولــد بسهــل الأبطحِ الا باشراف الجبــال الطمّحِ
أحصِّ أطــراف القدامَــى وحوْحِ أبــرش من القَــرا والمذبحِ
يلْــوي بخــزَّانِ الصحــاري الجمحِ ينحــى لهــا بعــد الــطماح الأطمحِ
يسلكهــا بنــزك مُذَرَّحِ ومنسرِ أقْنَــى كأنفِ المجدحِ
وهــي رواقِ بالبســاطِ الأفيحِ ومتيحــاتُ للحــاقِ متيحِ
فاصطــاد قبــل التعــبِ المبرحِ وقبــل أوْبِ العــازبِ المروَّحِ
خمســين مثــل العنــز المشدَّحِ ما بــين مذبــوحٍ ومــا لم يذبحِ[36]

---

(35) الأغاني : 13 -361 ,362

(36) ديوان أبي نواس : 648 ، وانظر أيضاً : 661 . الثقور اللمح : الذكية ـ لبن مضيح : ممزوج بالماء ـ أحصى : قليل الريش ـ القدامى : ريش مقدم الجناح ـ وحوح : منكمش ـ النيزك : المذرح : الرمح القصير المسموم ـ المجدح : ما=

وتارة أخرى يبكر للصيد بيؤيؤ يثير اعجاب من يراه ، وليس في اليابي آخر يشبهه ، في خديه سفعة ، أزرق ذو بصر نافذ ، والصائد متعلق به شديد التعلق ، ويفديه بأمه اعزازاً واكراماً ، فهو اذا أجال النظر وأبصر مكان يمرق نحوه بقوة ، فلا تنجى المكاء جناحاه ، فسرعان ما ينتزع رئته من صدره، لا ينفعه تسبيح أو استغاثة ، وهذا اليؤيؤ منحة من الله تبارك وتعالى :

قد أغتدي والصبحُ في دجاهُ ... كطرَّة البرد علامتاهُ
بيؤيؤٍ يعجب من رآهُ ... ما في اليآئي يؤيؤ شرواهُ
من سفعة طُرَّ بها خدَّاه ... أزرقُ لا تكْذِبُه عيناهُ
فلو يرى القانصُ ما يراهُ ... فدَّاه بالامٍّ وقد فدَّاهُ
من بعد ما يذهبُ حلاقاهُ ... لا يوئلُ المكَّاءَ منكباهُ
ولا جناحان تكنَّفاهُ ... منه اذا طارَ وقد تلاهُ
دون انتزاعِ السَّحْرِ من حشاهُ ... لو أكثر التسبيحَ ما نجاهُ
ذاك الذي خولناه اللهُ ... تبارك اللهُ الذي هداهُ[37]

ويتردد وصف الصقر في شعر أبي نواس ملقباً اياه بالتوجي[38] ، وتتكرر الأوصاف والوقائع بالفاظ قد تتشابه مرة ، وتختلف أخرى ، مع طردباته التي وصف بها الصيد بالجوارح .

= يحرك به السويق كالملعقة ـ البساط الأفيح : السماء ـ متيحات : مهيئات ، المتيح كمنبر : النشيط ـ المشدح : السمين ـ العازب ـ المروح : السائر في العشي .

(37) ديوان أبي نواس : 654 . اليؤيؤ : صنف من الصقور ويسميه أهل مصر والشام الجلم لخفة جناحيه وسرعتهما ، والجلم هو المقص الذي يجز به ـ طرة البرد : جانبه ، والبرد : الثوب ـ شرواه : مثله ـ طر بها : شق بها وقطع بالبناء للمجهول ـ لا يوئل : لا ينجي ـ السحر (بفتح فسكون) : الرئة .

(38) ديوان أبي نواس : 652 . التوجي : نسبة الى توج احدى بلاد فارس أي صقر منسوب الى ذلك الموضع .

الفصل الثالث
الأسلحة

لقد فرضت الحياة القبلية التي عاشها العربي ، وما انبثق عنها من عصبيات وحروب أن يهتم بوسائل دفاعه وحماية مقدساته ، فحرص على اقتناء القوس والنبال والرماح والسيوف ، وتفاخروا بها ، وبجودتها ، وتفننوا في صناعتها ونسبها ، واليك امرأ القيس يذكر رمحه الرديني مشبهاً سنانه بضوء اللهب الذي لم يتصل بدخان :

جمعتْ ردينِيّاً كأنّ سنانَهُ   سنا لهبٍ لم تَتَّصِلْ بدُخانِ(1)

وقول الشماخ في وصف ناقته وتشبيهه ضلوعها بالقوس الماسخية في الانحناء :

فقرُبتْ مبراةً كأنّ ضلوعَها   من الماسخياتِ القسيِّ الموتَّرا(2)

وهذا ذو الاصبح العدواني ينوِّه بعدته للحرب مفاخرا :

السيفُ والرمحُ والكنانةُ والـ   ـنبلُ جيادا مشورة صُنُعا(3)

ومثله أبو زيد الطائي :

سهمٌ وقوسٌ وعكّازٌ وذو شُطَب   لم يتَّرك لومةً في رمةِ الصَّنِع(4)

واني سأتناول بالبحث والدراسة ما اتخذ من تلك الأسلحة وسيلة للصيد .

---

(1) شرح ديوانه : 191 . الرديني : الرمح المقوم ، منسوب الى ردينة امرأة سمهر ، وكانت هي وزوجها يقومان الرماح بخط هجر .

(2) ديوان الشماخ : 27 . الماسخيات : قسي تنسب الى ماسخة وهو قواس مشهور ـ الموتر : التي شدت بالأوتار .

(3) المفضليات : 1-152 . المشورة المسواة ـ الصنع (بضمتين) : المحكمة العمل .

(4) الطرائف الأدبية : 101 . العكاز (بضم العين وتشديد الكاف) الرمح ـ الصنع (بفتحتين) : الحاذق .

سيمت به ملحفة شرعبية وأربع أواق من الذهب تدفع كلها نقداً ، وهو ثمن غال ومغر ، يضاف اليها بردان من برود اليمن مع جلد مدبوغ محكم ، لوضع تلك الأشياءفيه ، وظل يحدّث نفسه ويستشيرها الرأي ، متردداً بين اعتزازه بالقوس وبين الثمن المغري ، وكان الناس من حوله يحثونه على البيع ، وباعها وفاضت عيناه دمعاً ، وفي قلبه أسف عظيم عليها ، وجذب وتر القوس اختباراً لينظر ما شدتها ، وبلغ الوتر غاية المد ، له صوت شجي اذا ما انبضها الرماة كأنه صوت ثكلى ، ولها هتاف وهي تطلق السهام نحو الظبي ، ولونها أصفر كالزعفران الذي اختزنه العطار اليماني ، يعتز بها صاحبها فاذا سقط الندى عمد الى حفظها في مكان أمين ، والبسها الحرير النفيس، ولا تراه يلفها بالثوب الخلق ، خوفاً عليها من أن تفسد أوتارها بالرطوبة :

نَمَتْ في مكانٍ كنَّها فأستوتْ بهِ ... فما دونها من غيلِها متلاحِزُ
فما زال ينجو كلَّ رطبٍ ويابس ... وينغلُّ حتى نالها وهو بارزُ
فأنحى عليها ذاتَ حدٍّ غرابُها ... عدوٌّ لأوساطِ العِضَاه مشارزُ
فلما أطمأنتْ في يديهِ رأى غنىً ... أحاط به وازورَّ عمَّنْ يحُاوزُ
فمظَّعها عامين ماءَ لحائها ... وينظرُ منها ايَّها هو غامز
أقام الثِّقافُ والطريدةُ دَرْأها ... كما قومَّتْ ضغْنَ الشَّموسِ المهامز
فوافى بها أهلَ المواسِم فانبرى ... لها بيِّعٌ يُغلى بها السُوْمَ رائزُ
فقال له : هل تشتريها فانهَّا ... تباعُ بما بيعَ التِّلادُ الحرائزُ(16)
فقال : ازارُ شرْعَبيٌّ وأربع ... من السيراءِ أو أوقٍ نواجز
ثمانٍ من الكُوري حُمْرٌ كأنها ... من الجَمْرِ ما أذْكَى على النارِ خابزُ
وبردانِ من خالٍ وتسعون درهماً ... على ذاكَ مقروظٌ من الجلدِ ماعز
فظلَّ يناجي نفسهُ وأميرَها ... أيأتي الذي يُعطى بها أمْ يجاوز
فقالوا له : بايعْ أخاك ولا يكُنْ ... لك اليومَ عن ربح من البَيْعِ لاهزُ
فلماَّ شراها فاضتِ العينُ عبرةً ... وفي الصدر حزّازٌ من الوَجْدِ حامزُ
اذا أنبضَ الرامون عنها تَرنَّمتْ ... ترنُّمَ ثكلى أوجعتْهاالجنائزُ

---

(16) : ديوان الشماخ : 47-48 . كنها : سترها ـ الغيل (بالكسر) : الشجر الكثير ـ متلاحز : متزاحم ـ ينجو : يقطع ـ ذات الحد : القدوم ـ العضاه : الأشجار العظيمة ـ مشارز : معادي ـ مظعها : حفظها بلحائها ، وقيل : الانها ـ الطريدة : القصبة التي توضع عليها الرماح والقسي كي تنحت ـ الشموس (بالفتح) : الصعب من الخيل ـ المهامز : جمع مهماز حديدة في مؤخرة خف الفارس ـ رائز : مجرب .

هتوفٌ اذا ما خالط الظبيَّ سهمُها وان ريع منها أسلمتْهُ النواقِزُ
كأنَّ عليها زعفراناً تُميزُهُ خوازنُ عطَّارٍ يمانٍ كوانزُ
اذا سقط الأنداءُ صينتْ وأشْعِرتْ حبيرا ولم تدْرَجْ عليها المعاوزُ(17)

ونجد الشاعرين كليهما قد تعرضا الى النقاط نفسها مع اختلاف في الجودة شكلاً ومضموناً ، فكلاهما وصف منبت شجر القوس ، وكلاهما أظهر المصاعب التي عاناها في الحصول عليها قطعاً وتثقيفاً ، وكلاهما ذكر لونها الأصفر وصوتها الشجي ، ولكن أوس بن حجر جعلها من جملة أسلحته التي أعدها للحرب ، أما الشماخ فجعلها وسيلة للصيد ، وامتحن صاحبها ببيعها ، وان كان ثمة شيء يمتاز به أوس على الشماخ فهو السبق ، وما يضفيه العصر الجاهلي والبيئة فيه على شعره من الجزالة والمتانة ، وشيء آخر فقد (بالغ أوس في وصف شقاء قواسها ، وعلى قدر المشقة يكون الأجر ، فكان فضله على خلفه أكثر)(18) .

وممن وصف القوس ، لونها وصوتها ، أو الخشب الذي صنعت منه شعراء آخرون منهم ، الشفري(19) ، والطفيل الغنوي(20) ، وحميد ابن ثور(21) ، وصخر الغي(22) ، وأبو المثلم(23) ، وأبو جندب(24) .

والقوس لا تجدي نفعاً بدون نبال ، ولا بد للنبال من كنانة تحمل بها وتحفظها ، ولقد تنبه أوس بن حجر الى ذلك ، فوصفها بأسلوبه المعروف دقة واستقصاء ، فكان من عدته للحرب أيضاً كنانة محشوة نبالاً ، تحذق في بريها وتأنق الصانع ، فاختار خشبها وصقله ،

---

(17) ديوانه : 48-50 . الشرعبي : نوع من البرود ـ السيراء : الذهب أو أنواع من البرود ـ الكوري : الذهب المصنوع بالكور ـ أميرها : قلبها ـ لاهز : دافع ـ حامز : شديد ممض محرق ـ الخال : ثياب تصنع في اليمن ـ الجلد المقروظ : المدبوغ بالقرظ ـ ذاق القوس : جذب وترها اختبارا ـ انبضها : جذب وترها لترن ـ أسلمته : خذلته وتركته النواقز : جمع ناقزة وهي قوائمه ـ تميره : تصب فيه الماء ـ الانداء : جمع ندى ، وهو المطر والبلل ـ اشعرت : البست ـ جيدا : ثوبا ناعما ـ المعاوز : الثياب الخلق .

18) الوصف في الشعر العربي : 1-304

(19) لامية العرب : 32-33 (شرحها وحققها الدكتور محمد بديع شريف بيروت 1964) .

(20) ديوان الطفيل : 31

(21) ديوان حميد 113

(22) شرح أشعار الهذليين : 1-258, 259

(23) المصدر السابق : 1-272-273, 274, 275

(24) المصدر السابق : 1-359

وجعل منه نبالاً ، ثم ركب لها النصال ، وتلك النصال كانت تتوهج توهج جمر الغضا في يوم ريح اطاز رماده ولما أدرك أنه أتم صنعها ، ولم يبق الا وضع الأسنة وصقلها ، جاء بريش لين أغبر يلائم بعضه بعضاً ، فكساها به ، ولتلك النبال صوت اذا أدير على الظفر أو حركت على الأصابع بالندى ، فكيف اذا أديرت في الجفاف ؟ ، وصوت النبال يشبه صوت الوحش المطفلات اللاتي يرتعن في واد خصيب كثير البقل :

وحشوِ جفيرٍ من فروع غرائب ... تنطّع فيها صانع وتنبّلا
تخيّرْنَ انضاءً وركبن أنصلا ... كجمر الغضا في يومِ ريح تزيّلا
فلما قضى في الصُّنع منهنّ فهْمَهُ ... فلم يبق الاَّ أنْ تُسَنَّ وتَصْقلا
كساهُنّ من ريشٍ يمانٍ ظواهرا ... سخاما لؤاما لين المسن أطحلا
يَخُرْنَ اذا أنفرن في ساقط الندى ... وان كان يوماً ذا أهاضيب مخضلا
خوار المطافيلِ الملمعةِ الشّوى ... واطلائها صادفْنَ عرنانَ مقبلا(25)

ونجد ابن مقبل يصف النبال أيضاً ، ونراه يعالج الأفكار التي عرضها أوس نفسها ، فهو يعدد أنواعها ، فهناك المنيح والصريع والمجبر ، تخيرها من نبع العيكتين الشامختين ، حيث الهلاك لوعورة المسالك اليها ، وهما مرتفعان يعجز الطير عن ادراك قمتيها ، وبعد حصوله على النبع عكف على تشذيبه ، وتثقيفه ، ليجعل منه نبالاً تفدى لجودتها ونفاستها ، فهي لينة تطيع غمزة البنان ، ولونها أصفر كأنها الزعفران المعطر :

وأزجرُ فيها قبل تمّ ضحائها ... منيح القداحِ والصريع المجبّرا
تخيّرٌ نبع العينين ودونه ... متالف هضبَ تحبس الطير أوعرا
فما زال حتّى نال متغلغلٌ ... تخيرً من أمثاله ما تخيّرًا
فشذّبَ عنه النبع ثمّ غدا به ... مُجلّىً من اللائي يفدّيْنَ مطْحَرا
يُطيعُ البنانَ غَمْزه وهو مانعٌ ... كأنّ عليه زعفراناً معطّرا
تخرُّ حِظاءُ النبعِ تحتَ جبينهِ ... اذا سخت أيدي المفيضين صدّرا
تبادره أيدي الرجال اذا بدت ... نواهدَ من أيدي السرابيل حسرًا(26)

---

(25) ديوان أوس : 89 -90 . الجفير : الكنانة ـ وحشوها : السهام ـ الغرب : نوع من الشجر ـ تنطع وتنبل : تحذق في صناعته وتأنق الانضاء : جمع نضي : وهو السهم الذي لم يبر بعد ـ وتزيلا : تتطاير ـ السخام من الريش : اللين الحسن ـ اطحلا : أغبرا ـ عرنان : واد واسع .

(26) ديوان ابن مقبل : 134 -139 . ازجر فيها : أي أضرب في هذه الناقة بقداح الميسر ـ قبل ضحائها : قبل فراغها من غذائها لمنيح : الذي يستعار لجودته ـ الصريع :الذي يصنع من عود يابس سقط من شجرته ـ المجبر :الذي انكسر =

وممن وصف النبال ذاكراً الشجر الذي اقتطعت منه ، أو منوهـا بلونهـا وصوتها وجودتها ، المتنخل بن عويمر الهذلي(27) ، وكعب بن زهير(28) ، والفرزدق(29) ، والراعي النميري(30) أيضاً .

ولقد اصطاد العرب بنبالهم مختلف الطرائد ، فهم صوبوها نحو بقر الوحش ، هذا جرير يذكر صيده بالنبال ، وان كان في معرض الكناية ، وأورد طريقة أخرى للصيد ، سنعود اليها في موضعها المناسب ، وهو يقصد النساء :

بقـرٌ أوانسُ لم تُصِبْ غِرَّاتِها   نبلُ الرُّماةِ ولا رماحُ المستمِي(31)

واصطادوا بالنبال الظباء أيضاً ، واليك ابن الدمينة ، ولو كان يقصد بالصيد الحب هنا ، ولكنه توسل في بسط معانيه باحدى وسائل الصيد وهي النبال ، فهو لم يختلق صوراً غريبة عن بيئته ، وانما نراه محاكياً ما كان معروفاً في مجتمعه :

أذاهبةٌ نبلي شعاعاً ولم يكنْ   لها من ظباءِ الواديَيْنِ نصيبُ(32)

أما صخر الغي فانه أورد صورة لصيد الوعول بالنبال :

أحاط به حتى رماهُ وقد دنا   بأسمرَ مفتوقٍ من النبلِ صائبِ(33)

والخلاصة أنهم اصطادوا بالنبال كل ما أدركته ونالت منه مقتلاً من الطرائد على اختلاف أنواعها .

2 ـ البندق

يصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص على هيئة كرات صغيرة وترمى بالأقواس ،

= فجبر ـ العيكتان جبلان ـ متالف : مهالك . يطيع البنان غمزه : كناية عن لينه وهو مانع : اي وهو شديد ـ الحظاء : نبل صغار يرمي بها الصبيان واحدها حظو ـ يريد بها القداح ـ اذا سخت : اي اذا برزت ايدي المفيضين سانحة برز هذا القدح بصورة ليخرج ـ المفيضون : الذين يجلبون القدح عند الضرب بها ـ صدر : أي برز بصدر ـ نواهد : مرتفعات ـ أيدي السرابيل : الأكمام .

(27) جمهرة أشعار العرب 233٪

(28) شرح ديوان كعب : 183

(29) شرح ديوان الفرزدق : 2-565

(30) شعر الراعي : 24

(31) شرح ديوان جرير : 491

(32) ديوان ابن الدمينة : 110

(33) شرح أشعار الهذليين : 1-250

ولقد ظهرت في أواخر خلافة عثمان (رضي) وكان ظهورها منكرا[34] ، حتى ألفها الناس ، ثم استمروا في استعمالها وتحسينها وباتت احدى وسائل الصيد المعروفة ، وانبرى شعراء الطرد لوصفها ، ويقول الجاحظ (وكل قوس بندق فانما جيء بقناتها من بروص (بفتح الباء وسكون الراء وفتح الواو) ومدح ببريها وصنعتها عصفور القواس[35] ، وأورد أبياتاً للفضل بن عبد الصمد الرقاشي وصف بها القوس والبندق ، فقد جيء بها من بروصاء ، واختيرت كافية الطول ، محكمة العقد ، مستوية سالمة من الفقرات ، اعتنى بها براء ماهر ، فأعمل فيها مبارده ، وأخذ لحاءها ، حتى صارت تشبه الحية الصفراء ، وهي ترنو الى الطائر المحلق في الجو ، سريعة فتح العين وتغميضها :

أنعتُ قوساً نعتَ ذي انتقاءِ ... جاء بها جالبُ بروصاءِ[36]
عندَ اعتيامٍ منهُ وانتضاءِ ... كافية الطول على انتهاءِ
مجلوزة الأكعب في استواءِ ... سالمة من أبَنِ السيساءِ
فلم تزلْ مساحِلُ البَّراءِ ... تأخذُ من طوائِفِ اللحاءِ
حتى بدت كالحيَّةِ الصفراءِ ... ترنو الى الطائرِ في السماءِ
بمقلةٍ سريعةِ الأقذاءِ ... ليست بكحلاء ولا زرقاءِ[37]

ويروي الجاحظ أربعة أبيات أخرى لم ينسبها ، فيها وصف للصيد بالبنادق ، فالشاعر قد خرج مع فتية للرمي بالبندق في وقت مبكر جداً ، عند اختلاط الظلام بالنور وقت السحر ، حسروا اذرعتهم واستعدوا للصيد وحملوا على عواتقهم أوعية البندق المصنوعة من أدم ، فمنها ما هو مظفور ، ومنها ما هو متداخل ، قد أمسكت أكفهم بالقسي التي جلب خشبها من بروص ، وانصرفوا للطير قبل انطلاقه للبحث عن قوته ، لها عيون ترصد الطير وهي بأيدي الرماة ، بطونها خالية ، أما قشر ظهورها فكأنه شقق الحرير :

وقد أغتدى مَلَثَ الظلامِ بفتحة ... للرمي حسروا لهُ عن أذرعٍ

---

(34) النفحات المسكية : 73
(35) البيان والتبيين : 3-87 (شرح حسن السندوبي ط3 القاهرة1947)
36 البيان والتبيين: 3-87 .
البندق : أصلها الفارسي جلاهق ، وسميت بالعربية بندق ، ومنها اشتقت البندقية على طريق النسبة .
(37) البيان والتبيين : 3-87 . مجاوزة الأعب : محكمة العقد ـ ابن السيساء : عقد الفقرات ـ مساحل البراء : مبارد باري السهام ـ اللحاء قشر العود : الأقذاء : سريعة فتح العين وتغميضها .

متنكبين خرائطاً لبنادقٍ من بين مظفورٍ وبين مُرَسَّعِ
بأكفِّهم قضبانُ بَرْوص قد عَدَوا للطير قبل نهوضها للمرتعِ
تقدى قنيَّاتُ الطيور عيونهَا يوماً اذا رقدتْ بأيدي النزعِ
صفر البطون كأنَّ ليطَ بطونها سرَقُ الحرير نواظرٌ لم تشبَعِ (38)

ولأبي نواس أكثر من طردية في وصف الصيد بالبندق(39) ، الذي صار له مكانة مرموقة في العصر العباسي ، فأفتن الشعراء به وتفننوا في وصفه ، من ذلك احدى أرجوزتيه التي ذكرها كشاجم في صيد الأوز ومطلعها :

يا ربَّ سربٍ من أوزّ ريَّعِ في صخبِ الحوت برود المكرعِ

ثم يصف ذلك الأوز بأربعة أبيات ، بعدها يذكر وقت خروجه مع جماعته للصيد وقد لبسوا القمصان الرقيقة الطويلة الخفيفة الجميلة :

.... غاديتُها قبل الأذانِ المسمعِ
وقبل وعواعِ الغرابِ الأبقعِ بكل هفهاف القميص شعشعِ

وبعدها يذكر البنادق التي صنعت من الطين المدحرج الذي لم يخلط بتراب ، ووضعت في مخالي الأدم ، فكأنها السم القاتل :

وشقق صفر لذاذ المترع أوفى مخالي الأدم المرصَّع
مدحرجات كالسهامِ المنقعِ من طينة لم تختلطْ بأجرعِ
ولم تخالطْ نشجاً فتودعِ حتى اذا أمكنَ كل مطمعِ
وجوَّدوا حرَّ ضواحي الأذرعِ ولقح الأيدي بِنزع مبلع

وأخيراً يبلغ نهاية الطرد فيقول : لقد دنت ساعة البغاث والسمك والقعقع ، وظل أبو نواس وأصحابه يعيشون عيشة ناعمة لطيفة ، ينشلون اللحم من القدر بأيديهم ، ويتناولونه طعاماً شهياً ، في منزل اتخذوه لهذا الغرض :

حانتْ منايا البغثِ المولَّعِ وكل هجاةٍ وكل قعقعِ

---

(38) البيان والتبين : 88, 87/3 . ملث الظلام : اختلاطه بالنور زقت السحر ـ متنكبين : حاملين على عواتقهم ـ الخرائط : أوعية البندق ـ القضبان : القسي ـ النزع : الرماة ـ صفر البطون : خالياتها من الطعام ـ ليط متونها : قشر ظهورها ـ سرق الحرير : شققه .

(39) روى له كشاجم اثنتين ، احدهما قافية والأخرى عينية ، واقتصر ديوانه على واحدة هي الهائية . انظر المصائد : 249- 252 ، وديوانه : 668 -669

يحــومُ أثنــاء معــى مقطعٍ فظــل أصحابــي بعيش خروعِ
من النشيل الــرخص والمشعشعِ في منــزلٍ ليس لنــا بمبدعِ
من يمتع الله بعيشٍ يمتع(40)

3 ـ الرماح والعصي

الرماح من أسلحة العربي التي لجأ اليها في حربه ، واستعان بها على عدوه وصيده ، واحتلت مكاناً مكيناً في حياته ، فشغف بها ، واهتم بأصولها وأشكالها وصناعتها ، ووضع لها الأسماء ، وما ذكره الثعالبي(41) يعد كافياً لاعطائنا فكرة واضحة عن أهمية هذا السلاح في حياته .

وهذا سلامة بن جندل يصف رمحاً ، فهو مكتنز الجوف ، صلب من صنعة ردينة يحمله غلام شجاع كريم :

واصــمَّ صَدْقــاً من رمــاح ردينة بيدي غلامٍ كريهــةِ مخراق(42)

ونجد أن فرسانَ العرب متقنون الطعن بالرماح ، وبات هذا من مظاهر شجاعتهم وبطولتهم ، ومن السجايا المحمودة فيهم ، ونرى الخرنق في رثائها زوجها عليمة بمهارته في طعنه أعدائه ، فهي تتساءل عن فارس غيره يستطيع طعن خصومه بالرماح ويرجعه مثله ، وقد تمضخ بالدماء :

ومــن يرجــعُ الرمــحَ الأصــمَّ كعوبهُ عليهِ دمــاءُ القــومِ كالشقراتِ(43)

ويؤيد ما جاءت به الخرنق فخر عنترة بطعنه خصمه برمح مثقف صلب ، قد أتم صانعه تقويمه ، استطاع عنترة أن ينفذ ذلك الرمح في ثيابه وجسمه ثم يقول : ان الكريم غير محرم على الرماح ، لأنه حريص على الأقدام فيكون أول المطعونين :

جادتْ له كفــي بعاجــلِ طعنة بمثقَّف صَدْقِ الكعــوبِ مقوَّمِ
فشــككتُ بالرمــحِ الأصَّــمِ ثيابَهُ ليس الــكريمُ على القنــا بمحرمِ(44)

---

(40) المصائد : 251-252 . الأجرع : التراب ـ النشج : مجرى الماء البغث : جمع بغاث وهو طائر أغبر اللون ـ الهجاة : نوع من السمك ـ القعقع : طائر ابلق ضخم من طيور الماء .

(41) فقه اللغة : 368-370

(42) ديوان سلامه : 151

(43) ديوان شعر الخرنق : 34

(44) ديوان عنترة : 26

ولكي تكون الرماح حادة الرؤوس نافذة يعمد صانعها الى وضع الحديد عليها ، فتبدو زرقاً لصفائها ، حمراً لاشتداده ، وهم شجعان كما يقول سلامة بن جندل ، يقتلون قادة الخصوم ويرفعون رؤوسهم على أسنة رماحهم .

زرقاً أسنتُها حمراً متقفة أطرافهُنّ مقيل لليعاسبِ(45)

وربما سموا الرماح بالقنا ، كما مر في شعر عنترة ، وكما ورد في شعر كعب بن مالك الأنصاري يجيب به هبيرة بن أبي وهب في احد قائلاً له : ان رماحنا تنفذ فيكم فتحدث الطعنات المتسعة ، فتنزف الدماء كأنها أفواه المزادات يندلق منها الماء آنا فانا :

تكرُّ القنا فيكم كأنّ فروغَهَا عَزالى مزاد ماؤها يتهزّع(46)

والصيد بالرماح مألوف عند العرب ، تردد ذكره في شعرهم ، ومن ذلك ما جاء في شعر عدي بن زيد العبادي واصفاً صيد حمر الوحش ، اذ هجم غلامهم بالقناة على حمار فبلغه بفرسه سريعاً ، وتمكن أن يملأ الفجوة التي كانت بينه وبين الحمار بذلك الرمح ، ويجهز عليه :

أحالَ عليهِ بالقناةِ غلامُنَا فأذرع بهِ لخلة الشاةِ راقعا(47)

وفي مدح الفرزدق لخالد القسري ، وهو في السجن ، يذكر صيدهم للطرائد بالرماح ، مشبها بالصياد من يروي له شعرا قاله :

وراوٍ عليَّ الشعرَ ما أنا قلتهُ كمعترضٍ للرمح دون الطرائد(48)

وقد استخدموا العصا في الصيد ، يحذفون بها الطريدة حذفاً فتصيبها فتعقرها ، أو تنجو والرعب يأخذ عليها المسالك ، ولا سيما اذا كان يحوم فوقها جارح ذو مخالب فتاك ، بتلك الطريدة ، وكانت أرنباً ، شبه الفرزدق بني عامر وهم يعطون أموال غني وباهلة في النوائب ، وكانوا أذلاء :

تعطى ربيعةُ عامرٍ أموالهَا في غيرِ ما اجترموا وهم كالأرنبِ
ترى وتُحذفُ بالعصّي ومالها من ذي المخالب فوقها من مهربِ(49)

---

(45) المفضليات : 1 -121
(46) ديوان كعب بن مالك : 129
(47) ديوان عدي142
(48) شرح ديوان الفرزدق : 1 -158
(49) المصدر السابق : 1 -37 .

1 ـ القوس والنبال

القسي (أعواد من خشب لين منثن قوي تتقوس كالهلال ويثبت فيها وتر من جلد الابل ترمي به السهام)(5) ، وهي نوعان : قوس اليد وهي العربية ، والأخرى قوس الرجل وهي الأفرنجية(6) ، ويقول ابن هذيل الأندلسي : (فالقوس العربية أنسب للفارس ، لأنها أسرع وأقل مؤنة ، والقوس الافرنجية أنسب للراجل لأنها أبلغ وأكثر معونة ، ولا سيما في الحصار والمراكب البحرية وشبه ذلك . وهي خاصة بأهل الأندلس ، بها يصيدون ، وعنها يرمون ، وفيها يتنافسون ، وعليها يعتمدون فرساناً ورجالاً)(7) .

(وكانت العرب تتخذ القسي من شجر الضال والنبع والشوحط والسدر والشريان والسراء والتين والأشكل والحماط والتالب والنشم)(8) ، واستخدموها في حربهم وصيدهم ، ولقد حذقوا النزع في القوس ، أي قوس اليد ، والرمي عنها وبلغوا حدا فاق التصور ، (حتى لو أراد أحدهم أن يرمي احدى عيني الغزال دون العين الأخرى لرماها ، ولذلك سموا مهرة الرمي بها « رماة الحدق » وكان أحدهم يعلق ضباً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائه حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدةً منها(9) ولأن العرب اهتموا بالقوس كل الاهتمام فانهم (وضعوا لها ولأجزائها أسماء كثيرة ذلك شأن كل ما كان لهم به اعتناء)(10) .

ولقد عرف أوس بن حجر بوصفه الدقيق المستفيض للقوس ، فهو قد ذكرها ضمن الأشياء التي أعدها للحرب ، وانما قطعت من أعلى جبل شامخ غطاه السحاب ، أملس تنزلق فيه قدم المتسلق فكأنه قد طلي بالدهن ، ثم يسترسل الشاعر في بيان الصعوبات التي تجشمها والذي يرغب في الوصول اليها وما عاناه في بريهاوصناعتها ، متقصياً أوصافها ، معدداً مميزاتها بشيء كبير من الاسهاب الذي لم يخل من الدقة ، قد استغرق سبعة

---

(5) الحياة العربية : 248

(6) حلية الفرسان وشعار الشجعان ، لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي : 211 (تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار المعارف بمصر1951) .

(7) المصدر السابق : 211

(8) بلوغ الأرب : 3 -355 ، وانظر مصداق ذلك في فقه اللغة : 372 ، وان الثعالبي عد النبع والشوحط والشريان شجرة واحدة ، فالنبع ما كان منها في قلة الجبل ، والشريان في سفحه ، والشوحط في الحضيض .

(9) الرياضة البدنية عند العرب ، محمد كامل علوي : 128 (ط1 القاهرة1947) .

(10) بلوغ الأرب : 3|356,355 ، وتجد ما يؤيده في فقه اللغة : 372 -374

وعشرين بيتاً من قصيدته التي مطلعها :

صحـــا قلبـــهُ عن سكرهِ متأمّلا وكان بذكرى أمِّ عمـــروٍ موكّلا(11)

وفي حكاية الكسعي يتجلى الاهتمام بالقوس والنبال ، ومدى حرص العربي على اقتنائها ، وشدة رغبته في تجويدها واعدادها للصيد(12) .

والشاعر الآخر الذي اشتهر بوصف القوس والنبـال هو الشماخ ، وفي قصيدة له تتكون من سبعة وخمسين بيتاً مطلعها :

عفـــا بطـــنُ قَوّ من سُليمـــى فعالِزُ فذاتُ الصَّفـا فالمشرفـــاتُ النواشز(13)

قد خصص الشماخ منها اثنين وعشرين بيتاً لوصف القوس التي هيأها صياد اسمه عامر أخو الخضر الذي اتخذ مورداً للماء في ذي الأراكة يراصد منه الوحش ، فيمنعها خوفها من الموت الورد منه ، وهو فقير لا يملك سوى القوس والأسهم ، ولكنه ماهر حاذق ، فما يرميه لا محالة هالك :

وحلأهـــا عن ذي الأراكةِ عامـــرُ (م) أخـــو الخضرِ يرمـــي حيثُ تُكْوَى النواجزُ

قليل التـــلادِ غـــير قوسٍ واسهمٍ كأنَّ الـــذي يرمـــي من الـــوحشِ تارِزُ(14)

وعامر هذا مختبىء ، قد أعد نبالاً وقوساً مصنوعة من شجر النبع ، واختيرت من أعلى شجرة السدر البري ، وكان دونها أغصان متشابكة ، وعقبات كثيرة :

مُطـــلاً بزرقٍ ما يُداوي رَميُّها وصفـراءَ من نبـعٍ عليهـــا الجلائز

تخيرَّهـــا القَّـــواسُ من فرعِ ضالة لهـــا شذبُ من دونهـــا وحواجزُ(15)

ويستمر الشاعر في وصف مكانها وما عاناه صاحبها في الحصول عليها ، وكيف جعلها قوساً ونبالاً ، ثم اضطر الى بيعها ، فدفعه اعتزازه بها الى البكاء ، وكان ثمنها الذي

---

(11) ديوان أوس : 85-90

(12) مجمع الأمثال :2-348, 349 . والكسعي رجل من كسع اسمه محارب بن قيس .

(13) ديوان الشماخ : 43 . قو وعالز وذات الصفا : مواضع ـ المشرفات والنواشز : الأماكن المرتفعة .

(14) المصدر السابق : 46 . حلأها : منعها ـ ذو الأراكة : موضع ـ قليل التلاد : لا ملك له ـ تارز : ميت .

(15) ديوانه : 46-47

الفصل الرابع
الحيل

ومن وسائل الصيد الأخرى لجوء الصياد الى الحيلة في الايقاع بالطريدة ، فهم قد اصطادوا بالاشراك والحبائل والفخاخ وغيرها مختلف الطير والوحش ، ولقد أورد محمد المنكلي وصفاً لها ، وذكراً لمواضع نصبها ، ولا سيما للغزلان(1) ، وسأتولى الحديث عنها في ضوء ما وقفت عليه من الشعر .

ـ الحبائل والاشراك

الحبائل والاشراك من الوسائل القديمة التي استخدمها العرب في صيدهم ، وحمل شعرهم أسماءها كناية وتصريحاً ، من ذلك ما جاء في شعر النمر بن تولب متغزلاً ، مستعيناً ببعض مفاهيم الصيد وهي الرمي والحبائل :

فقلت وكيف صادتني سُليْمى ... ولم أرمِها حتى رمتني
كنودٌ لا تمنُّ ولا تُفادِي ... اذا علقت حبائلها بِرهْنِ(2)

ومثله طرفه ، ومن غريب المصادفات أن تكون المرأة سلمى بدلاً من سليمى :

وقد ذهبتْ سلمى بعقلِك كلِّهِ ... فهل غير صيد أحرزته حبائلُهُ(3)

ونجد حميد بن ثور قد فسدت حبائله ، فانصرف الى اصلاحها ، وشرع يعتذر

---

(1) أنس الملا بوحش الفلا : 133 -135

(2) شعر النمر : 117

(3) ديوان طرفة (شاكون) : 118

لاثنين من رفاقه قائلاً : شغلت باصلاح الحبالة كي أطعمكما من صيدها بعد اصلاحها :

ان الحبالـــةَ الهتنـــي ابارتها حتـــى أصيد كما في بعضِهـــا قَنَصَا(4)

أما أبو ذؤيب الهذلي فيشبه نفسه ، وقد أحب أم الرهين ، بالظبي قد ساقه القدر الى حبالة مصنوعة من الشعر ،اذ بينما كان الظبي يسير سيراً سلياً صحيحاً ، ويمر بسرعة وقع في الحبالة التي حيكت من الحبال المفتولة ، فحاول الفرار ، ولكن هيهات فقد استحكمت انشوطتها ، واشتدت على زمعة ظلفه :

وأزعـــم أنَـــى وأم الرهيـــ ـــن كالظبـــي سيق لحبـــل الشعر
فبينـــا يسَلِّـــمُ رَجـــع اليديـــ ـــن باءَ بكفَّـــةِ حبـــل مُمِرِّ
فراغَ وقـــد نشبـــت في الزِّماعِ واستحكمـــتْ مثـــل عقـــدِ الوترِ(5)

وأراد ذو الرمة أن يصور الحر الشديد ووطأته على الظبي الذي دخل أقصى كناسه ، ليتقيه ، وان الجنادب كانت تتواثب من الحر كما تتواثب الوحش التي علقتها الحبائل محاولة الخلاص :

ويوم يُزيرُ الظبـــي أقصى كناسهِ وتنـــز و كنـــز و المعلقـــاتِ جَنَادِبه(6)

وتصاد الحباري بالحبالة أيضاً ، وهذا الراعي النميري يصورهـا وهـي مستسلمة لقدرها المحتوم أثر وقوعها في حبالة الصائد ، تنظر الى الرجل الذي يقترب منها ليأخذها ، فتقلب عينيها جبنا وهلعاً :

حلفـــتُ لهـــم لا تحسبـــونَ شتيمتي بعينَـــيْ حُبـــارى في حبالـــةِ مُغْربِ
رأتْ رجـــلاً يسعـــى اليهـــا فحملقتْ اليهِ بمأقـــيّ عينهـــا المتقلِّب(7)

وحبالة الصيد صغيرة ضيقة ، أوهكذا تبدو للوحش التي تقع فيها وفي بيتين ينسبان للطرماح والقتال الكلابي ولغيرهما ، تجسيد لفزع الخائف المطلوب ، فهو يرى الأرض على رحبها ضيقة جداً فكأنها كفة حابل :

كأنَّ بلادَ اللهِ وهـــي عريضةٌ على الخـــائفِ المذعـــورِ كفَّـــةُ حابلِ

---

(4) ديوان حميد : 101

(5) شرح أشعار الهذليين : 1 -114, 115

(6) ديوان شعر ذي الرمة : 46

(7) شعر الراعي : 25

يؤدي اليه أن كل ثنيَّة تيممها ترمي اليه بقاتل[8]

ونوه زهير بالشرك وسيلة للصيد في معرض حديثه عن صقر متوحش لم ينصب له الشرك أو الشبك ، قد انقض على قطاة شبه بها فرسه :

أهوى لها أسفعُ الخدَّين مطرق ريشُ القوادم ، لم ينصب له الشرك[9]

2 ـ الفخاخ

تنصب الفخاخ للغزلان في مراتعها ومشارعها ، ولا سيما اذا كان في تلك الأمكنة بعرها ، (فان الغزال اذا عاين مكاناً فيه بعر يعبر عليه ، ويكثر الشم فيه ، فاذا نصب عليه الفخ صيد عليه)[10] .

ولقد وصف أبو نواس فخاً نصبّه للصيد ، فحطَّ قربه عصفور ، وأخذ ينقر ، وكاد الفخ أن يصيده ، ولكن العصفور انحرف عنه فلم ينقر الفخ الذي غيبه أبو نواس في التراب ، وجعله بمستواه ، لئلا ينفر منه ، وحين رأى العصفور التراب ، ورأى أيضاً حجارة مجموعة لم يفطن اليه ، ولما اقترب من الفخ وأبصر الحب ظاهراً ، بدأ يحدث نفسه ، أيقومُ على نقره أم يتركه ؟ وهاتف يزجره من الاقتراب ، وفكر وبعد نقاش مع نفسه قرر الاحجام فأسلم صدره لجناحيه وطار محوماً ، ونجا من الموت :

قد كانَ هذا الفخّ أن يعقرا وانحرف العصفورُ أنْ ينْقرَا
غيَّبتُ بالتُّرب عليهِ له بالمستوى خشيةَ أن يَنْفِرَا
كما رأى التربَ رأى جثْوَةً مائلة الشخصِ فما استنكرا
حتى اذا أشرفَها موفيا وعاين الحبَّ له مظهرَا
خاطبه من نفسهِ زاجرٌ وقد كنتُ لا أرهبُ أن يزجرا
فأعمل الفكرَ قليلاً فلا يقتلُه الرحمنُ ما فكَّرا
فأحتويت « لا » و « نعم » ساعةً ثم انجلى جند « نعم » مدبرا
فَضَمَّ كَشْحَيْهِ الى جؤجؤٍ كان اذا استنجدهُ شَمَّرَا
فلم يُرْعني غير تدويمهِ آمِنَ ما كنتُ له مُضْمِرَا[11]

---

(8) ديوان الطرماح : 581 ، وانظر ديوان القتال الكلابي : 99 ، وانظر الهوامش .

(9) شرح ديوان زهير : 171

(10) انس الملا : 134 . وثمة وصف للفخ ايضاً .

(11) ديوان أبي نواس : 661 . الجثوة (بضم فسكون) : الحجارة المجموعة ـ كشحيه : الكشح ما بين الخاصر الى الضلع الخلي وهو يريد جناحيه ـ تدويمه : تحويمه ودورانه .

3 ـ الزبى واللبابيد

كان العرب يصيدون الأسد بالزبى (وهي حفائر تحفر على نشز من الأرض وتغطي ، وفيها أو بقربها كلب أو ما أشبهه ، حتى يأتي الأسد فيسقط فيها)[12] .

وأورد كشاجم أبياتاً لم ينسبها ، فيها وصف لصيد الأسد بالزبى ، فهي حفرة جعلت على رابية ، يكمن فيها الموت ، كثيراً ما تساقطت فيها الليوث ، اذ يقع الأسد الهصور أسيرا ؛ يسوقه حظه العاثر اليها ، فهو لا يرجو مهربا ، فكانت خير عقاب لما اقترفت تلك الأسود من آثام وهكذا الأيام :

وزُبيةٍ مشرفة على الرُّبَى تضمن حتفاً تحتَها مغيِّبًا
كانت نعراتُ الليوثِ سبباً حتى ترى الهصورَ منها الأغلبا
فيها أسيراً ليس يرجو مهربا كبت به فيها الجدود فكبا
كفاء ما من الذنوب احتقبا من قدَّم الأوزارَ لاقى العبا
وهكذا الأيام تلقى عقبا[13]

وأورد كشاجم أيضاً طردية تقع في اثنين وعشرين بيتاً وصف بها عبد الله بن محمد الناشيء صيد الأسد بالزبية[14] .

أما اللبابيد فهي التي (يستتر فيها الرجال)[15] وتصنع من الصوف فاذا قدم الأسد حسر الصياد رأسه وباغته ، ثم يبادر الى تكبيله ، وبعدها يكون الأسد أسيراً لا يملك حيلة يفلت بها ، واليك أبياتاً قدمها كشاجم بقوله : (قال بعض المحدثين في صفة صيد الأسد باللبابيد)[16] فيها يبسط الشاعر خروجه مع جماعة كالأسود ليذعر بهم الأسود ، قد استتروا بلبود حمر كأنها صنعت من الحديد ، ولكنها تحميهم أكثر منه ، واختفوا في مكان تمر منه الأسود ، ولما اقتربت والشرر يتطاير من نواظرها ، أمر جماعته بالسجود ليحتالوا لها ، كانت أذنابها معقودة ، وهاماتها كالصخر الشديد ، ومع ذلك فانهم استطاعوا الايقاع بها ، فشدوا بعضها بالقيود وفر الآخر يبكي على ما فقد ، يحدث نفسه بالثأر له :

---

(12) المصائد : 179
(13) المصائد : 180
(14) المصائد : 180 - 181
(15) المصائد : 179
(16) المصائد : 179

قد أذعــرُ الأســودَ بالأسود بمثلهــا في أيدِهــا الشديدِ
في جنــنٍ حمــرٍ من اللبودِ كأنمّــا الفــنُ من حديدِ
أوقــى لهــم من جنــنِ الحديدِ حتّــى اذا سوين في صعيد
وهمهمــت همهمــةَ الرعودِ وصرن في أدنــى من الوريدِ
طواحــاً بالنظــرِ البعيدِ من حدقٍ كشعــلِ الوقودِ
كأنهُــنَّ قلــب في بيد قلــت اسجــدوا فالحيل في السجودِ
فكم لهــا من ذنــبٍ معقودِ وهامــة كالصخــرةِ الصيخودِ
وضحــكِ ينمــى الى الحقودِ فهــنَّ من مفعــل مشدودِ
وموثــق في وهــقِ ممدودِ ألــم تَرَ العُنــاةَ في القيودِ
والــوحش في الخبــاءة الصعودِ كم قد شفــى ذلك من عميدِ
وفاقــدٍ باك على مفقودِ ومــدركِ بالثــأرِ مستعيد(17)

ويثبت كشاجم طردية أخرى تقع في ستة وعشرين بيتاً ، للناشيء وصف بها صيد الأسد باللباد ، لم تبتعد عن كثير من المعاني والصور الآنفة(18) :

4 ــ حيل أخرى

عرض الجاحظ طريقة لصيد طير الماء بالقرعة ، حيث تترك في مناقع الماء ومواضع الطير قرعة صحيحة يابسة ، فتبصرها الطير ، وحين تحركها الرياح تفزع منها مرة ومرتين ، ثم لا تلبث أن تألفها فلا تنفر منها ، فيأخذها الصياد ، أو يأخذ قرعة سواها ، ويقطع منها موضع الابريق ثم يجعل فيها خرقين لعينيه ، ويدخل رأسه فيها ، وينزل في الماء ويسير ببطء وكلما اقترب منه طائر أو وصل هو اليه قبض على رجليه وغمسه في الماء ودق جناحه وتركه ، يبقى ذلك الطائر طافياً يسبح برجليه ولكنه لا يطيق الطيران ، وسائر الطير لا ينكر انغماس الصائد ، ويستمر في ذلك حتى يأتي على آخر الطير ، وأخيراً يرمي بالقرعة ، ويلتقط الطيور الطافية(19) .

وثمة طريقة أخرى تصاد بها الظباء والرئلان ، ويلتقط بيض النعام وذلك بالنار ،

---

(17) المصائد : 197- 180 . جنن : أشياء يستتر بها صائدو الأسود .

(18) المصائد : 181 -182

(19) الحيوان : 5/ 539, 540

فهي تعشى اذا رأتها[20] ، ولقد عالجنا ذلك في باب الطرائد ، ومثلها الأسد اذا رأى النار فانه يستعظمها ، وتشغلهُ عن السابلة[20] .

ومما جاء به جرير في حديثه عن نساء شبههن ببصر الوحش التي لم تصبها نبال الرماة ، ذكر صيدها برماح المستمى ، والاستماء أن يهيج الوحش في كناسه عند شدة الحر حتى تخرج منه ، ثم تترك لتعود ، وتهيج مرات أخرى حتى تتحير فلا تفارق كناسها ، فيهجم عليها الصياد بالرماح ويأخذها :

بقـــرٌ أوانس لم تصـــب غرَّاتها نبـل الرمـــاةِ ولا رمـــاح المستمى[21]

ولو شئت استقصاء ضروب الاحتيال في صيد الطرائد لوجدت أشياء عديدة متنوعة ، ولكنني أكتفي بما أوردته معتمداً على ما نوهت به عند دراستي للطرائد .

---

(20) الحيوان : 4/349، 484-485

(21) شرح ديوان جرير : 491

الباب الرابع
الدراسة الفنية

بعد هذا التطواف الواسع فيما استطعت الوقوف عليه من شعر العرب في وصف شعرائهم للصيد والطرد يحسن بي أن ألقي عليه نظرات فاحصة ، لأطلع على الجوانب الفنية لذلك الشعر .

ويطيب لي أن أتلمس تلك الجوانب الفنية في الفكرة ، والعاطفة والخيال ، والأسلوب أو التعبير ، ونهج القصيدة .

الفصل الأول
الفكرة

كان الطرد موضوعاً يرد في خلال القصيدة العربية ، ثم صار فناً قائماً بذاته ، ولكي نحدد معالم هذا الفن المهمة لا بد من تقصيه خلال العصور والأجيال والبيئات المختلفة ، وهذا يثير في أذهاننا أسئلة شتى منها :

أكان وصف الحيوان وطرده هدفاً في حد ذاته ، أم كان الشاعر يلجأ اليه استطرادا ؟

متى اتخذ هذا الفن كياناً مميزاً عن باقي الفنون الشعرية الأخرى ؟ هل توفرت وحدة الموضوع في الشعر الذي نحن بصدد دراسته ؟ ما موقف الشعراء من الصيد ؟ وانعكاس ذلك على نهاية الطريدة ؟

1 ـ وصف الحيوان :

ان القصيدة الجاهلية كانت أبياتها موزعة على أغراض عديدة ، فهي لم تقتصر على غرضها الأساس ، وانما توسل الشاعر اليه بالوقوف على الأطلال ومناجاتها في أحايين كثيرة ، وقد ينتقل الى وصف ناقته أو فرسه ، وكلتاها رفيقتا سفره ، وانيستاه في فرحه وحزنه ، فيحرص على اظهار قوتها ، وابراز سرعتها ، فيقوده هذا الى الاستطراد فيشبهها بحمار أو ثور الوحش ، ولقد مرت بنا أمثلة تعزز رأينا ، وتدعم ما نذهب اليه ؛ ومن أولئك زهير بن أبي سلمى في مدحه هرم بن سنان بقصيدته التي مطلعها :

أضاعت فلم تغفرْ لها خلواتها	فلاقَتْ بياناً عند آخر معهدِ
دماً عند شلْو تحجلُ الطيرُ حولَهُ	ويضعَ لحامَ في أهابٍ مقدَّدِ
وتنفضُ عنها غيبَ كلِّ خميلة	وتخشى رماةَ الغوثِ من كلِّ مرصدِ

فجالــتْ على وحشيِّهــا وكأنهَّا مُسرْبلــةٌ في رازقـــيٍّ معضَّدِ[1]

ولم تنتبه تلك البقرة الى فراق ولدها السريع ، حتى أحست الصيادين وقد قعدوا لها في الطرق والمخارج ، ليختلوها فيرموها، وحين شاهدها الرماة ثاروا بها من كلا جانبها حاملين اياها على الركض ، لتتعب فيتمكنوا منها :

لم تدر وشــك البــينِ حتــى رأتْهم وقــد قعــدوا انفاقَهــا كلَّ مقعدِ[1]
وثــاروا بهــا من جانبيهــا كليهما وحالــت وان يَجْشِمْهــا الشَّــدُّ تجهدِ

ولكنها لم تستسلم لمصيرها الذي قدره لها الصيادون ، وانما انبرت لكلابهم ، فكانت تسبق اللائي يأتينها من ورائها ، وتضرب بقرنيها ما تقدمها من الكلاب ، ولقد أنقذ حياتها أنها لم تنتظر مجيء الصيادين اليها ، والا قتلوها ، لذا أسرعت دون تريث وانتظار ، في وقت كانت تدفع الكلاب عن نفسها بقرن أسود ، ثم جدت في الجري حتى أثارت غباراً كالدخان الذي يتصاعد من الشجر ، فصار حاجزاً بينها وبين الكلاب ، تعينها في عدوها قوائم متشابهات كخداريف الصبيان خفة وسرعة ، تحمل صدراً متراكم اللحم مرتفعاً :

تبــذُّ الألى يأتِينَهــا من ورائها وان تتقدَّمهــا السوابــقُ تصطدِ
فأنقذهــا من غمْــرة الموت أنهَّا رأتْ أنهَّــا ان تنظــر النبــل تقصد
نجــاءُ مجــدُّ ليس فيه وتيرَةٌ وتذبيبهــا عنهــا بأسحــمَ مذوَدِ
وجــدَّتْ فألقــتْ بينهــنَّ وبينها غبــارا كما فارتْ دواخــن غرقدِ
خشيتُ دياراً بالبقيعِ فَثهمدِ دوارسَ قد أقــويْنَ من أمِّ معبدِ[2]

فبعد وصفه لأطلال أم معبد ينطلق الى ناقته الغليظة الضخمة الشديدة ، فيشبهها ببقرة وحش قصيرة الأنف ، في نشاطها وحدتها ، لها خدان أسودان في حمرة ، وهي أم

---

(1) أضاعت : تركت ولدها ، وغفلت عنه ـ بياناً : دليلاً ـ آخر العهد : آخر مكان تركته فيه ـ الشلو : بقية الجسد ـ اللحام : جمع « اللحم » ـ الأهاب : الجلد ـ المقدد : المخرق المشقق ـ تنفض : تنظر هل ترى فيه ـ الخميلة : رملة ذات شجر ـ الغيب : كل ما استتر عنك ـ الغوث : قبيلة من طيء ، وخصهم لأنهم أهل رماية وصيد ـ جالت : جاءت وذهبت ـ الوحشي : الجانب الذي لا يركب منه ، وهو الأيمن ـ الرازقي : ثوب أبيض ـ المعضد : المخطط ، شبه البقرة بالثوب في بياضها ، وتخطيط قوائمها ـ يجشمنها : يكلفها الجري ـ تجهد : تسرع وتجتهد ـ تبذ : تسبق ـ النبل : مضاف اليه : تنظر أصحاب النبل أن يجيئوا ـ تقصد : تقتل ـ اسحم مذود : قرن أسود .

(2) شرح ديوان زهير (بيروت) : 121 -127 ، طبعة الدار القومية219 -231. سامعتين : أذنين ـ جذر : الأصل والمدلوك =

فرقد ، قد هامت على وجهها مذعورة لها سلاح تدفع به الخطر ، ويطمئن نفس الخائف الفريد :

كخنساء سفْعاء الملاطم حُرَّة مسافرة مزؤدة أم فرقد
غَدَتْ بسلاح مثلهِ يتَّقي بهِ ويؤمن جأش الخائف المتوحد(2)

ثم يمضي زهير في تتبع أحوال تلك البقرة الوحشية ، متناسياً ناقته كي يهيء ظروفاً تتجلى خلالها قوة البقرة وشدتها ، فيبني على ذلك استنتاجه وأدلته على قوة ناقته ، وشدة احتمالها ، ولأجل أن تستنفد الصورة أغلب معالمها لا ينسى سامعتيها وعينيها ، ثم ينتقل الى وصف مرعاها الذي ذهبت اليه ، فظفرت السباع بولدها الذي تركته في الكناس ، ولما عادت وجدت ما أشعرها بهلاكه ، فثمة بقية من لحم ودم في جلد ممزق ، وعند خميلة أخذت تتلفت حذرا ، خشية من صيادي غوث الذين يترصدونها ، فشرعت تجول على جانبها الأيمن هنا وهناك ، وكأنها ترتدي ثوباً أبيض مخططاً :

وسامعتين تعرف العتق فيهما الى جِذْر مولوكِ الكُعوبِ مُحَدَّد
وناظرتين تطحران قذاهما كأنهما مكحولتان بأثمدِ
طباها ضحَاءُ أو خلاء فخالفت اليه السِّباعُ في ومرقدِ
بملتئمات كالخذاريفِ قوبِلتْ الى جَوْشَنٍ خاظي الطريقةِ مسْندِ

ولحظنا زهيراً كيف شغله وصف الناقة عن نفسه ، وكيف انصرفَ الى تشبيهها بالبقرة ، وهذا دفعه الى الاستطراد في اثارة معركة حامية الوطيس بين تلك البقرة والصيادين وكلابهم ، ثم ارتد مسرعاً الى ناقته ليعلن أنها تنقله الى هرم بن سنان ، لا يمنعها قيظ الهاجرة ، أو الليل الطويل ، تاركاً الصراع بين البقرة والكلاب دون أن يضع له نهاية ، فتسلل الى الغرض الرئيس من قصيدة وهو المدح :

الى هرم تهجيرها ووسيجها تروح من الليل التمام وتغتدي

ويصلح أن يكون زهير مثلاً للشعراء في منحاه هذا ، ولكن الغرض الرئيس قد

= الأملس ـ الكعوب : عقد العصا : تطحران قذاهما : ترميان به ـ الأثمد : كحل أسود ـ طباها : دعاها ـ ضحاء : عداء ـ خلاء : خلو المكان .

يتغير ، فربما يكون دعوة الى القتال ، وربما يكون فخراً أو اعتذاراً أو شيئاً آخر من أغراض الشعر الجاهلي .

والذي أريد استخلاصه ، هو أن وصف الصيد والطرد في العصر الجاهلي لم يكن هدفاً في حد ذاته ، وانما كان الشاعر يلجأ اليه استطراداً .

وانبثق نور الاسلام ، وانطلق العرب من جزيرتهم ، وسكنوا الشام والعراق ، وشغلتهم أيام الفتح وشؤون الادارة والحكم والحروب ، فضعف اقبالهم على نظم الشعر بعض الضعف ، فلا عجب والحال هذه أن يستمر الشعراء الوافدون على خلفاء بني أمية وأمرائهم ، وجلهم من سكان البادية الذين كرهوا العيش في المدن والاقامة فيها ، في انتهاج الأسلوب القديم في المديح والافتخار والحماسة والنسب والهجاء وذكر الخمر ، ولا سيما في القرن الأول الهجري ، ذلك الأسلوب الذي حدده شعراء الجاهلية(3) .

ولقد نوهت عند دراستي لوصف الطرد في العصر الجاهلي بأنهم كانوا يشبهون الناقة أو الفرس بالحمار أو البقر الوحش ، واستشهدت بشعر زهير ، وهذا لا يعني اقتصار الشعراء في تشبيهاتهم على هذين الوحشين ، وانما وجدت في العصر الجاهلي الذي سلك منهج شعرائه شعراء العصور التالية أقول وجدت الظباء والنعام والقطا والحباري والهدهد ، كل ذلك كان له حظ في شعرهم ، وقد يختلف المشبه وفق الظروف ، فابن الدمينة حين يلمح ظبية أدماء ذات غزال ترعى أعالي وادي ذي سدير في اليمامة ، يلفت نظره خفقان أحشائها لكثرة شرودها هرباً من الصيادين ، فاستطاعت أن تمنع عنها الرماة ، وتعجزهم عن قنصها ، يتذكر حبيبته ، ويفضلها على تلك الظبية ، وبالأخص حين يجول وشاحها وعقودها :

وما مغزلٌ أدماء خفّاقة الحشا ... طويلٌ في أعالي ذي سدير مرودها
رماها رماة الناسِ حتى تمنَّعتْ ... على كلِّ رام منهم لا يصيدُها
بأحسن منها يوم جالَ وشاحُها ... وأحسن منها يوم جالتْ عقودها(4)

فابن الدمينة اتخذ من مشهد الظبية الطريدة جسر الى تصوير حبيبته لا هدفاً ، والشاعر لم ينو وصف صيد الظباء ، وانما لاذ بهذا الأسلوب ، ليصل الى تكوين الظروف

(3) تاريخ الآداب العربية ، كارلو نالينو : 130- 131 (القاهرة1954) .
(4) ديوان ابن الدمينة : 51

التي تساعده على ابراز محاسن حبيبته .

وابن الدمينة مثل سلفه عامر بن الطفيل حين أراد أن يوضح شراد خصومه بعد قتل رئيسهم ، فانه ثارت في ذهنه حال النعام ونفاره بالطرد ، رغبة في صيده :

قتلنـــا كبشَهُـــم فنَجَـــوا شِلالا كما نَفَّـــرْتَ بالطـــرْدِ النَّعاما(5)

ولقد مدح الراعي النميري عبد الملك بن مروان بقصيدة (عدتها تسعة وثمانون بيتاً وشكا فيها السعاة ، وهم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان)(6) وكيف تركوا رئيس القوم في الفلاة يستنجد أمير المؤمنين والرياح تعصف فتثير الرمال ، فكأنها تجر ذيولاً :

يدعـــو أمـــير المؤمنـــين ودونه خرْقٌ تجـــرُّ به الـــرياح ذيولا(7)

فتترامى الى ذاكرته صورة الهدهد وقد كسر الرماة جناحه ، وبقي على قارعة الطريق ، لا يقوى على الطيران ، يهدل فكأنه يستغيث ويتألم :

كهـــداةٍ كسر الرمـــاةُ جناحَهُ يدعـــو بقارعـــةِ الطـــريقِ هديلا(7)

والقطاة هي الأخرى كانت مما يصاد ، وحين يعلق جناحها شركاً من أشراك الصيادين تخفق بشدة ، لذا نرى عروة بن حزام قد استرعى انتباهه خفقان قلبه وخيل اليه أنها قد ربطت عليه ، فهو يخفق خفقانها :

كأنَّ قطـــاة عُلِّقـــتْ بجناحها على كبـــدي من شدةِ الخفقانِ(8)

وهو لم يرد وصف صيد القطاة بالشرك ، لولا أنه قد اتخذه وسيلة لتصوير مبلغ خفقان قلبه .

وفي بحثي عن الخيل ، ودراستي لها وسيلة للصيد قدمت صوراً عديدة لها عرضها الشعراء ، ووجدناهم قد سلكوا معها ما سلكوه في تشبيههم الناقة بالوحش الطريد ، وفي رأيي أن ذلك كاف لايضاح الفكرة عنها .

2 ـ متى اتخذ فن الطرد شكلاً مستقلاً ؟

من هذه الأمثلة التي أوردتها ، والتي تمثل الاتجاهات البارزة في الشعر العربي حتى

---

(5) ديوان عامر : 110

(6) خزانة الأدب : 3-131

(7) شعر الراعي : 138

(8) شعر عروة بن حزام : 13

نهاية القرن الأول الهجري ، تبين أن الشعراء في تعرضهم لوصف الصيد والطرد كانوا مستطردين ، ولم يهدفوا اليه قصداً .

ثم شهد العصر الأموي ميلاد فن الطرد أيضاً ، اذ (كان الشمردل صاحب قنص وصيد بالجوارح ، وله في الصقر والكلب أراجيز كثيرة)(9) ، ولقد سجل الأصفهاني له أرجوزة عدتها خمسة عشر بيتاً في وصف القنص بالصقر(10) ، وكذلك محمد بن بشير الخارجي ؛ وهو (من شعراء الدولة الأموية)(11) ، فقد ذكر له الأصفهاني أيضاً أرجوزة في المولى الصائد أثر خبر عن خروجه مع جماعة يرمي الأروى ، وهي تقع في سبعة أبيات .

ولقد نقلت لأبي نجم (+) الراجز (ت = 120 هـ) أبياتاً أربعة في وصف الفهود ، وهي مما رواه الأصفهاني ، واني أعتقد أنه من غير المعقول اقتصار محاولة أبي نجم على هذه الأبيات ،على ما فيها من وضوح وبعد عن التعقيد ، وهذا مما لم يعرف في شعر الطرد ، وأستطيع أن أتصور محاولات أخرى لهذا الراجز ، ولكنها لم تصل الينا .

وثمة راجز آخر هو أبو نخيلة الحماني (+ +) (قتل قبل150 هـ) ، قال عنه ابن

(+) هو الشمردل بن شريك بن عبد الملك ، من بني ثعلبة بن يربوع من تميم ، وهو شاعر مقتدر صحيح اللغة متين السبك ، نجد له أحياناً غرابة في الألفاظ ، أشهر فنونه الرثاء في أخوته ، وله طرد جيد ، ثم له أشياء من المدح والخمر والغزل . ذكر خير الدين الزركلي أن وفاته كانت نحو (80 هـ = 700 م) ، أنظر الاعلام : 3 -255 (ط3 بيروت 1969) ، ولقد حقق عمر فروخ في وفاته فكانت بعد عودته من خراسان وانه كان يحيى في أيام سليمان بن عبد الملك ، وهو من أتراب الفرزدق وجرير ، ثم توقع أن تكون وفاته بعد سنة (100 هـ =718 م) مستنداً على حادثة له مع الفرزدق اذ اغتصب من الشمردل بيتاً جعله في قصيدة ذكر فيها مقتل ابن مسلم (96 هـ =715 م) انظر تاريخ الأدب العربي (فروخ) : 1 -586 ، وهو الراجح عندي للأسباب المعقولة التي ذكرها عمر فروخ .

(9) الأغاني : 13 -361

(10) الأغاني : 13 -361

(11) الأغاني16 -102

(+) هو أبو نجم الفضل (أو المفضل) بن قدامة العجلي ، ولد حوالى (40 هـ) وكان مسكنه في ضواحي الكوفة ، وكان يأوي الى المساجد ، اتصل بعبد الملك بن مروان والحجاج ، ووفد على هشام بن عبد الملك وكان قد ناهز السبعين ، وأقطعه موضعا بقي فيه حتى مات سنة (120 هـ =738 م) في الأغلب . انظر تاريخ الأدب العربي (فروخ : ,683 682- 1

(+ +) اسمه يعمر ، وانما كني أبا نخيلة ، لأن أمه ولدته الى جنب نخلة وهو من بني حمان، كان شاعراً مكثراً غلب عليه الرجز ،.مدح أبا جعفر المنصور بأرجوزة حضه فيها على تحويل ولاية العهد الى ابنه محمد المهدي ، فغضب عيسى بن موسى ودبر قتله ، وقد حمل المنصور عيسى بن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد سنة (150 هـ =767 م) ولذا يكون مقتل أبي نخيلة قبل ذلك .

المعتز : (وله في الطرد اراجيز كثيرة مشهورة)(12) ، وصف بها الصيد ووسائلة وطرائده، وأورد له طرديتين في وصف طرد النعام ، وقال أن (أعاجيب أبي نخيلة في القنص وغيره كثيرة)(13) ، ووجدت في العصر العباسي الأول شعراء آخرين قد نظموا في وصف الطرد ، منهم الرقاشي (+) (ت =200 هـ) فان الجاحظ روى له أرجوزتين في صفة الفهد(14) كما أنه روى للشاعر أحمد بن زياد بن أبي كريمة (+ +) قصيدة في صفة صيد الكلب والفهد تتكون من ثلاثة وثلاثين بيتاً(15) ، (وقد عني أبو نواس عناية خاصة بهذا الباب ، لأنه كان من الأمور التي تؤثرها الأمراء ، وأغلبهم مولع بالصيد ، وكان شاعرنا يخرج بصحبتهم اليه ، ويرجع وملء حقيبته صور رائعة متنوعة)(16) ولما كان أبو نخيلة سابقاً لأبي نواس نجد الدكتور شوقي ضيف يقرر أن أبا نواس قد (صنع على مثال طردياته طرديات جديدة أظهر فيها براعة وتفوقاً منقطع النظير)(17) ، وهذا رأي منطقي ومقبول ، اذ ليس من المعقول أن يتحفنا أبو نواس بهذه الطرديات المتكاملة دون سابق محاولة ، أما ابن منظور فيقول عن أبي نواس : (وأجود شعره(18) في الخمر والطرد ، وأحسن ما فيها مأخوذة ليس له ، وانما سرقه) ثم يقول : (وقوله : « كطلعة الأشمط من جلبابه » فانه أخذه من قول أبي نجم : « كطلعة الأشمط من كسائه »)(18) ، واذا شئنا الا نبخس أبا نواس حقه

فأقول : ان له فضل التجويد والارتقاء بهذا الفن ، ومكث الشعراء الذين جاءوا بعده ينسجون على منواله ويقلدونه .

كنـــاس

---

(12) طبقات الشعراء لابن المعتز : 66

(13) طبقات ابن المعتز : 67

(+) الفضل بن عبد الصمد بن الفضل ، أبو العباس الرقاشي الشاعر من أهل البصرة قدم بغداد ومدح هارون الرشيد ، ومحمد الأمين والبرامكة . وكان هو وأبو نواس يتهاجيان ، وما أمسك واحد منهما عن صاحبه حتى فرق الموت بينهما . انظر : تاريخ بغداد12 -345 (طبعة دار الكتاب العربي ببيروت بطريقة الأوفيست) وبعد موت الرشيد وانقراض البرامكة خرج الرقاشي الى خراسان واتصل بطاهر بن الحسين وما زال فيها حتى مات نحو سنة (200 هـ =815 م) انظر : تاريخ الأدب العربي (فروخ) : 2-169 ، وانظر الاعلام : 5-356

(14) الحيوان : 6-472, 473, 475

(+ +) من معاصري الجاحظ ، اذ نقل عنه بعض الأخبار في الحيوان الذي ألفه باسم محمد بن عبد الملك الزيات المتوفى سنة 233 . انظر الحيوان : 3-349, 350 . وانظر دائرة المعارف للبستاني : 320.

(15) الحيوان2-367, 373

(16) تأريخ الأدب العربي (الفاخوري) : 404

(17) الفن ومذاهبه : 126

(18) أبو نواس ، ابن منظور المصري : 67 (قدم له وأشرف عمر أبو النصر ، بيروت1969) .

3 ـ وحدة الموضوع :

أكثر قصائد العصر الجاهلي تفتقر الى وحدة الموضوع (فالشعر الجاهلي يكاد يخلو من المنطق والترتيب العقلي ، فليست للقصيدة وحدة تأليفية في أكثر الشعر الجاهلي ، وان كان ثمة وحدة فكرية تربط بين أجزائها في عقل الشاعر)(19) ، بينما نجد البيت في القصيدة يؤلف وحدة مستقلة ضمنها ، ولعل مردّ ذلك الى طبيعة البدوي التي لم تألف البناء ، والى نزعته الفردية الاستقلالية(20) .

ونحن نعجز أن حاولنا العثور بوصف مباشر للحيوان في الشعر الجاهلي ، فالشاعر قد يلجأ في ذكره للحيوان الى التشبيه الذي يجره الى الاستطراد (فهو يلم بوصف الناقة ، وبعد أن يستوفي وصفها ينثني الى تشبيهها بالبقرة الوحشية التي تغدو موضوعاً جديداً آخر ، يستقل به الشاعر وينصرف اليه)(21) ، وجدنا ذلك في شعر الأعشى(22) في تشبيه ناقته بثور الوحش وانتقاله الى تشبيهها بحمار الوحش ، ومثله زهير)(23) اذ انتقل الى تشبيهها بالحمار بعد تشبيهه اياها بالظليم .

واذا تركنا شعراء الجاهلية فسنجد شعراء صدر الاسلام والأموي قد سلكوا النهج ذاته ، واليك كعبا(24) فانه حذا حذو أبيه زهير ، فهو ينتقل الى تشبيه ناقته بالحمار بعد تشبيه اياها بالثور ،ووجدنا ذا الرمة(25) شبه ناقته بحمار الوحش أيضاً ، ومثله الفرزدق(26) فهو لم ينج من هذه الوسيلة ، فنراه جعل الأخدري مشبهاً به عندما أراد وصف ناقته القوية ، وكذلك الشماخ(27) ، والعجاج(28) والحطيئة(29) والأخطل(30) وخفاق بن ندبة

---

(19) تأريخ الأدب العربي (الفاخوري) : 62
(20) تأريخ الأدب العربي (الفاخوري) : 63 . فن الوصف ، أيليا حاوي82 (بيروت 1959) .
(21) فن الوصف : 82
(22) ديوان الأعشى : 165, 229, 325, 349
(23) شرح ديوان زهير : 65
(24) شرح ديوان كعب : 17
(25) ديوان شعر ذي الرمة : 135, 360
(26) شرح ديوان الفرزدق : 2-746
(27) ديوان الشماخ : 43,35
(28) أراجيز العرب : 116
(29) ديوان الحطيئة : 19
(30) الشذر الذهبي : 22

السلمي[31] والطرماح[32] ورؤبة[33] وغيرهم .

ولقد مهد لهؤلاء الشعراء ذلك السبيل امرؤ القيس[34] وعبيد ابن الأبرص[35] ، وأوس[36] ، وزهير[37] وغيرهم .

وبعد هذه الأمثلة المختارة لبعض من شعراء الجاهلية ، ولمن سار على نهجهم من شعراء العصور الاسلامية توضح أن وصف الوحش ومعارك الصيد لم يكن يستغرق كل القصيدة ، وانما كان يحتل جزءاً من أبياتها لذا وجدنا الى جانب الوصف أغراضاً أخرى ، كما مر بنا ، وهذا من شأنه أن يفقد القصيدة وحدتها الموضوعية .

انني في بحث سابق لمحت بأن العصر الأموي قد شهد ميلاد فن الطرد ، واذ شئت الدقة قلت : ان القرن الثاني الهجري قد ظفر برعاية هذا الفن الجديد ، فلقد تبلور هذا الفن في العصر العباسي الأول ، وتبوأ مكاناً أثيراً بين فنون الشعر ، بعد أن كان غرضاً في القصيدة ، وعرفت قصائده بالطرديات .

ومما يسترعي النظر في هاتيك الطرديات أنها اتّسمت بوحدة الموضوع وهي لم تعالج وصف الصيد وكفى ، بل تمحَّصَتْ الى لون واحد من ألوانه ، أو وسائله ولقد برز أبو نواس في هذا الميدان ، (وذكر من القصائد الطردية الموثوق بصحة نسبتها اليه بضعاً وثلاثين ، أغلبها أراجيز على رويٍّ واحد ، لا تخلو من حوشية وغرابة في اللفظ ، ورتابة في النغم)[38] ، تناولت وصف كلب الصيد ، والفهد ، والثعلب ، والفرس ، والبندق ، والباز ، والزُّرَّق ، والصقر ، واليؤيؤ ، والفخ ، وصيد الأوز ، وصيد الكركي ، اضافة الى أوقات الصيد وآلاته الأخرى ، وما يرافقه[39] ، وهذا ما ميز شعر الطرد الجاهلي والاسلامي عن الطرديات التي استقل وصف الصيد بها عن أغراض الشعر حيث صار فناً

---

(31) شعر خفاف : 90
(32) ديوان الطرماح : 369
(33) خزانة الأدب : 1 -83
(34) شرح ديوانه : 58
(35) ديوان عبيد : 27 -50
(36) ديوان أوس : 67
(37) شرح ديوان زهير : 120 -127
(38) تأريخ الأدب العربي (الفاخوري) : 404
(39) ديوان أبي نواس : الطرد : 624 -671

يقصد لذاته ، لا يشاطره القصيدة غرض سواه ، ومما ميزه أيضاً أن وجدنا اهتمام الشعراء منصباً على وسيلة الصيد بشكل بين ، والفينا نهاية الطريدة شيئاً لا مناص فيه ، ما دام الشاعر يفصح عن رغبة يمارسها بشعر تمحض للطرد ، وخير من يمثل الاتجاه الأخير الشمردل وأبو نواس .

ففي الطردية التي رواها الأصفهاني[40] ، وحللتها في دراستي للصيد بالصقور ، لاحظت أشياء قيمة جديرة بالعناية ، منها أن الصقر قد استغرق وصفه معظم أبياتها ، ومنها أن الشاعر لم يعتن بوصف الطريدة عناية كافية ، بل أنه أهملها مكتفياً بذكرها .

ولاحظت أيضاً أن الشمردل قد وضع حداً للطريدة ، اذ قرر انهم اصطادوا ثمانين ما بين حبارى وأرنب ، ولم يكتف بهذا وانما استنفد أغلب وجوه لذة الصيد ، من احتطاب ، واجتماع في بيت لطبخ لحوم الصيد أو شيها .

وحين نستقرىء طرديات أبي نواس[41] لا أرانا ذاهبين بعيداً عما رسمه الشرمدل ، ولا نتعدى خطوطه العريضة للطردية .

وأستطيع أن أضيف ملاحظة أخرى جديرة بالانتباه ، ويمكنني أن أعدها خروجاً عن مألوف الشعراء الجاهليين الذين جعلوا البيت وحدة مستقلة داخل القصيدة ، يتم به المعنى ولا يحتاج الى غيره ، وحاكاهم في هذا أغلب شعراء العصور الاسلامية ، بينما نجد الشمردل قد عالج معنى في بيتين فقال :

مثلُ مَدى الجزَّارِ أو حرابِهِ كأنَّما بالحلقِ من خضابِهِ[42]

فالشاعر علق اتمام المعنى على البيت التالي ، ولم يتمسك بالنهج القديم :

عصفرةِ الفؤادِ أو قضابِهِ حوى ثمانينَ على حسابِهِ[43]

وكذلك أبو نواس في وصفه أحد كلابه ، فانه جعل جواب (اذا) في البيت التالي في قوله :

---

(40) الأغاني : 13 -362

(41) ديوان أبي نوأس ، باب الطرد : 624 -671

(42) الأغاني : 13 -362

(43) الأغاني : 13 -362 .

أعـــددتُ كلبــاً للطـــرادِ سلطا　　مقلَّـــداً قلائـــداً ومقطا
فهـــو النجيبُ الحسيبُ رهطا　　ترى خطّـــين خُطَّـــا خطًّا
وملطـــا سهـــلاً ولحياً سبْطاً　　ذاك ومتـــين اذا تمطَّى

ثم يجيب الشرط :

قلـــت شرا كانِ أجيدا قطًّا　　من أدم الطـــائف عُطَّـــا عَطًّا[44]

ويبدو أن الطرديات متعددة الأغراض ، لأنها لم تقتصر على وصف الصيد وحده ، بل تناولت الطردية ما ليس غريبـاً عن جو الطـرد ، كتحـديد وقـت الخـروج للصيد ، والاطالة في وصف وسيلة الصيد ، سواء أكانت كلباً أم طيراً أم فهداً ، أم طيراً جارحاً ، أو الحوار مع القانص ، وذكر أمور أخرى ترافق عملية الصيد والطرد ، وهذا كله يشكل وحدة فنية تضفي الوضوح والتكامل على بناء الطردية ، ولا سيما أن المعاني التي ينصرف الشاعر الى وصفها لها صلة وثيقة بالصيد ، وهذا يخلـق جواً نفسياً يدفـع الى التجـاوب السريع ، والتفهم العميق لهواية الشاعر ورغبته العارمـة في الصيد ، (فـكأن القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض اعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عامة تتخون محاسنه وتعفى معالم جماله)[45] .

وخلاصة البحث أنتهي الى القول : أن شعر الطرد قد مر بمرحلتين : الأولى كان فيها غرضاً في قصيدة ينساق اليه الشاعر استطراداً ، استجابة لدوافع لا تمت الى الطـرد بصلات ، أما المرحلة الثانية فهي التي تمثل طور انفصال شعر الطرد عن أغراض القصيدة الأخرى ، واستقلاله عنها ، مكوناً ما اصطلح على تسميته بالطرديات .

ولقد علمنا أن المرحلة الأولى شملت الشعر الجاهلي والفترة التي تلته حتى محاولات الشمردل بن شريك اليربوعي ، حيث تبـدأ المرحلـة الثـانية، اذا استقطب هذا الفـن واستكمل عناصره على يد أبي نواس (ت195 -197 هـ) .

4 ـ الشعراء ونهاية الطريدة :

الشعـراء في وصفهـم لعملية الصيد والطرد ، ومراقبتهـم لطرائـده ووسائلـه ،

---

(44) ديوان أبي نواس : 627 . وانظر أيضاً : 629

(45) العمدة ، ابن رشيق القيرواني : 2-117 (ط2 القاهرة1955) .

وتسجيلهم للصراع الدائر بينها منذ نشوبه حتى نهايته ، يكونون فئتين ، فئة أولى : وهم الذين وصفوا الطرد بدافع الممارسة الواقعية والمعاناة الحقيقية ، أما الثانية : فهم من وصفوه بدافع التقليد ، وأعنى أن هذا الغرض صار عندهم تقليداً كالغزل الذي تستهل به أغلب القصائد .

وقبل أن أتحسس رأي كلتا الفئتين في الصيد والصياد ، وانعكاس ذلك على نهاية الطرد ومصير الطريدة ووسيلة الصيد ، يجمل بي الالمام ، ولو بشيء من الايجاز ، بنماذج تمثل كلا من الاتجاهين .

فامرؤ القيس بعد أن طرده أبوه حجر (وآل ألا يقيم معه أنفة من قول الشعر)[46] ، جمع حوله شذاذ العرب من طيىء وكلب وبكر وعاش معهم حياة لاهية ، فكلما صادفوا غديراً ، أو روضة ، أو موضع صيد عكفوا عليه ، وذبح لمن معه ، ويخرجون الى الصيد فيتصيدون ، ويعودون للأكل وشرب الخمر وغناء القيان ، ويمكثون هذه حالهم حتى ينضب ماء الغدير ، ثم ينتقلون الى غيره[47] . فهو اذن في طليعة الذين وصفوا الطرد بدافع الممارسة الواقعية ، ولقد خصص ثمانية عشر بيتاً من معلقته حدد فيها زمن خروجه للصيد ، متخذاً الفرس وسيلة تعينه على ادراك الطريدة ، فوصف جسمه وسيره وسرعته وصفاً دقيقاً ، وانتقل الى وصف البقر الوحشي وأسرابه ، موضحاً سرعة نجائها ، وملاحقة فرسه لها[48] ، وتردد وصف الطرد في شعره كثيراً ـ كما مر بنا ـ ولهذا يمكننا اتخاذه مثلاً للشعراء الذين كلفوا بالصيد ، ووصفوا بدافع المعاناة الواقعية .

وممن نقرأ شعرهم ، ونستاف منه أنسام التجربة الفعلية في ممارسة عملية الصيد الشاعر عدي بن زيد[49] ، وزهير[50] وعبد الله بن سلمة[51] ، والحارث بن حلزة[52] ،

---

(46) الأغاني : 9-87
(47) الأغاني : 9-87
(48) معلقات العرب ، الدكتور بدوي طبانة : 90 (ط2 القاهرة 1967)
(49) ديوان عدي : 142
(50) شرح ديوان زهير : 130 -138
(51) المفضليات 1/102, 103
(52) ديوان شعره (كرنكو) : 698

وابن مقبل[53] ، والمرقش الأصغر[54] ، والشمردل[55] ، وأبو نواس[56] .

وخير من يمثل الجماعة الثانية ، وهم الشعراء الذين نظموا في وصف الصيد والطرد بدافع التقليد ، النابغة الذبياني ، فشاعر مثله تردد كثيراً على بلاط المناذرة ، وفيهم أكثر من واحد قد مال الى الصيد وخصص وقتاً غير قليل من حياته لممارسته ، فلا بد اذن من وصف الصيد وما فيه من مشاهد تتجلى في الصراع بين الطريدة والصياد أو كلابه ، فتمده شعريته الفذة بصورة رائعة تغازل رغبات الأمير (وكأني بالنابغة الشاعر الوصاف القاص قد عمد الى وصف قصة تخيلها ، وقص منظر تصوره ، عني بأن يصف الثور الوحشي في معركة حامية ، وبأن يقص علينا قصة حربية ، والنابغة يجيد القصص ويحسن التصوير)[57] .

والذبياني شاعر متحضر ، كثير الرحلات ، نادم الملوك ، وصاحب الأمراء ، شريف ورئيس في قبيلته ، فاذا أضفنا كل ذلك الى اجادته فن الوصف والقص ، تكشف لنا سر خياله الواسع وتصويره البارع .

بدأ الذبياني يناجي دار حبيبته مية متألماً متحسراً ، لأنه كان فيها بنعيم ، ثم وصف ناقته ببيتين ، انتقل أثرهما الى وصف ثور الوحش :

يا دار ميَّة بالعلياءِ فالسَند أقوتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ[58]

وتسلل الذبياني الى وصف ثور الوحش عن طريق الرحل واستعانته بحرف التشبيه « كأنَّ » وتبين أن ذلك الرحل كأنه وضع على ظهر ثور وحشي نشط ، في مكان موحش ليس فيه أنيس يزيد وحشته ، ويخفف وطأة وحدته :

كأنَّ رحلي وقد زال النهار بنا يوم الجليل على مستأنس وحدِ[58]

وهذا الثور في وجرة ، ماؤها قليل ، وغذاؤها شحيح ؛ أرجله مخططة كأنها

---

(53) ديوان ابن مقبل : 94-95, 246, 249

(54) المفضليات : 2-42

(55) التذكرة الحمجونية (مخطوط) : 5/344, 345

(56) ديوان أبي نواس ، باب الطرد : 624-671

(57) الوصف في شعر العربي 1-157

(58) ديوانه (دار صادر) : 30-33 . الأبد أو الأمد : الدهر ـ زال النهار : انتصف ـ الجليل : واد قرب مكة ـ المستأنس : الذي ينظر بعينه لأنه أحس انسيا .

موشاة ، فصار مهزولاً كالسيف المصقول الذي ليس له شبيه .

من وحش وجـــرَةَ موشي آكارعه طاوى المصـير كسيفِ الصيقـل الفرد

وكان الثور خائفاً متوجساً يخشى الحتوف ، جائعاً عطشـاً قد أسرت اليه في ليلـة ظلماء ، قد حجبت نجومها ، مزنة شمالية لا تتوقف ، حملت اليه البرد والبرد :

سرَتْ عليه من الجـــوزاءِ ساريةٌ تُزجـــى الشمَّالُ عليهِ جامــدَ البردِ

صور الذبياني هذا الثور في حال بائسة ، تتجاذبه الهواجس فنفسه طائرة حذرة ، ولقد ضاعف قلقه أنه سمع صوت صياد يبغيه ليقتله في عقر داره ، قد أعد لمطاردته في هذه الفلاة كلاباً شرسة ، ولولا أنه قد منح قوائم سليمة من كل عيب لفقد أي أمل في النجاة والفرار من الكلاب المطاردة :

فارتـــاعَ من صوتِ كلأَبٍ فبـــاتَ لهُ طوعَ الشوامِت من خوفٍ ومــن صردِ(59)

ولم تدم الحال يلفها الغموض ، فسرعان ما بادر الصياد الى تفريق كلابه ، وشرعنا نقترب بسرعة من الصراع بين الضواري والثور ، والمعركة الحامية على وشك الوقوع ، فتحسس الثور وسائل خلاصه ، فألفى قوائمه ضوامر لكنها قوية ، مفاصلها خالية من الترهل :

فبثهُـــنَّ عليه واستمـــرَّ بهِ صُمْـــعُ الكعـــوب بريئـــاتٌ من الحردِ

وهجم ضمران ، وهو كما يبدو رئيس جوقة الكلاب أو انـه نشيطهـا ومثلما أراد الصياد ، احتدمت المعركة ، كروفر ، وقفـز ووثـب فيهـا محـاورة ومـداورة ، وخـداع وصراع ، وكان الثور قد طعن ضمران في شجاعة واقدام ، وانفذ قرنه في بطنه كبيطار يشق عن داء ليعالجه ، وظهر القرن من الجانب الآخر مضرجاً بدم الكلب ، بشبه سفودا نسيه سكارى فوق النار فاحمر وتوهج ، وصار كأنه عمود نار ، وفي غمرة اليأس وسوء العقبى بدأ الكلب يعض على القرن الأسود الصلب ، المستقيم الممتد ، وكان الكلب قد انقبض جسمه ، واكفهر وجهه متألماً من جراحه :

وكان ضُمـــرانُ من حيثُ يوزعهُ طعـن المعـارك عنـد المحجَـــر النَّجد

وجرة : مكان ما بين مكة والبصرة فيه وحوش كثيرة ـ المصير : واحد المصران ، وكنى به عن البطن ـ كسيف الصيقل : يلمع ، والصيقل : الذي يجلو السيوف ـ الجوزاء : برج في السماء ـ الشوامت : القوائم ـ الصرد : شدة البرد .

شكّ الفريصةَ بالمِدْرى فأنفذها طعنَ المبيطر اذ يشفي من العَضَدِ[60]
كأنّه خارج من جنبِ صفحتِهِ سفّودُ شرْبٍ نَسَوْهُ عند مفتأدِ[61]
فظلّ يعجمُ أعلى الروقِ منقبضا في حالكِ اللونِ صدق غير ذي أودِ

أما واشق فعندما أدرك مصير زميله « ضمران » وقدر نهايته الحزينة السريعة ، في وقت لا سبيل الى قصاص أودية ، حدثته نفسه : أنه لا يطمع في لحم الثور ، وان صاحبه الصياد لم ينج من الخسارة ، اذ فقد كلباً ولم يصطد شيئاً .

فالنابغة انما اختار هذه النهاية السيئة للكلاب متعمداً ، كي يظهر المشبه به ، أي ثور الوحش ، في موضع القوة ، ليخلص الى تصوير المشبه ، أي ناقته :

لما رأى واشقٌ اقعاصَ صاحبِهِ ولا سبيلَ الى عَقْلٍ ولا قَوَدِ
قالتْ له النفسُ : انّي لا أرى طمعاً وانّ مولاك لم يسلمْ ولم يصدِ[62]

ثم يثوب الذبياني الى ناقته ، بعدما شعر بكونه تمكن من اظهار اصالتها ومتانتها ، مما يجعلها جديرة باتخاذ واسطة تنقله الى النعمان :

فتلك تُبلِغُني النعمانَ انّ له فضلاً على الناسِ في الأدنى وفي البُعدِ

بهذه المعاني الحضرية المنتزعة من بيئة حربية ، أدار الشاعر معركة الثور والكلاب ، ببراعة النديم الذي ألف بلاط الملوك وقصور الأمراء وتعود مخاطبتهم ، فانى للبدوي صورة السفود الذي غفل عنه الشاربون ، فتوهج حمرة كالدم ؟ .

واذا قرأنا أبيات الطردية بتأن يطالعنا أسلوب سليم خال من التعقيد ، يسير في نمط واحد من الحديث ، ويمتاز بالرصف القوي المتين ، أما ألفاظه فصلبة صلبة الصحارى ووحشها ، وكان الذبياني قصد محاكاة الطبيعة الصحراوية محاكاة كاملة ، وهذا ما حملني على الاعتقاد أن أبيات الطردية تلك عالجت غرضاً في قصيدة ، عدها التبريزي[63] في

---

(60) استمر به : استمرت به قوائمه ـ الصمع : الضوامر الداحد أصمع الكعوب : الواحد كعب : المفصل من العظام ـ الحَرَد (بفتح الحاء والراء) : استرخاء العصب ـ شك : انفذ ـ المدرى : القرن .

(61) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم ـ مفتأد : موضع النار الذي يشوي فيه ـ يعجم : يمضغ ـ الروق : القرن ـ الصدق : المستوى الصلب ـ الأود : الاعوجاج ـ واشق : اسم كلب آخر للصياد الأقعاص : القتل السريع ـ العقل : الدية ـ القود : الدية ـ تلك : اشارة الى ناقته ـ البعد (بفتح الباء والعين) : الواحد باعد ضد القريب .

(62) نرى الذبياني جعل من الكلب كائناً يحدث نفسه ، يحب ويفكر ويتأمل كالانسان .

(63) شرح القصائد العشر : 308

المعلقات وشرحها في مؤلفه[64] ، وهو غرض لا مناص من معالجته ضمن أغراض القصيدة التي اعتاد الشعراء نهجها ، فهو وصف تقليدي لم ينبع عن معاناة واقعية .

ان تشبيه الناقة أو الفرس بالحمار ، والثور ، والظليم ، والعقاب، والباز ، والصقر ، من الأساليب التي تذرّع بها الشعراء لاظهار قوة أو سرعة الناقة أو الفرس ، فالشاعر عبيد بن الأبرص[65] ، والمثقب[66] ، وبشر ابن أبي خازم[67] ، وأوس[68] ، وزهير[69] ، وعلقمة الفحل[70] ، والأعشى[71] ، وكعب بن زهير[72] ، وسحيم[73] وذو الرمة[74] ، والحطيئة[75] ، والعجاج[76] ، والقطامي[77] ، والفرزدق[78] ، ورؤبة[79] ، كل أولئك يصدق رأيي على شعرهم بدرجة ما .

وصفوة القول أن ثمة نوعين من الشعر الطردى ، أولهما : ما كان صادراً عن ممارسة ومعاناة واقعية ، والآخر : هو هذا اللون الذي اصطلحت على تسميته بالتقليدي ، والذي استبعدت أن يكون صدى لواقعة مارسها الشاعر .

ومن الغريب أن ترتبط نهاية الطريدة بالدافع الذي دعا الشاعر الى وصف الطرد ، فنجد أن الشعراء الذين وصفوا خيلهم وسيلة للصيد والطرد قد وضعوا نهاية للطريدة ، فكانت دوماً صريعة لا محالة ، وكان ذلك في المرحلة الأولى التي انتهت بالشمردل ، ومن

---

(64) المصدر السابق : 308 -323
(65) ديوان عبيد : 59 -60
(66) شعر المثقب : 10 -15
(67) ديوان بشر : 55
(68) ديوان أوس : 2, 42, 67
(69) شرح ديوان زهير : 42 -44
(70) شرح ديوان علقمة (مجموعة بيروت) : 13
(71) ديوان الأعشى : 67, 279, 297
(72) شرح ديوان كعب : 97 — 98
(73) ديوان سحيم : 28 -30
(74) شعر ذي الرمة : 118 -119
(75) ديوان الحطيئة : 377
(76) شرح ديوانه (مخطوط) ورقة : 73 -75
(77) ديوان القطامي (ليدن) : 16 -18
(78) شرح ديوان الفرزدق : 2 -746, 747
(79) مجموع أشعار العرب : 90 -91

شعرائها امرؤ القيس وزهير وأوس وعدي وغيرهم كثير .

ونلاحظ أن طرديات المرحلة الثانية من الممكن عدها امتداداً طبيعياً لهذا النوع من الوصف الذي قيل في معرض الحديث عن الخيل ، لكن وسيلة الصيد قد تختلف ، كان تكون كلباً أو فهداً أو طيراً جارحاً أو بندقاً أو رمحاً ، لكن الفكرة تبقى ذاتها ، وشعراؤه أبو نجم وأبو نخيلة وأبو نواس والرقاشي وأحمد بن زياد بن أبي كريمة وغيرهم ، وهذا شيء متوقع ما دامت الوسيلة هي التي يريد الشاعر اطلاعنا على محاسنها وفضائلها .

أما الشعراء الذين وصفوا الطرد متذرعين بالناقة ، فانني وجدتهم يقررون نهاية كئيبة لوسيلة الصيد ، وذلك شيء ظاهر في شعر الذبياني ومن لفّ لفّه .

وهناك مناسبة أخرى توسل بها الشعراء في وصفهم للصيد والطرد ، وذلك عند تعرضهم لوصف حمر الوحش ، حيث يبثون لها الأخطار متمثلة بالقترات التي يتخذها الصيادون مراصد عند موارد الماء ، فكثيراً ما تفلت الوحش من سهامهم ، ويبقى الصياد يلهف أمه أسفا ، ويكون هذا الغالب عند تشبيه الناقة بالحمار .

ووجدت أيضاً جماعة من الشعراء ، ومنهم أبو ذؤيب الهذلي والنمر ابن تولب ، قد جعلوا الصياد منتصرا ، تنال سهامه الطريدة ؛ وتم هذا في مورد العظة والتأسي ، وفي معرض الحزن والرثاء غالباً .

الفصل الثاني
العاطفة

العاطفة حالة تمتلك الانسان ، وتأخذ عليه مشاعره ، وتستحوذ على مواهبه وملكاته ، وهي تتفاوت من انسان لاخر قوة وضعفاً ، بل أنها تتغير عند الفرد نفسه من آن لآن ، تبعاً للظروف والبيئة وهي صدى الحوادث والمرئيات وهي المقياس لمدى استجابة الانسان لتلك الحوادث والمرئيات(1) .

ونحن في استعراضنا للشعر الجاهلي الذي وصف الوحش، ألفينا أن بقر الوحش شغل الشعراء كثيراً ، حتى ليصعب علينا أن نجد شاعراً لم يتعرض له بشكل من الأشكال، وانهم ، كما مر بنا ، اتخذوا وصفهم للناقة ذريعة يتوصلون بها الى وصف البقر احياناً ، فهم يحيطونه بظروف قاسية ، ومخاطر رهيبة ، ومواقف مفزعة ، كي يخلصوا في النهاية الى مد البقر بدوافع القوة والنشاط والحركة والسرعة ، فيدعوها عن طريق التشبيه نياقهم ، لأنها مميزات يهمهم جداً أن تمتاز بها .

ولقد تعاطف الشعراء مع هذا الحيوان ، فصوروه لائذاً بأرطاة لتحميه من المطر والبرد ، ومنهم ابن أبي خازم :

تضيَّفَهُ الى أرطاةِ حقفٍ بجنبِ سُوَيقةِ رهمٍ وريح(2)

وطرق هذا المعنى ، أو ما يقرب منه النابغة الذبياني(3) ، وعلقمة ابن عبدة(4) ،

(1) أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب : 180 -181 (ط3 القاهرة1946) .

(2) ديوان بشر : 51 ، وانظر أيضاً : 55, 56, 81, 103, 204

(3) ديوان النابغة : 52, 27

(4) ديوان النابغة : 52, 27

وزهير[5] ، والأعشى[6] ، وكعب بن زهير[7] ، وأبو ذؤيب الهذلي[8] ، وسحيم[9] ، وذو الرمة[10] .

ومن الأخطار التي تؤرق الثور ، والتي تحسس الشعراء ، عدا المطر والبرد والقيظ الشديد ، الصيادون وكلابهم ، فكثيراً ما تباغت هذا الحيوان في الصباح الباكر ، فتهدد حياته ، وتقلقه ، قال امرؤ القيس :

فصبَّحـــه عنـــد الشروقِ غُديَّة   كلابُ ابـنِ مرٍّ أو كلابُ ابــنِ سبنسِ[11]

وقال ابن أبي خازم أيضاً :

فبـــاكرهُ مع الاشراقِ غُضفُ   يخـــبُّ بهـــا جدايةٌ أو ذريحُ[12]

والذي يمكن أن نلاحظه في تشبيهات الشعراء لنياقهم بالثور ، أن طرفي التشبيه حسيان ، ولم يكتفوا بهذا وانما ترجموا عواطفهم وأحاسيسهم الشعورية الى صور مادية (ولا نفهمن بذلك أن الشاعر الجاهلي وفق الى تجسيد شعوره بالذات ، وانما توصل الى نقله بالصور التي تضع القارىء (كذا) في حالة نفسية شبيهة بالحالة التي عاناها الشاعر)[13] ، فلكي يصور امرؤ القيس سرعة فرسه وهي ذهنية ليس لها كيان تدركه الحواس ، لجأ الى التشبيهات المادية والألوان :

كأنَّ دمـــاءَ الهـــادياتِ بنحرهِ   عصـــارةُ حنَّـــاءٍ بشيبٍ مُرَجَّلِ[14]

وكأني بامرىء القيس قد استشعر أن الصور مكثفة مغلقة فأراد أن يفكك تلك الجزئيات المضغوطة ، لتتم الرؤية وتتوضح :

فعـــنَّ له سربٌ كأن نعاجَهُ   عذارى دوارٍ في ملاطٍ مذيَّلِ
فأدبـــرْن كالجـــزعِ المفصَّـــلِ بينه   بجيدِ معـــمّ فـــى العشـــيرةِ مُخْولِ

---

(5) شرح ديوان زهير : 45
(6) ديوان الأعشى : 213, 279, 295, 325
(7) شرح ديوان كعب : 162
(8) شرح أشعار الهذليين : 1 -27
(9) ديوان سحيم : 29
(10) ديوان شعر ذي الرمة : 19
(13) فن الوصف : 74 . الشاعر الجاهلي لم يكن ينظم للقارىء .
(14) شرح ديوانه (بيروت) : 39

فألحقنـــا بالهـــاديات ودونَه جواحرُهـــا في صرَّة لم تُزيَّلِ
فعـــادى عداءً بـــين ثورٍ ونعجةٍ دراكاً ولـــم ينضـــحْ بمـــاءٍ فيُغسلِ
وظـلَّ طهـاةُ اللحـــمِ ما بـــين منضجٍ ضفيفَ شواءٍ أو قدير معجَّلِ(15)

تلك أبيات ناطقة بالعاطفة التي نبعت عن اعجاب عظيم بالفرس ، ولقد وفق الشاعر في أن يوقفنا على قدر كبير من اعجابه ، واستطاع أن يحظى بانتباهنا ، ويحملنا على أن نعيش لحظاته النشطة في طرده الوحش ، بتلك التشبيهات والصور المادية العامرة بالحركة والألوان .

ويخيل لي أن أولئك الشعراء يغترفون مشاهد الصيد والطرد ومقوماتها من معين واحد ، مع اعترافي بوجود بعض الاختلافات الطفيفة ، تناولت أسماء الأماكن والصيادين وشيئاً من الألفاظ ، وقد تراكب لدينا صور متشابهة للوحش ، ساهم في عرضها شعراء كثيرون ، كما مر بنا ، فالثور لائذ بشجرة يتقي البرد والمطر والرياح ، والحمار يفكر يبحث عن مورد ماء ، وتفزعه فكرة ترصد الصيادين له ولأتنه حول الماء ، والعقاب جائعة تبحث عن صيد ، وتجثم على مرقبة تنفض عن ريشها الثلج ، والنعام كثير الشراد ، دائم الخوف ، صور باعثها العاطفة المنبثقة عن الاعجاب ؛ أو الأسى والتعاطف ، ويمكننا أن نحصل مثل هذه الرؤى للحيوان الآخر .

ونحن واجدون ، ان شئنا ، بعض الشعراء جاهليين وغير جاهليين ، قد تعاطفوا مع بعض هذا الوحش ، وأسبغوا عليها مواقف تنم عن شيء من القلق الانساني ، مما يعطينا حق تصور اندماج الشاعر عاطفياً مع تلك الحيوانات ، ومن أولئك ابن أبي خازم ، وهو يتحدث بلسان ثور قد طال عليه ليله ، وخيم ظلامه ، فلف الصريمة ، والجو قارص البرد :

فبـــات يقـــول : أصبْـــح ليلُ حتى تجلى عن صريمتـــه الظلام(16)

الا يذكرنا هذا الحديث بقول امرىء القيس :

ألا أيهـــا الليلُ الطـــويلُ الاَ انجلَ بصبـحٍ ومـا الاصبَـاحُ عنـك بأمثَلِ(17)

---

(15) المصدر السابق : 39
(16) ديوان بشر : 205
(17) شرح ديوانه (بيروت) : 36

وشر ما يخشى هذا الحيوان المسكين كلاب الصيد ، فقد ملأن قلبه خوفاً وهلعاً ، فصوره أبو ذؤيب اشفاقاً عليه ، واستشعاراً لحالة ، وجلا فأشباح الضاريات يؤرقه ، لذا يرعبه انبثاق نور الصباح ، فهو نذير بقدوم الكلاب :

شَغَفَ الكلابُ الضارياتُ فؤادَهُ فاذا يرى الصبحُ المصدَّق يفزعُ(18)

ولم يتأخر ذو الرمة عن التعاطف مع الثور ، فقد صوره خائفاً قلقاً ، لأنه أحس صوتاً خفيفاً ، وبات ساهراً ، يثير هبوب الريح والامطار الوساوس في نفسه :

وقد توجَّس ركزاً مقفراً ندْسُ بنبأة الصوتِ ما في سمعهِ كذبُ

فبات يشئزه ثأد ويُسهرهُ تذؤّبُ الريحِ والوساوسُ والهضب(19)

ولقد أبدع ذو الرمة في انتقاء الألفاظ ، واستطاع أن يعبئها بما يريد من مشاعر ، حتى استشعرنا من ثنايا حروفها ومضات القسوة والخوف المتولد عنها ، خذ مثلاً : توجس ، يشئزه ، ثأد ، تذؤب ، الوسواس ، ونجد ذا الرمة كان موفقاً في اختياره هذه الكلمات ، لكنه لم يخرج عن المعاني والصور التي كررها الشعراء الذين سبقوه .

ومثله الأخطل(20) ، والعجاج(21) ، والقطامي(22) ، وأرجو الا تنسينا هذه الصور المزدحمة المتشابهة الى حد ما ، تلك البقرة التي تعاطف معها لبيد بن ربيعة ، فكانت اماً لها وليد صغير ، شاء حظها العاثر أن تغفل عنه ؛ ثم تعود الى كناسها لتجد جلداً ممزقاً وبقايا لحم وطيوراً كاسرة تحوم حوله ، فعرفت انها ثكلته ، وفوق كل ذلك سماء ملبدة بالغيوم ، ونجوم محتجبة ، وكانت البقرة تلمع في جوف الظلام كأنها لؤلؤة ، وبعد أن تكشف الظلام ، بقيت هذه حالها سبعة أيام بلياليها ، ولكنها لم تنسَ وليدها ، يذكرها به حنينها ، وجف ضرعها ، فلا ارضاع ولا فطام ، وبعد هذا الحزن الطويل والاعياء المتواصل تحسست أصواتاً ، وصوب الصيادون اليها سهامهم ، وحين يئسوا من نيلها أطلقوا كلابهم وراءها ، وهنا نرى لبيد يعود الى الصورة التقليدية ، فيحملها على الصراع مع كلاب الصيادين(23) .

---

(18) شرح أشعار الهذليين : 1- 26

(19) ديوان شعره : 21- 22

(20) الأخطل (الروائع) : 16 ,22

(21) أراجيز العرب : 91

(22) ديوان القطامي : 16

(23) ديوان لبيد (بيروت) : 221- 277

وتعاطف الشعراء مع الصياد أيضاً ، فرثوا لحاله الزرية ، وفقره المدقع ، وعياله الكثيرين ، ولا سيما البنات ، وتجلت لنا صورته البائسة ، حيث لفه الشقاء فغارت عيناه ، وجف عوده ، يقضي نهاره في الشمس المحرقة ، متعرضاً للسمائم اللاسعة ، فألف العيش الخشن ، ووجدنا تلك المعاني في شعر أوس(24) والطرماح(25) .

ولاحظنا كعب بن زهير ينوه بمظهر لازم الصياد ، أعني ملابسه الرثة :

من خفيِّ الطمرين يسعى بغضفٍ لم يؤيِّهْ بهن الا صفيرا(26)

وعاش بعض الشعراء مشاعر الصياد ، وهو يختل الوحش في قترته :

فأوردها ماءً قليلاً أنيسُهُ يحاذرْن عَمْراً صاحب القترات(27)

وصوروا ضيق القترة ، وكيف عالج الصياد مكوثه فيها ، وصبره مع أفعى فيها :

يراصدُها في جوفِ حدباءَ ضيِّقٍ على المرءِ الاّ تحرُّفَ جالهُا
يبايتُه فيها أحمُّ كأنه إباضُ قلوصٍ أسلمتْها حبالهُا(28)

وأرانا رؤبة احدى لحظات الصياد الحرجة ، لحظة تقترب الوحش الى الماء ، وهو مختبيء في قترته ، فيمسك أنفاسه ، ويحرص ألا يبعث صوتاً ما ، فلا يبصق وان مضغ الحنظل :

فبات والنفسُ من الحرصِ الفشقْ في الزَّربِ لو يمضغُ شرياً ما بصقْ(29)

ألا تعطينا هذه الأمثلة وغيرها فكرة عن مبلغ اهتمام الشعراء بالصياد ومدى تحسسهم لحاله ، وعطفهم عليه ؟ .

وعاش بعض الشعراء أيضاً خيبة الصياد في أن ينال صيده ، وجسدوا أسفه وندمه ، وتلهيفه أمه ، أو عضه على أنامله :

فلهَّفَ أمَّه لمَّا تولَّتْ وعضَّ على أنامل خائباتِ(30)

---

(24) ديوان أوس : 70-71

(25) ديوان الطرماح : 301-303

(26) شرح ديوان كعب : 167

(27) شرح ديوان امرىء القيس : 58

(28) ديوان شعر ذي الرمة : 535

(29) مجموع أشعار العرب (رؤبة) : 207 ، أراجيز العرب35

(30) ديوان الشماخ : 5

كما أنهم لم يخفوا اعجابهم به منتصرا ، وقد أدرك الطريدة ونالها :

أحـــال عليه بالقنـــاةِ غلامُنا فأذرْع بهِ لخلـــةِ الشـــاةِ راقِعا(31)

وتحدثوا عن وسائل الصيد والطرد بحنان وتودد ، ونظروا اليها مخلوقات لها حس وشعور ، سواء الحية منها أو الجمادة ، كما مر بنا وهذا يمنحنا فكرة واضحة عن قوة الزخم العاطفي الذي أضفاه الشعراء على وصف الصيد والطرد ، وهذه تطلعنا على الاصالـة المتمثلة في ذلك الشعر .

(31) ديوان عدي بن زيد : 142 .

الفصل الثالث

الخيال(1)

الخيال هو القدرة النفسية على تصوير العواطف تصويراً يبعث صوراً عقلية مشابهة لها ، وهو يعتمد على اختيار الجزئيات ، ثم تأليفها ، وربما تتمثل لنا بشكل قريب من الواقع ، أو أروع منه .

والخيال ضروري للشاعر ، لأنه أنفع المواهب النفسية في التعبير عن العاطفة التي هي عماد الشعر ، (وهو اللغة الطبيعية لأداء انفعالاته ما دامت اللغة العادية عاجزة عن ذلك)(2) ، كما أنه ضروري للمؤرخ ، ليتذكر الماضي ، وضروري للناقد ، كي يفهم نفسية المنقود وبيئته ، فيكون نقده مفيداً وعادلاً .

واني قد وقعت على صور كثيرة في شعر الصيد والطرد ، كانت وليدة الخيال ، فالشاعر قد اختزن صوراً كثيرة عن الصيادين ووسائلهم وأوصافها والصراع بينها وبين الطرائد ، ولما أراد أن يضخ هذه الصور ثانية لجأ الى التشبيه الاستطرادي ، ولا سيما عندما يصطنع الشاعر ناقته وسيلة للتسلل الى شعر الطرد ، مستعيناً بالاستعارات ، وهذا في رأي الأستاذ أحمد الشايب هو القصور الانفعالي ، وفي رأيه (اذا كانت الصور الخيالية ناشئة عن عاطفة سطحية أو سقيمة مزيفة ، بدت هذه الصور متكلفة مصطنعة وكانت بعيدة الصلة بالحقيقة)(3) ، وكنا دوماً نشهد مصرع الكلاب ، مع اعتراف الشاعر بضراوتها

---

(1) أصول النقد الأدبي : اعتمدت على فصل الخيال : 210 - 223 .

(2) المصدر السابق : 217 .

(3) أصول النقد الأدبي : 213 .

وبسالتها وحسن دربتها ، لمسنا هذا الشيء في المعركة التي أثارها النابغة الذبياني بين ضمران وواشق الكلبين من جهة ، وثور الوحش من جهة أخرى ، وكان مصير ضمران تعساً ، اذ نفذ قرن الثور في جنبه ، وعرفنا المصير الذي انتهى اليه ، وعلمنا أن واشق كان يفكر، يفكر كأي قائد محارب ، يحسب الخسائر ، ويقدر النتائج ، ثم زين الهزيمة لنفسه ، وهكذا كانت نتيجة الصراع مفتعلة ؛ وخلاف ما يشتهيه الصياد الذي أعد هذين الكلبين الضاريين ، وعقد عليهما الامال ، لهذا اعتبرت هذا اللون من الشعر تقليدياً ، لأنني وجدت الشاعر لا ينسجم مع أغراض الصيد الطبيعية ، وأنهى المعركة بالخيبة والفشل .

وحين يكون الفرس وسيلة للصيد يختلف الأمر عند امرىء القيس وعدي بن زيد ، والمزرد ، وعلقمة ، والمرقش الأصغر ، وزهير ، والنمر ابن تولب ، وابن مقبل ، والحطيئة ، وعبد المسيح بن عسلة وعبد الله بن سلمة ، كما مر بنا ، حيث تكون الغلبة والنصر للصياد ، وهي نتيجة طبيعية متوقعة ، واعتبرته شعر معاناة وممارسة فعلية ، ومثله طرديات المرحلة الثانية التي يمكن جعلها امتداداً متطوراً له .

أنواع الخيال :

وربما كان الخيال ابتكارياً ، والعملية (هنا ليست مدبرة تدبيراً فلسفياً ، أو منطقياً بحيث تجمع الأوصاف انتظاراً لنتيجتها ، وانما تخضع هذه الأوصاف لقانون التناسق الذي يحقق أثرها الوجدان ، وتتداعى عناصرها المخزونة في الذاكرة لتتعاون على اسعاف المؤلف الأديب بما ينبغي)(4) ، وشعر الطرد أغلبه ، ان لم أقل كله ، من قبيل الخيال الابتكاري ، اذ يصعب أن نتصور مبادرة الشعراء الى وصف الصيد خلال ممارستهم له ، والمعقول أن الشاعر (يختار عناصره من بين التجارب السالفة ويؤلفها مجموعة جديدة)(5) .

ويمر الشاعر بأزمة نفسية كئيبة ، كأن يفجع بعزيز لديه ، فتراه يعلل النفس بمصير الوحش القوية المتحصنة ، التي يودي بحياتها الرماة ويسعه خياله بصور تتآلف مع حاله ، ويجد فيها متنفساً لأحزانه ، وقد وجدت ذلك في شعر الأفوه الأودي :

---

(4) أصول النقد الأدبي : 213 .

(5) أصول النقد الأدبي : 214 .

والدهــــرُ لا يُبْقـــى على صرفهِ   مغْفِـــرةً في حالـــقٍ مرمريسٍ(6)

ومثله النمر بن تولب(7) ، ولبيد(8) ، وأبو خراش(9) ، وأبو ذؤيب(10) وعدي بن الرقاع(11) ، وصخر الغي(12) ، ويسمى الأستاذ أحمد الشايب(13) هذا اللون من الخيال بالخيال التأليفي .

وهناك الخيال البياني أو التفسيري ، (وهذا الخيال ليس ابتكارياً يعنى بتأليف صور جديدة ، وليس استخدام صور حسية لبعث مشاعر تستدعي صوراً تشابهها كما هو الشأن في الخيال التأليفي)(14) فيلجأ الشاعر اليه حين يروم ابراز صفة ما ، ووجدت هذا اللون من الخيال في انصراف الشعراء الى تشبيه نياقهم بالحمار أو الثور ، أو النعام ، وانغماسهم في ذلك الاستطراد المسهب حين يوقعون تلك الوحش في صراع مع الرماة ووسائل صيدهم .

ويتوفر الخيال البياني أو التفسيري في لجوء الشعراء ، حين يرغبون في اظهار محاسن خيلهم من سرعة وقوة ونجابة ، الى وصفها وسيلة للصيد تطارد حمار الوحش وتدركه قبل أن تتعب ويتصبب عرقها ، وهي كثيرة الطرد والادراك ، حتى تخضب شعرها بدماء الوحش ، وأنها قيد للأوابد .

ونجد هذا الخيال في طرديات العصر العباسي أيضاً ، فحين أراد أحمد بن زياد أن يجسد صفات الفهود شبهها باللهب :

اذا قلَّبتهـــا في الفجـــاجِ حسبتُها   سنـــا ضرمٍ في ظلمـــةِ الليلِ ثاقبِ(15)

وشبه أشداقها بخط كاتب :

مولَّعـــة فطـــح الجبـــاهِ عوابسٍ   تخـــال علـــى أشداقِهـا خطَّ كاتبِ(15)

(6) ديوان الافوه (الطرائف الادبية) : 16
(7) شعر النمر : 103 .
(8) ديوان لبيد (هوبر) : 33 - 34 .
(9) الشعراء الصعاليك : 293 .
(10) شرح اشعار الهذليين : 1 / 26 .
(11) الطرائف الادبية : 82 - 83 .
(12) شرح أشعار الهذليين : 1 / 246 .
(13) اصول النقد الادبي : 215 .
(14) اصول النقد الادبي : 218

وآذانها بالمداهن :

نواصب آذانٍ لطافٍ كأنَّها مَداهِنُ للأجراس من كلِّ جانبِ(15)

ويشبه أبو نواس فهده بالكوكب حال انطلاقه وراء الطريدة :

وامتدَّ للناظر في مرتدِّه كوكب عفريتٍ هوى لعدِّه(16)

ويصور تسلله نحو الطريدة ، وختله اياها ، مشبهاً اياه بالحية :

مثل انسيابِ الحيةِ العربدِ بكل نشزٍ وبكل وهدِ(17)

وأعتقد أن فيما أوردته من أمثلة ما يكفي لتوضيح الخيال التفسيري في شعر الطرد .

ونحن لا نستطيع أن نفهم الخيال بمعزل عن البيئة ، فكل جزئياته وليدتها ، وان كان لكل شاعر أسلوبه يمتاز به عن سواه ، ولكنهم ينهلون بوجه عام من معين واحد ، لمسنا ذلك في العصر الجاهلي ، فالشاعر ابن أبي خازم حين أراد أن يصف وعورة ملجأ الوعل اعتمد على حدث مألوف في بيئته ، وهو انزلاق العقاب عنه ، على الرغم من أنها تملك المخالب التي تمكنها من التشبث والمسك بها :

فما صدع بجيَّة أو بشوط على زُلُقٍ زوالق ذِي كهاف

تزل اللقوةُ الشغواءُ عَنْها مخالبها كأطرافِ الأشاقي(18)

وكذلك امرؤ القيس في تصويره لسرعة فرسه ، اذ شبهه بباز ينقض على أرنب :

كأنَّ غلامي اذ علا حالَ متنهِ على ظهر بازٍ في السماءِ محلِّقِ

رأى أرنباً فانقضَّ يهوِي أمامه اليها وجلاَّها بطرفٍ ملقلقِ(19)

واتخذ عنترة بقاء القطاة في مجثمها دليلاً على تبكيره ، اذ المألوف عندهم انطلاق هذا الطائر مبكراً جداً :

وانتِ التي كلفتني دلجَ السرُّى وجونُ القطا بالجلهتين جثومُ(20)

وتلك الحيوانات وغيرها مما تزخر به بيئة الشعراء ، فألفوها وألفوا طبائعها وجعلوها

---

(15) الحيوان : 2 / 371 - 372 .

(16) ديوان أبي نواس : 650 .

(17) المصدر السابق : 663 .

(18) ديوان بشر : 148 - 149 .

(19) شرح ديوانه : 120 .

(20) ديوان عنترة : 133 (نشرة امين سعيد صاحب مجلة الشرق الادنى) .

أشياء يتوسلون بها لتوضيح بعض المعاني التي يقصدون التعبير عنها .

البيئة وأثرها في تأليف الصور :

ونراهم أيضاً قد ابتكروا صوراً ، منتزعين جزئياتها من البيئة ، فهذا زهير يشبه الحمار برجل عريان واقف على موضع عال :

فآض كأنَّه رجلٌ سليبُ على علياءَ ليس له رداءُ(21)

والدلو مما استعان بها العربي في متح الآبار ، يشدها بالحبل ويرسلها الى القعر ، وانهم ألفوا انقطاع ذلك الحبل ، فتهوى الدلو بعنف وسرعة ، لذا شبهوا سرعة الأتان بتلك الدلو الهاوية ، فيقول زهير :

فشجَّ بها الأماعزَ وهي تهوي هَوَى الدلوِ أسلمَها الرشاءُ(22)

والسراب ظاهرة طبيعية تكتنف الصحراء في وقد الحر ، وهو مما يرهق الحيوان ، وتحملها له دليل قوتها وصبرها ، يصف سويد ناقته ويشبهها بثور الوحش فيقول :

فكأني اذا جرى الآل ضحىً فوقَ ذيَّالٍ بخدَّيه سَفَع(23)

ويذكر امرؤ القيس ظواهر طبيعية أخرى ، هي الرياح والظلال عند تشبيهه الناقة بالثور أيضاً :

كأنَّها مفردٌ شبوبُ تلفُّه الريحُ والظلالُ(24)

وانتزعوا من بيئتهم أشياء أخرى ، وجعلوها وسيلة لاظهار معانيهم بواسطة التشبيه ، كالسيف ، وأقواس السراء ، وانحناء الصيقل والسرادق وغيرها .

وثمة مظاهر بعيدة عن بيئة العربي الوثنية ، لكنها مألوفة ، فقد عايش العرب الأنباط ، وشاهدوا دهاقينهم ، وكيف يمشون بوقار ، عليهم البرانس ، فاختزن بشر بن أبي خازم هذا في ذاكرته ، وتداعى فيها هذا المنظر ، لما رأى الثيران تسير في ديار ميّة فقال :

---

(21) شرح ديوان زهير : 70 .
(22) شرح ديوان زهير : 77 .
(23) المفضليات : 1 / 194 ، أغاني الطبيعة : 136 .
(24) شرح ديوانه : 162 .

تمشي بهــا الثــيرانُ تردي كأنهاً دهاقــينُ أنبــاط عليهــا الصوامعُ(25)

ويبدو أن الشماخ قد تلقف مشهد الفارسي المعمم ، وأدخره في ذاكرته كذلك ، ثم شبه الحمار واقفاً بوقوف الفارسي المتوّج :

يظـــلُّ بأعلى ذي العشــيرةِ صائماً عليه وقــوفَ الفــارسي المتوَّجِ(26)

أما الراعي فانه انتبه الى مشية البطرك الوقور فشبه بها مشي الثور :

يعلــو الظواهــرَ فرداً لا أليفَ له مشى البطــركِ عليهِ رَيطُ كتَّانِ(27)

ومن آثار البيئة في شعر العرب انتزاعهم الألوان منها ، فلم تبق الصور التي أراد الشعراء احياءها في أذهاننا ناصلة ، وانما وجدناهم حريصين على تلوينها ، ليضفوا عليها قدراً كبيراً من الواقعية ، وليمدوا خيالهم ببعض أسباب الحقيقة ، فنراهم قد دأبوا على استحضار المرئيات بشيء من الدقة لأنهم أدركوا بفطرتهم أن الألوان من المستلزمات في اثارة الرؤى والمشاعر :

ومما وصفوه بالبياض ثور الوحش ، قال زهير مشبهاً ناقته به :

كأنَّ كورى وأنساعــي وميثرتي كسوتهــن مشبــاً ناشطــاً لهقاً(28)

ومثله الحطيئة اذ شبه ناقته بأخنس ناشط أبيض مسور يرعى برملة شقيقة :

أو فوق أخنس ناشــط بشقيقةٍ لهــقُ بغــايطِ قفــرةٍ محبورُ(29)

ومنها الظباء أيضاً ، فثمة نوع منها ناصع البياض ، وهي الآرام ، وشبهوا جيد الحبيبة بجيدها أحياناً كقول امرىء القيس :

وجيد كجيدِ الريــم ليس بفاحشٍ اذا هي نَصَّتْــهُ ولا بمعطَّلِ(30)

ومثله قيس بن الخطيم حين شبه جيد امرأة زين بقلائد الياقوت والزبرجد بجيد الريم :

---

(25) ديوان بشر : 113 .
(26) ديوان الشماخ : 16 .
(27) شعر الراعي : 191 .
(28) شرح ديوان زهير : 225 . لهقا : أبيض .
(29) ديوان الحطيئة : 377 .
(30) شرح القصائد العشر : 31 .

كجيد الـــريم صافهِ يزينُه توقــدُ ياقــوتٍ وفضـــل زبرجدِ[31]

ووصفوا بالسواد حمر الوحش ، فكعب بن زهير يشبه ناقته بجون رباعي يرعى في رمال وادي الجبا :

كأنّي كَسـوْتُ الرحــلَ جونــاً رباعياًّ تَضَمَّنَـــهُ وادي الجبـا والصرائمُ[32]

والقطا منه نوع سود البطون ، سود بطون الآجنحة والقوادم ، فأسموه الجوني ووجدنا زهيراً قد شبه فرسه بقطاة جونية تشبه حصاة القسم مراتعها في أرض مستوية :

جونية كحصـــاةِ القســـمِ مرتعُها بالسيِّ ما تنبـــتُ القفعـــاءُ والحسكُ[33]

وربما كان السواد مشرباً بحمرة ، فكانت السفعة ، وشبه المثقب ناقته بثور أسفع في ظهره خط يخالف لونه ، قد طواه الندى :

كأنهـــا اسفـــعُ ذو جُدَّةٍ يمســـده الوبـــل وليل سدٍ[36]

وشبه زهير ناقته ببقرة سفعاء الملاطم :

كخنســـاء سفعـــاء الملاطـــم حَرَةٍ مسافـــرة مزوءدة أمّ فرقدِ[37]

ووجدنا الحارث يشبه ناقته بنعامة سفعاء :

بزفـــوفٍ كأنهـــا هقلة أم رئـــال دوية سفعاء[38]

ونعت أبو نواس خدي اليؤيؤ بالسفعة :

من سفعـــة طربهـــا خداه أزرق لا تكذبـــه عيناه[39]

والأخضر من جملة الألوان التي لون الشعراء به بعض صورهم ، متأثرين بالبيئة ، فيصف زهير حماراً قد اخضرت جحافله ، لأنه تناول بها النبت الأخضر كثيراً :

---

(31) ديوان قيس بن الخطيم : 40
(32) شرح ديوان كعب : 140 .
(33) شرح ديوانه : 171 .
(34) شعر المثقب : 35 .
(35) شعر ذي الرمة : 647 .
(36) شعر المثقب : 10 .
(37) شرح ديوانه : 225 .
(38) شرح القصائد العشر : 255 ، شرح المعلقات السبع : 198 .
(39) ديوان ابي نواس : 654 .

ثلاث كأقـــواس السراء وناشط قد اخضرّ من لَسُ الغمـــير جحافله(40)

ويصف أبو نواس بازا ، فيقول ان برنسه مذهب ، ويعني لونه ولمعانه :

ذي برنس مذهـــب رصيص وهامـــة ومنسر حصيص(41)

ومن كلاب الصيد ما كان لونه الأصفر ، قال الشماخ :

من أصفـــر اللـــون ومبيض يقق كأنما أذنـــاه من بعض المزق(42)

.... وصفـــراء من نبـــع عليهـــا الجلائز(43)

وورد في الشعر ذكر الظباء العقر ، وهي (ما كانت حمراً يعلو حمرتها بياض)(44) ، قال عبيد بن الأبرص حين شاهدها تسرح في دار مهجورة :

أوطنتّهـــا عفـــر الظبـــاءِ وكانت قبـــلُ أوطـــانُ بدّنٍ أترابِ(45)

وذكرها أيضاً عبيد الله بن قيس الرقيات(46) ، والفـرزدق(47) ، ووصفـوا بالزرقـة عيني القطامي ، قال الأخطل :

يقلّـــب زرقـــاوين في مجرَهدةٍ فلا هو مسبـــوقٌ ولا الطـــرفُ كاذبُ(48)

.... أزرق لا تكذبـــهُ عيناهُ(49)

ووصفوا بالزرقة السهام أيضاً ، التي هي عدة الصياد ، قال الشماخ :

مطّـــلاً بزرقِ يُداوي رميُّها ....(50)

وقد نوه امرؤ القيس بدماء الطرائد التي اصطبغ بها نحر فرسه وشبهها بخضـاب الحناء :

(40) شرح ديوان زهير : 131 .
(41) ديوان أبي نواس : 647 .
(42) المصدر السابق638 .
(43) ديوان الشماخ : 46 .
(44) فقه اللغة : 130 .
(45) ديوان عبيد142 .
(46) ديوان عبيد الله : 75 .
(47) شرح ديوان الفرزدق : 1 / 162 .
(48) ديوان أبي نواس : 654 .
(50) ديوان الشماخ : 47 .
(51) شرح ديوانه : 110 .

كأن دمـــاءَ الهـــاديات بنحرهِ عصـــارةُ حنّـــاء بشيبٍ مرجلِ(51)

وشبه أبو نواس عيني بازه بفصي عقيق أحمر :

كأنّ عينيه اذا اثأرا فصّـــان فُصّـــا من عقيقٍ احمرا(52)

والخلاصة أنهم كانوا دقيقين كل الدقة في تكوين الصور ، يلتقطون جزئياتها من بيئتهم ، ليبلغوا التوفيق الكامل في اثارة الصور العقلية القريبة من الواقع .

ومن الملاحظ أن استجابة شعر الطرد للبيئة العباسية كانت بطيئة ، فانها حافظت على طابعها ، اذ آثر الشعراء التعقيد فيه ، وكان مفعماً بالغريب لفظاً ومعنى ، وفي الوقت الذي كنا نطمع فيه أن تؤثر البيئة الجديدة في هذا الفن ، كما أثرت في فنون الشعر الأخرى ، نجد أن الأجواء البدوية بقيت مهيمنة على الطردية ، وكأني بالشعراء قد تعمدوا هذا التعقيد المتمثل في الغرابة اللفظية والمعنوية ، باعتباره المجال الذي يستطيعون فيه اظهار قدراتهم على صوغ المعاني ، وابراز حصيلتهم اللغوية ، مجارين في ذلك فحول البادية .

وبالرغم من ذلك نلمح بعض الاستجابات لتلك البيئة منها ما وجدته في طرديات أبي نواس ، فقد أثرت المفاهيم الاسلامية في بعض المعاني ففي حديثه عن صيده مكاء باليؤيؤ يقول : أن ذلك المكاء لا ينجيه من اليؤيؤ منكبان أو جناحان ، اذا طارده ، فاليؤيؤ لا محالة سيخلع رئته من حشاه ، ولو أكثر هذا المكاء من التسبيح :

من بعـــد ما تذهـــب حملاقاهُ لا يوئـــل المكّاء منكباهُ

ولا جناحـــان تكنّفاه منـــه اذا طار وقـــد تلاهُ

دون انتـــزاعِ السَّحْـــر من حشاهُ لو أكثـــر التســـبيحَ ما نجّاهُ(53)

ومن مظاهر الاستجابة للبيئة العباسية الجديدة ، الصيد بالبندق والاهتمام بالكلاب والفهود والجوارح اهتماماً كثيراً ، لذا تأثر الشعر بكل ذلك ، ووصفه الشعراء .

ولما كان أغلب الشعراء الذين وصفوا الطرد قد مارسوه ، فقد امتاز الخيال في المرحلة الثانية عنه في المرحلة الأولى بأنه نابع عن معاناة وتجارب واقعية ، وهذا يخالف شعراء

---

(52) ديوان أبي نواس : 651 .

(53) ديوان أبي نواس : 651 .

المرحلة الأولى ، فلقد كان بينهم من وصف الصيد بدافع تقليدي .

الصدق الفني :

واني لأتساءل أخيراً ، هل توفر الصدق الفني في شعر الصيد والطرد ؟ كلنا يعلم أن الشعر هو الصدى الشعوري الذي تبعثه التجارب التي يعيشها الشاعر ، فهو في حياته العامة يتلقف الذكريات ، فتترسب في أعماق ذاكرته متخطية الحواس ، وما القصيدة الا عملية استرجاع الذكريات ، واستحضارها (في صورة ألفاظ أو معان أو حركات أو صور ذهنية)(54) .

ومتى وفق الشاعر الى افراغ تجربته بدقة ، بحيث يتم (اتفاق الجو الشعوري والجو التعبيري ، والألفاظ والصور التي يرسمها الشاعر يعكسان حقيقة مشاعره ويكشفان عن مقدرته الفنية)(55) توفر الصدق الفني في شعره ويتوخاه في اللفظ والمعنى والصورة ، والعاطفة والخيال ، وفي الشعر يقول الأستاذ الشايب : (وخلاصة ما يقال فيه أن يكون تعبيراً صادقاً عن العقل والشعور ، حتى يستطيع نقل ما في نفس الشاعر الى نفس القارىء ، ويضمن بذلك التهذيب والتأثير)(56) .

وثمة كلمات أبدع عبدة بن الطبيب في رصفها ، ثم نفخ فيها الحياة اذ حملها معاني زاخرة بالحركة ، فوجدنا الألفاظ موحية بمشاعره ، وأمكننا من استحضار فرسه ، وكيف انطلق يعدو خلف الوحش الساكنة ففزعت ، فأشبهت ابلا مطرودة في الصباح الباكر :

أفزعتُ منه وحوشاً وهي ساكنةٌ ... كأنها نَعمٌ في الصبحِ مشلولُ(57)

واليك صورة اخرى لا تقل واقعية عن الأولى ، صورة الغلام وقد اكتشف وجود ثلاث أتن وحمار ، وخشي أن تجفل منه ، لذا حرص على أن يكتم حركاته ، وأخذ يدب بحذر ، لئلا يصدر عنه صوت ، ولنا أن نتصوره يمشي على أطراف أصابع قدميه ، فهذا أخفى للصوت ، ويلملم جسمه مخافة أن تراه فتلك حال تنضح واقعية ، ونستطيع القول : أن زهيراً كان موفقاً كل التوفيق في انتقاء الألفاظ التي لاءمت بين شعوره

---

(54) أصول علم النفس ، دكتور عزت راجح : 306 (ط٦ القاهرة1966) .

(55) الوصف في الشعر العباسي : 358 .

(56) أصول النقد الادبي : 303 .

(57) المفضليات2 / 141 اغاني الطبيعة : 98 .

وأسلوبه ، ولا سيما « يدب ، ويضائله » فأن كل واحد من الفعلين قد أوحى لنا بصورة واقعية كاملة :

فبينـــاً نبَّغـــى الصيدَ جاء غلامُنا يدبُّ ويخفـــي شخصَـــهُ ويضائله(58)

ولقد أفلح زهير مرة أخرى في جمع الألفاظ التي تطبق التعبير عن المعنى المقصود ، وجعلنا نعاني ما عاناه زهير من جهد وصبر في محاولته مع جماعته على حمل وليدهم فوق ظهر الفرس ، ولنا أن نتخيل فرسهم النشيط ، وهو يباعد هيكله مشاكساً ، وهمهم ألا يصدر صوت فتنفر الوحوش ، ووفق الشاعر الى حد كبير في اصطناع هاتـين الكلمتـين « لأيا بلأي » ففي همزتيهما وتكرارهما يتجسد العناء ، ويتضح تصورنا له وتكاد كل لفظة تنطق به ، فهذه الفاظ موحية بمبلغ الجهد الذي قاساه زهير وجماعته ، ليخلص الشاعر من خلال ذلك الى ابراز مزايا فرسه الجيدة :

فلأيا بلأي ما حملنـــاه وليدَنا على ظهـــرِ محبـــوكٍ ضماءٍ مفاصلُهُ(59)

ولنتأمل معاً صورة حاول الأعشى رسمها مفعمة بالحياة والحركة فلقد أراد أن يجسد خصال فرسه الحميدة ، ويظهر سرعته ونشاطه ، فأخبرنا بأنه يدرك النحوص ومسحلها قبل أن يتعب ويعرق ، بينما وجدنا القطيع قد انتابه الفزع ، فتبعثـر ويريد كل حيوان الظفر بالنجاة واقترنت هيئة تفرق الصور على غير هدى في ذهن الأعشى بعقد من اللؤلؤ قد انقطع خيطه ، فتناثرت حباته الواحدة تلو الأخرى ، ولكننا نجد الصورة كبيرة واسعـة الجوانب ، أما اطارها فضيق عاجز عن استيعابها ، فكان الأعشى قد تعثر في الملاءمة بين شعوره وتعبيره والأبيات تفتقر الى الصدق الفني :

يصيدُ النُّحـــوصَ ومسْحَلَهَا وجحشـــهما قبـــل أن يستحمْ

ويومٍ اذا ما رأيت الصِّوا ر أدبـــر كاللؤلـــؤِ المِنْخَرِمْ(60)

ويصف امرؤ القيس كلب صيده ، فيمتدحه بألفاظ ملؤها الرضا ويعـدد صفاتـه المرغوبة ، فهو أليف ، حريص على ادراك الطريدة ، أنيابه متلاصقـة ، أهزلـه القنص فلاحت ضلوعه ، وهو بارع في تتبع الآثار ، وهو نهم ، فكأنه يمدح ابنا بارا ، والألفاظ

---

(58) شرح ديوانه (بيروت) : 48

(59) المصدر السابق : 50

(60) ديوان الأعشى : 39

ذاتها توحي بالطمأنينة :

فيدركنا فغمٌ داجنٌ سميع بصير طنوبُ نكِره
الص الضروس حبي الضلوعِ تبوعٌ كلوبٌ نشيطُ أشرِه(61)

ثم يتغير الجو ، ويحتدم الصراع ، فتتغير اللهجة ؛ وينتقل امرؤ القيس الى الفاظ توحي بالعنف ، الا أنه عجول ، يريد أن يبلغ ما يريد بسرعة ؛ لذا لجأ الى الايجاز ، فيضطر الى الابقاء على خطوط المعركة المهمة غافلاً تفاصيلها ، ويتجلى هذا في انتقاله الى أن الكلب انشب أظفاره في جسم الثور ، وفي عجز البيت يستغيث بصاحبه ، ليمد يد العون الى الكلب ، لكن لحظات الصراع كانت خاطفة فسرعان ما كر الثور بقرنه فوضع حداً للقضية ، وترك الكلب يترنح كما يترنح حمار دخلت النعرة أنفه ، وهكذا انتهت المعركة ونحن نتشوق الى معرفة وقائعها مفصلة ، ولكن امرأ القيس المولع بالصيد يفترض فينا تلك المعرفة ، ويحسبها من البديهيات فتناسها :

فانشبَ أظفاره في النَّسا فقلتُ هبلتَ الا تنتصرْ
فكرٌ اليه بمبراتِهِ كما خلَّ اللسان المُجَرْ
فظلَّ يرنَّح في غيطل كما يستدير الحمارُ النَّعِرْ(62)

أما كلب أبي نواس فمنتصر أبداً ، لذا أحبه كثيراً ، واستطاع أن يشعرنا بذلك الحب ، فقد أطراه كلما سنحت له فرصة ، وأذهله الاطراء عن وصف الطريدة ، وتصوير الصراع بينها وبين الكلب ، فكلبه كثير الصيد ، يستعبد صاحبه ، سريع نجيب ؛ له أوصاف حسنة ، يدرك الطريدة بسرعة ، فهذه هي السمات العامة لكلاب أبي نواس .

ولنأخذ احدى طرديات أبي نواس في وصف الكلب ، فهو سريع لا يسبق ، نحيف ، جاء به الملوك من سلوق ، يلعب بمقوده ؛ يمرح بخفة ورشاقة ، يركض هنا وهناك بين السهول ، يحقق الامال في طرده ، ويشفي الجوى ، وهو ينال الطريدة وان كانت على العيوق ، فأنه ينزلها دامية حلوقها ، وهذا من صميم عمله ، لذا فالصياد كثير الرزق به :

انعتُ كلباً ليس بالمسبوقِ مطهَّماً يجري على العروقِ

---

(61) شرح ديوانه80

(62) شرح ديوانه80

جاءت به الأمــلاكُ من سَلوقِ كأنّــه في المقــودِ الممشوقِ
اذا عدا عدوة لا معوقِ يلعــب بــين السهــلِ والخروقِ
يشفــي من الطــردِ جوَى المشوقِ فالــوحشُ لو مرّتْ على العيوقِ
أنزلهـــا دامية الحلوقِ ذاك عليهِ أوجــبَ الحقوقِ
لكلٍّ صياد به مرزوقِ (63)

وأبو نواس هنا قد وفق في اظهار مشاعره وتجسيد حبه للكلب ، واستطاع أن يبرز منافعه ، ولكنه قد أبعد جوانـب مهمـة من الصراع الـذي يفتـرض أنـه دار بـين كلبـه والطريدة ، خلاف امرىء القيس الذي خطط معالـم ذلك الصراع بايجاز ، ولكنه مر بكل جانب منه مرا خاطفاً ، ووجدت أن أبا نواس قد انتهج هذا المسلك في طردياته الأخرى ، سواء أكانت وسيلة الصيد كلباً أم فهداً أم جارحاً .

(63) ديوان أبي نواس : 624-625

الفصل الرابع
الأسلوب

الأسلوب هو الشكل الذي يعنى به الشاعر ، فيصوغ فيه أفكاره ومعانيه ومشاعره ، اذ هو مجموعة من الألفاظ والعبارات ، ينسقها حارصاً على تعبئتها بالصور التي تخيلها ، وتوضحت معالمها ، فكانت تلك الألفاظ والعبارات وسيلة اخراجها من عالم الفكر الى دنيا اللفظ والنشر ، وهنا تكمن البراعة ، وتتجلى قوة الادراك ، وتتميز حساسية الشعور ، وتتوضح روعة الذوق ، فالأفكار والمعاني قد تعرض لكل انسان ، والأحاسيس والمشاعر والعواطف قد ينفعل بها كل شاعر ، ولكن الحاذق وحده الذي يتمكن من انتقاء الألفاظ وسبك العبارات ، فنرى أسلوباً سليماً ، اذا كانت الكلمات متناغمة منسجمة ، والعبارات متآلفة ، يشد بعضها بعضاً ، ليس في الكلمات نفر في أصوات حروفها ، ولا نجد تباعداً سلبياً بينهما ، مع دقة في اختيارها بحيث تكون قادرة على نقل المعاني والصور قدرة كافية ، وهكذا (يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير)(1) .

والشعر ـ وهو موضوع دراستي ـ صدى للعواطف والانفعالات ، وتلك قد تتفاوت بالنسبة للأفراد قوة وضعفاً ، بل قد تتباين عند الشخص ذاته من ظرف لاخر ، (والنتيجة الطبيعية لكل ما سبق من (1) اختلاف درجة الانفعال في القوة (2) وصدق التعبير عنها باللغة ، أن الأسلوب نفسه يختلف بأختلاف معناه الوجداني)(2) ولعلي واجد أثر

---

(1) الأسلوب ، احمد الشايب : 48 (ط4 القاهرة1956) ، ولقد اعتمدت في بحثي (الأسلوب) على الأسس النظرية الواردة في هذا المصدر .

(2) الأسلوب : 74-75

الشخصية ونفسية الشاعر وبيئته في نماذج احللها لأربعة شعراء ، فقد وصف النابغة الذبياني مشهداً من مشاهد الطرد ، وهو صراع ثور الوحش مع كلاب الصيد ، وكذلك الأعشى وذو الرمة وأبو نواس ، ونحن نعلم أن النابغة والأعشى كليهما من عصر واحد ، قد تكسبا بالشعر ، ولكن النابغة رجل وقور حكيم كما أنه استند الى ركن ركين في حياته ، اذ لازم ملوك الحيرة ولجأ الى ملوك الغساسنة احياناً ، فأجزلوا له العطاء حتى أكل في صحاف الذهب والفضة فضلاً عن أنه زعيم في قومه ، فكان هادئاً متأنياً متريثاً ، لم تقلقه الحياة ولم تدفعه الى التسرع والعجلة في شؤونه ، لذا وقف عند وصفه الثور متأملاً يخبر ويشبه ، بل يكثر من التشبيه ، وكان دقيقاً في وصفه ، واضح الرؤية قد تمثلت له الأفكار والحوادث بكل جلاء ، ففي غمرة الصراع واحتدامه لم ينس الكلب الذي نفذ في صفحته القرن الأسود ، فشرع يعجمه انتقاماً وألماً ولكن دون جدوى ، بث الذبياني تلك الصور الزاخرة بأبيات ثلاثة ، نلمس في ألفاظها الألفة ، وفي تتابع معانيها الأناة ، وفي تكونها الوضوح ، وتتراءى لنا شخصية الذبياني شخصية رزينة ، ملؤها الثقة بالنفس ، فكأني به مسيطراً على رؤاه الذهنية يختار منها المناسب ، وينحى عنه الفج ، حتى تكامل المشهد ، ودفع الكلب الثاني الى سبيل واحد ، واحد فقط ، هو الانسحاب ، فالنتائج واضحة والمصير بينٌ :

شكَّ الفريصةَ بالمدرى فانفذَها ... شكَّ المبيطر اذ يشفي من العضدِ
كانهُ خارجاً من جنب صفحتِهِ ... سفودُ شرْبٍ نسوهْ عند مفتأدِ
فَظَلَّ يعجمُ أعلى الروقِ منقبضاً ... في حالكِ اللونِ صدق غير ذي أودِ
لما رأى واشقٌ أقعاصَ صاحبه ... ولا سبيل الى عقل ولا قود[3]
قالتْ لهُ النفس لا أرى طمعاً ... وان مولاك لم يَسْلَمْ ولم يَصِدِ

أما الأعشى فلم يكن مستقر الشخصية ، فهو كثير الرحلات ، قليل القناعة ، لم يترفع في تكسبه ، مدح أي شخص طمع فيه بهدية ، صغيرة كانت أو كبيرة ، هيأ قصيدة في مدح الرسول (ص) وتوجه اليه ، ولكنه تراجع بثمن بخس ، ابل معدودة ، فليس من شأنه العقيدة الجديدة ، وليس من همه الايمان أو الكفر ، فهو متلهف يتعجل الأمور ، ولذا نراه حين ألم بالمشهد الذي عرض للذبياني ، تناوله بايجاز مخل ، لم يبرأ من المبالغة ،

---

(3) ديوان النابغة : 27-28

ثور واحد، يهاجم مجموعة من الكلاب ، فيطعنها في صدورها كما يشك الجراد صائده وقد نظمه بالعود ، فماذا صنعت تلك الكلاب ؟ وجدنا الذبياني كان يتدبر صرعى الكلاب واحداً واحداً ثم حمل الثاني على التفكير فالهزيمة ، أما الأعشى فأنه لم يتنبه إليها فرداً فرداً ، فقد تكلم عليها بالجملة ، ووضع لها نهاية كذلك ، والفينا تلك الصور تتزاحم في بيت واحد ، والكلمات تغص بمعانيها ، فهي أقل من أن تستوعب تلك المشاهد والرؤى ، كما اننا نجد أن وجه الشبه يختلف اختلافاً معكوساً ، فهو في المشبه أقوى منه في المشبه به ، فشك الجراد لا يتطلب من ذي العود أدنى جهد ، فالجراد حشرة صغيرة ضعيفة ، والمشهد خال من العنف الذي يتميز به الصراع بين الكلاب والثور ، فمن المعقول أن يلقى الثور مقاومة وهو ينفذ قرنه في صفحة الكلب وعلى هذا يمكنني القول أن التشبيه هزيل ، فالمفروض أن يكون وجه الشبه في المشبه به أوضح منه في المشبه ، ورأينا العكس صحيحاً :

فشكَّ لها صفحاتِها صدور روقهِ كما شك ذو العود الجراد المنظما[4]

أما ذو الرمة فهو رجل من أهل الوبر ، قانع بما تجود به البادية على قلته ، وألف رؤية الفلوات ووحشها ، وقاسى ما فيها من عناء وخشونة وتعود الصبر ، فانعكس ذلك على وصفه للثور وهو يصارع الكلاب ، فالألفاظ جزلة والعبارات متينة ، والحوادث مستقصاة ، وتتابعها معقول ، ولا عجب فذو الرمة (لم يكن أحد من القوم في زمانه أبلغ منه)[5] .

فكرٌّ يمشقُ طعناً في جواشِنها كأنَّه الاجر في الاقبال يحْتَسِب
فتارة يخض الأعناق عن عرض وخضا وتنتظم الأسحار والحُجُبُ
يُنْحى لها حدَّ قدريٍّ يجوف به حالاً ويصدد حالا لهُذَمٌ سَلِبُ[6]
حتَّى اذا كُنَّ محجوزاً بنافذةٍ وزاهقاً وكلا روقيْهِ مختضِبُ
ولى يهز انهزاماً وسطها زعلا جذلان قد أفرخت عن روعه الكرب

أما أبو نواس فشخصيته معروفة ، والذي يهمني هنا جانبها اللاهي فقد انغمس أبو

(4) ديوان الأعشى : 295

(5) خزانة الأدب : 1 -107

(6) ديوان شعر ذي الرمة : 25 -27 . يشق : يطعن ـ يخض : يطعن ـ الأسحار : الرئات ـ يصدد : ينفذ ـ لهذم : قاطع ـ زعلا : نشيطا ـ أفرخت : انكشف ـ الروع : القلب .

نواس في اللذات الى أذنيه ، يعب منها عباً ، وكانت لذاته متعددة الألوان ، ويبدو أن الخمرة ومجالسها وحياته الماجنة لم تستنفد كل طاقاته ، فأنعطف الى الطرد مجارياً به بيئته ، باحثاً عن متع جديدة ، فوجدها في الفتك بالوحوش ، يستعدي بعضها على بعض ، فكانت الكلاب والفهود والجوارح أثيرة عنده ، لأنها وسيلته للايقاع بالطرائد ، فأحبها ولم يصورها الا منتصرة ، وهو حضري لم يألف كثيراً طبائع الوحش ، ولم يهتم بالناقة ليشبهها بالثور فينتصر له ، فالثور لديه صيد فحسب ، فليصرعه اذن ، وكان له ذلك ، ووجدت أبا نواس لم يقف طويلاً عند الفرائس ، ولم يعتن بطبائعها ، ولم ينتبه الى صراعها ، وانكر دفاعها ، وكان يحرص كل الحرص على الاغراب في الألفاظ ، والتوعر في العبارات ، يريد أن يطاول شعراء البادية بذلك :

يا رُبَّ ثورٍ بمكان قاصِ ذي زمعٍ دلامصٍ دلاصِ
باتَ يُراعى النجمَ في خصاصِ صبَّحتهُ بضمَّر خماصِ
لاحقه أظباؤها شواصِ فهن بعد الخضرِ النَّصَّاصِ
منه له حيثُ يكون الخاصي يكشرُ عن نابٍ له قرَّاصِ
أرنبةً سوداء كالعناصي بها يُعاطِي وبها يعاصِي
يصيد بالقرب وبالأقاصِي كلَّ سمين دهن رقَّاصِ(7)

في هذه الأبيات وضحت الغرابة ، وبدت في القافية ، وذلك التكرار الكثير المتعمد لحرف الصاد ، وهو حرف ندر اتخاذه رويا ، ناهيك عن التزام التصريع به ، وتتراكم عندي كلمات لم تخل من حوشية وغرابة منها : خصاص ، وشواص ، والخاصي ، والعناص ؛ كما توفر الطباق الايجابي في موضعين : يعاطي - يعاصي ، بالقرب ، بالأقاصي ، ويخيل لي أن أبا نواس لم يكن شاعراً ينظم عن طبع ، وانما كان مثالاً ينحت في صخر فالكلمات تتدافع كأنها حشدت مكرهة في مكان واحد ، لا يربطها الا كونها عربية ، وذلك الوزن من الرجز ، فحملت المعاني والصور متثاقلة بعنت وتعسف لم يسلم من التكلف .

---

(7) ديوان أبي نواس : 641 . الدلاص ، والدلامص : البراق - الخصاص : الخرق الصغير - الخماص : جمع خميص أي ضامر - شواصي : جمع شوصاء أي شرسة - النصاص : البالغ أقصى الجري - قراص : كثير القرص - العناصي : القليل المتفرق من النبت والشعر - دهين : كثير الدهن .

والأبيات السابقة لم تحمل الينا وصفاً للصراع بين كلب الصيد والثور ، ولعلنا نجد شيئاً منه في طردية أخرى ، قال أبو نواس بعد اخبارنا بخروجه للصيد في أواخر ليل شديد الظلمة ، وحدد وسيلة صيده وكانت كلباً ووصفه وبيان مهارته في الصيد ، هاجم ذلك الكلب ثوراً في اناث يحميها ، وشرع يكر على الثور من الخلف ومن الامام كأنه فارس شجاع من فتيان شيبان ، ثم انهار الثور بالتراب قد انقلب قرناه فصار عند اظلافه :

ثم انتحى في سَنَنَيْ جمامهِ ... لِناشِطٍ يدفعُ عن أخلامهِ
فظلّ يغري ملتقى اخصامهِ ... من خلفه طوراً ومن أمامهِ
كأنهُ في الكرِّ واقتحامهِ ... ضربُ فتىً شيبانَ في اقدامهِ
من خيطةِ النحرِ ومن قدّامهِ ... حتّى هوى يفحصُ في رغامه
منقلبَ الروقِ على أزلامهِ ... يا لكِ من عادٍ الى حمامه(8)

واذا رغبنا في مقارنة صورة هذا الصراع مع صورة في العصرين الجاهلي والأموي ، التي قدمها الذبياني وذو الرمة فسنجد الفرق واضحاً من حيث الاهتمام بالطريدة والتفصيلات .

والخلاصة : أن للشخصية اثراً فعالاً في الاسلوب ، ولقد لمسنا ذلك في وصف شعراء أربعة ، من بيئات مختلفة وعصور متغايرة ، كلهم وصفوا مشهداً واحداً ، فكان الاختلاف والتباين واضحاً في أساليبهم ، ولكن الفروق لم تكن كبيرة ، فلقد حافظ شعراء الطرد على سماته الأولى ، وكانت الاستجابة للبيئة محدودة ، ولا سيما في العصر العباسي ، ويتجلى ذلك في طرديات أبي نواس الى حد ما .

ومن شرائط الوضوح في الأسلوب أن يكون الشاعر (فاهماً ما يريد أداءه فهماً دقيقاً جلياً ، ثم يحرص على ادائه كما هو ، ولذلك أثره البعيد في قيمة الأسلوب ، لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء . وبعد ذلك يأتي التعبير اللغوي)(9) ، ولكي تكون الأفكار طليقة ، لا بد أن تكون حصيلة الشاعر من المفردات غنية ، مع قدرة على التصرف

(8) ديوان أبي نواس : 636 . انتحى : عمد ـ السنن : الطريق ـ الناشط : الثور ـ اخلام : اناث ، والخلم الصديق ـ ملتقى أخصامه : مجتمع خصومه ـ فتى شيبان : أما بسطام بن قيس واما هانيء بن مسعود أو يزيد بن مزيد ولعله المراد هنا ، لأنه كان من أشهر قواد الرشيد ـ الأزلام : جمع زلم (محركة) وهو الظلف .
(9) الأسلوب : 186.

في ابتكار التراكيب ، واستيلاد العبارات الملائمة لتلك الأفكار ، وعليه أن يجند من الألفاظ ما يكفي لأداء المعنى ، والا يسمح بأن يطغى احدهما على الآخر ، وان يكون اللفظ نصاً في معناه ، لا يتذبذب بينه وبين غيره ، فيؤدي الى غموض العبارة ، وانغلاف المعنى .

ويقول الأستاذ الشايب : (والقانون الأساسي لتحقيق هذا الجلاء هو تحري البساطة في صوغ العبارات ومجانبة التعقيد ، مع الاحتفاظ بسموها وقوتها)(10) ولنقرا معاً نصاً لشاعر جاهلي ، وليكن عبيد بن الأبرص يصف العقاب ، ثم نطالع نصاً أموياً للأخطل في وصف للصقر ونقارنهما بآخر من شعراء المرحلة الثانية ، وهو الشمردل ، لنرى مدى الجلاء والوضوح والبساطة ، أو التعقيد في أسلوب كل منهم ، فأبن الأبرص قد اختار ألفاظه واضحة ، بل واضحة جداً ، وآلف بينهما بكل قدرة وبساطة ووضوح ، تكاد تقرب التراكيب الى الحديث السهل العادي ، ولكنه بعيد عن الاسفاف والضحالة فهو يشبه فرسه بعقاب ويشرع يتحدث عن تلك العقاب ، والأبيات(11) قد أوردتها في حديثي عن العقبان ، ووجدنا فيها كلمات واضحة متواددة ، تشدها الالفه ، وقد انتظمها وزن سلس خفيف هو البسيط(12) ، فعبرت عن المعاني بكل رضا ، وكأني بالشاعر رخي البال ، مطمئن النفس ، صافي الذهن ، قد تبلورت الصور في مخيلته تبلوراً تاماً ، فانقادت له الألفاظ طائعة ، لتعطينا تلك الصور النابضة بالحياة والواقعية ، ومن تلك الصور : رؤية العقاب للثعلب وانتفاضها وتهيؤها للنهوض ، شعور الثعلب بها وخوفه ودبيبه وكيف يقلب حملاق عينيه حذراً وخوفاً ، رفعه ذنبه وارتياعه وارساله صوتاً يفضح هلعه ثم صورة الثعلب وقد جدلته العقاب فتجرح وجهه ، وهو يصيح ألماً حين نفذت مخالبها في جنبه ، فأستطيع أن أقول أن عبيداً كان موفقاً في اصطناعه الكلمات الواضحة ، البعيدة عن الغرابة ، ووفق مرة أخرى في صياغتها لتحمل الينا تلك المعاني والصور التي اختمرت في ذهنه فأرسلها واقعية بعيدة عن الغموض والتعقيد ، طابعها الدقة والجلاء .

واذا عكفنا على أبيات للأخطل في وصف الصقر ، ستطالعنا شخصية كثيرة الشبه

---

(10) الأسلوب : 191

(11) ديوان عبيد : 29-30 ، وبحثي « العقبان » في باب « وسائل الصيد » .

(12) القصيدة من البسيط وفيها أبيات كثيرة خارجة عن هذا الوزن ، الى ذلك أشار المعري :

وقد يخطىء الرأي امرؤ وهو حازم كما اختل في وزن القريض عبيد انظر شرح القصائد العشر . 324 (الهامش) .

بشخصية النابغة الذبياني(13) ، فكلاهما قد انتجع بلاط الملوك ففقه تصابر النديم ، وتروية في الحديث ، وبسط الكلام ، والأخطل حريص على الأستئثار باعجاب بني أمية في عصر كان زاخراً بفحول الشعراء ، لذا كان اهتمامه منصباً على تجويد شعره ، طالما كان هذا الشعر وسيلته في العيش ، فامتاز أسلوبه بالقوة والجلاء ، وكلماته بالدقة ، ومعانيه بالاشراق وجدناه يشبه فرسه بقطامي ، ويسترسل في وصف هذا القطامي ، ولقد استشهدت بأبيات الأخطل في بحثي الصقور ولمست فيها نفسية شاعر ذي ذهن ثاقب وتقص دقيق واع ، اذ يبدو الأخطل من خلال وصفه للصقر انساناً قد خبر هذا الجارح ، وعرف طبائعه ، واطلع على فنون صراعه ، اطلاعاً عميقاً وترسبت معرفته في مخيلته ، وتبلورت المعاني والصور فبثها بامعان ورويَّة وبروح بدوية أصلية ، تجلت في جزالة الأسلوب ومتانة التركيب .

وللشمردل طردية في عشرة أبيات ، رويهُّا السين ، قد التزم بها التصريع ، يصف بها خروجه للقنص بطير جارح ، كان وقت خروجه قبل طلوع الشمس ، في يوم بهيج ، وسيلته جارح منقار منحن ، ونفسه شجاعة جوعان لم يأكل منذ الأمس ، ينظر يمنه ويسرة بعينين حادتين ، يبحث عن صيد يهلكه ، كما ينظر الغضبان أو المجنون ، واذا به يلمح عشرين من الحباري ، يمشين ببطء كالحاطبات ، أو كالنصارى بثيابهم السود ، وينتقل الشمردل بسرعة فائقة الى نهاية الصراع ويذكر نتائجه دون وصف له ، اذ صرع منهن تسعاً ، فقد أصاب بعضهن بالرأس فأدماهن ، ونال البعض الآخر بمخالبه فأصطبغن باللون الأصفر ، لأنها نفذت الى الأجواف وتخضبت بما فيها من أعلاق ، وكذلك فتك ذلك الجارح بذكر من الحباري ، فتهالك ورأسه الى الأسفل ، وبهذا حقق آمال الصياد الذي يحمله ، وكان ينقض على الحباريات كجلمود قليل العيوب ، فهو أملس كالجفنة ، أو جرة الفخار :

قد اغتدي قبل طلوعِ الشمسِ	**للصيدِ في يومٍ قليلِ النَّحْسِ**
بأحجنِ الخطم كميٍّ النفسِ	**غرثان الا أكلهُ من أمسِ**
يطرح للطمس قَذَّ الطمسِ	**كنظرِ الغضبانِ أو ذي المسِ**
حتى اذا عاينَ بعد الحبسِ	**عشرين من حباريات غبسِ**

(13) الشعر والشعراء : 1 -483

يمشين مشى الحاطبات القَعْسِ   أو كالنصارى في ثياب طُلْسِ
فهنَّ بين أربعٍ وخمسِ   صرعى ومستدمٍ أميمِ الرأسِ
كأنَّما مخلبهُ في وَرْسِ   من علقِ الأجوافِ بعد النهسِ
وخربٍ قد ذلَّ بعد الفقسِ   كالبكرِ يعطي رأسَه للعكسِ
لاح وقد أرضاهم في الحَدْسِ   على شمالِ قانصٍ مُعتَّسِ
كأنَّهُ وهو لها في درسِ   جلمود قذاف قليل الوكسِ
بلملم من صخراتٍ مُلْسِ[14]

هذه طردية تعد نموذجاً كاملاً لطرديات المرحلة الثانية التي وصل اليها شعر الطرد ، وان ضممناها الى طرديات أبي نواس تعذر علينا تمييزها عنها بالرغم من أن الشمردل متقدم من حيث الزمن على أبي نواس ، ويبدو الشمردل لي من خلالها شاعراً حاول الابتعاد عن الاغراب في اللفظ ، والتعقيد في المعنى ، وكاد يوفق في ذلك لولا الزامه نفسه بالتصريع ، شأنه شأن الرجاز الذين عاصروه ، فتعثرت التراكيب بهاتيك العقبات ، ومما زاد الأمر صعوبة جعله حرف السين رويًّا ، وهو من الحروف التي قل اصطناعها لذلك .

وجدت الشمردل قد جاء بأشياء جديدة في وصفه للجارح ، بالقياس الى شعر سابقيه ومعاصريه ، فأنه وصف المنقار ، وشجاعة الجارح ، وجوعه ، وحدة بصره ، بل وطريقة نظره ، كالغضبان أو كالمجنون ، ووصفه للطرائد وهي الحباريات ، ولجوءه الى التشبيه في ابراز نعوته وتقريبها للأذهان ولكنه تناسى الصراع ، وأعلن نتائجه ، وأخيراً عودته الى اطراء الجارح .

ووجدت في طردية الشمردل الألفاظ مفهومة وواضحة ، ولكن الشاعر قد استعملها بشكل ولد بعض التراكيب الغامضة ، ومن ذلك : يطرح للطمس قذ الطمس ، كالبكر يعطى رأسه للعكس ، كأنه وهو لها في درس جلمود قذاف قليل الوكس. فتلك عبارات مبهمة المعنى ، متكلفة التركيب.

ولقد وجدت كلمات أعجمية طريقها الى بعض طرديات أبي نواس ، فقد أورد

(14) التذكرة الحمدونية (مخطوط) : 345, 44/5 ، وبعض الأبيات نسبت الى أبي نواس ، أنظر ديوانه : 663 كما وجدتها في مخطوطة لشعر الشمردل جمعه الدكتور نوري القيسي ، فاطلعني عليها مشكوراً .

كلمة « سمند » في وصفه للفهد ويعني الفرس[15] ، و« دستبان »[16] بمعنى قفاز ، و « نعمان سهرداز »[17] مكان ، و« دستنماز »[18] ، ويقصد الجارح الذي يتطاير في اليد اذا رأى الصيد ، و« التوخاز »[19] بمعنى الطعن ، و« أسبهرج »[20] وهو لون ، و«الدهيرج»[21] أي عشر ريشات ، و« درخمينا »[22] أي الداهية ، وغيرها .

وبعد تلك الأمثلة من شعر الطرد يمكن أن نفهم شيئاً بات لي واضحاً ، وهو محافظة شعر الطرد على بدويته ، وجدت هذا في المرحلة الأولى ، وكان تعرض الشعراء لوصف الصيد والطرد غرضاً ثانوياً في القصيدة ، وكانوا يعالجونه أسوة بأغراضهم الأخرى ، لذا يمكن القول أن شعر الطرد كان يتلقى من المؤثرات ما تلقاه الشعر العربي بوجه عام ، ومثل القصيدة كان الرجز ، فالأغلب العجلي والعجاج ورؤبة وغيرهم ، ان أغربوا في الألفاظ ، وتمحكوا في صياغة العبارات فقد كان هذا شأنهم في أغراض الأرجوزة ومنها وصف الصيد والطرد ، وشاءت الظروف في المرحلة الثانية أن يتخذ الرجز في وصف الطرد ، ويجعله شعراء الحضر مجالاً لمنافسة شعراء البادية ، فحرم من الرقة والسهولة والعذوبة التي أضفتها البيئة الحضرية الجديدة على أغراض الشعر الأخرى ، وبقي شعراء الطرد ملتزمين بأساليب شعراء المرحلة الأولى ، ولمسنا ذلك في طرديات الشمردل وأبي نواس .

---

(15) ديوانه : 649 ، القاموس (سمد) .
(16) ديوانه : 650
(17) ديوانه : 648
(18) ديوانه : 648
(19) ديوانه : 648
(20) ديوانه : 664
(21) ديوانه : 664
(22) ديوانه : 671 .

الفصل الخامس
نهج القصيدة

للقصيدة التي تضمنت وصف الصيد والطرد نهج معين ، وسأحاول أن أتفقد ذلك النهج في :

(1) الرجز وصلته بوصف الصيد والطرد .

(2) بنية الطردية .

1 ـ الرجز وصلته بوصف الصيد والطرد

الرجز بحر من بحور الشعر ، وأجزاؤه « مستفعلن » ست مرات ، ولقد جوزوا فيه تغيير قافية كل بيت من أبياته بشرط التزام التصريع بين شطريه[1] ، وربما عد بعضهم مشطور السريع ، ومنهوك المنسرح من الرجز أيضاً[2] .

وتقودنا تسمية هذا البحر بالرجز الى الصلات التي تربط بمعنى الفعل الأصيل ، فالرجز لغة (ارتعاد يصيب البعير والناقة في أفخاذهما ومؤخرهما عند القيام)[3] وفي ذلك حركة واضطراب ، (والارتجاز : صوت الرعد المتدارك . وارتجز الرعد ارتجازاً اذا سمعت له صوتاً متتابعاً)[4] ، ولذا سمي بحر الرجز كذلك (لتقارب اجزائه وقلة حروفه)[5] ، وهذا واضح في « مستفعلن » المكونة من سببين ووتد ، وما فيها من تلاحق

---

(1) الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ، معروف الرصافي : 64 (بغداد1956) .

(2) العمدة : 1 -183 ,184

(3) لسان العرب (رجز) .

(4) اللسان (رجز) .

(5) اللسان (رجز) .

الحركات والسكنات التي توحي بالحركة والاضطراب أيضاً .

كان الشعر قبل الخليل نوعين ، رجزاً وقصيداً ، (فكل شعر لم يكن رجزاً سموه قصيداً)(6) ، أما تسميات البحور فما كانت معروفة عندهم ، وانما ابتكرها الخليل بعدما أن قيض له اكتشاف الصلات النغمية ، والملامح الموسيقية في مجاميع الشعر العربي .

ويبدو أن الفحول من شعراء الجاهلية كانوا يترفعون عن النظم رجزاً حتى جاء الأغلب العجلي (قتل في معركة نهاوند 21 هـ) ،(وهو أول من شبه الرجز بالقصيد واطاله ، وكان الرجز قبله انما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة ، اذا خاصم أو شاتم)(7) ، والأغلب العجلي هو الذي ابتكر الأرجوزة ، وهي القصيدة التي نظمت وفق بحر الرجز، ولقد صاغ الشماخ بعض شعره رجزاً ، ثم وجدنا بعد منتصف القرن الأول فئة ارتجزوا قليلاً ، ولا سيما في الهجاء ، منهم الأخطل ، والفرزدق والبعيث ، ولاحظنا في هذه الفترة شعراء مارسوا القصيد والرجز مع غلبة القصيد مثل جرير وذي الرمة وعمرو بن لجأ والشمردل ، وبعضهم غلب عنده نظم الرجز على القصيد ، ومنهم حميد الأرقط وأبو نجم العجلى الذي راجز العجاج وغلبه واستعمل أبو نجم الرجز في المديح والهجاء ، ووصف الصيد والفهود ووجدنا شعراء هجروا القصيد وانصرفوا الى الرجز وأشهرهم العجاج الذي سار على مذهب شعراء القصيد ، والتزم نهج القصيدة العربية، من نسيب وطلليات ووصف الفيافي وحيوان الصحراء ، وتشبيه الناقة بالوحش ، ثم الانعطاف نحو الغرض الرئيسي من مدح، أو فخر وغير ذلك، من شعراء الأراجيز أيضاً دكين الراجز وأبو نخيلة الحماني وأبو مرقال عطاء بن أسيد السعدي المعروف بالزفيان ورؤبة وابنه عقبة ، ثم أندرس هذا اللون من الأراجيز ، حيث كان أبو العباس العماني آخر الرجاز(8) .

واقتصر الشعراء في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني على استعمال الرجز المشطور ، وكان على شكل مقطعات تناولت موضوعات خاصة ارتجالاً أو في الرثاء ، أو الهجاء أو وصف الحيوان والصيد ، أو الملح والحكايات المضحكة ، ولقد نبغ الشمردل في نظم أراجيز متعددة في وصف الصقر والكلب والصيد ، وكان ذلك بعد منتصف القرن

(6) الأدب الرفيع : 12
(7) الشعر والشعراء : 2-613 ، العمدة : 2-189 ، خزانة الأدب : 2-207
(8) تأريخ الآداب العربية : 167-190

الأول ، وتلك موضوعات عالجها الشعراء قصيداً أيضاً[9] .

ولقد دأب شعراء العصر العباسي في القرن الثاني والثالث والرابع على اتباع هذا المنهج في صوغ موضوعات خاصة بالرجز المشطور ، ولذا كثرت الأراجيز في الطرد ، فوصفوا الصيد وحوادثه ووسائله ، كالكلاب والفهود والبزاة وغيرها ، وغلب الرجز على سائر الأعاريض في هذا الموضوع ، ولم يأنف كبار الشعراء النظم بهذا الوزن ، أمثال الفضل بن عبد الصمد الرقاشي وأبي نواس والناشيء الأكبر ، وابن المعتز ، وأبي فراس الحمداني وغيرهم .

ومن الموضوعات الأخرى التي صيغت رجزاً ، الرثاء وأشهرها مرثية أبي نواس في أستاذه خلف الأحمر[10] (وهو حي ، وقد قرأ خلف المرثية وعجب بها)[11] ، وكان الرجز مطواعاً في نظم الحوادث التأريخية والفنون والمعارف العلمية ، وهو ما اصطلح على تسميته بالشعر التعليمي .

لقد كان الرجز بحراً عامياً بدوياً ، فانتشر لسهولته وملاءمته لظروف الارتجال ، ووجدنا أن شعراء القبائل حريصون على رفع شأنه ، لينافسوا به أساليب الشعر المدني ، فاخترعوا الأرجوزة بمعناها الخاص ، والذي شابهت به القصيدة من حيث منهجها وأغراضها ، وعالجوا بها موضوعات بدوية بألفاظ غريبة بعيدة عن أفهام الحضر[12] .

وفي أوائل العصر العباسي اختفى هذا اللون من الأراجيز الحقيقية ويرجع نالينو ذلك الى ضربين من الأسباب ، صناعية وطبيعية ، فالصناعية تتعلق بتعذر حفظ روى واحد في الأراجيز الطولى ذات الأبيات القصيرة من مشطور الرجز ، فضلاً عن أن ذلك الروي الوحيد لتلك الأبيات يؤدي الى الملل ، كما أنه يصعب حصر المعنى الواحد في بيت من الرجز المشطور وقد يستغرق البيتين أو الثلاثة أو الأربعة ، وربما أكثر من ذلك ، وهذا من شأنه أن يفسد المعنى ويولد التعقيد . أما الأسباب الطبيعية فتعود الى أن الأرجوزة بدوية معنى ولفظاً ، لذا ترفع شعراء العصر العباسي عنها ، لأنهم بعيدون عن بيئتها ،

---

(9) تأريخ الآداب العربية : 191-192

(10) النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي ، ناصر الحاني : 182 (بغداد1955)

(11) تأريخ الآداب العربية : 192 النقد الأدبي : 128 .

(12) تأريخ الآداب العربية : 193

ومن الصعب أن يتكلف الانسان شيئاً بعيداً عن طبعه وخلقه[13] .

امتازت الأراجيز بالتصريع ، وهذا يستدعي حشد كلمات كثيرة متحدة الروي ، ومن المعقول ألا تكون كلها مألوفة ، لذا وجدنا غريب اللغة واضحاً فيها ، وثمة عامل آخر لغرابة الألفاظ ، وهو أن الأرجوزة تتناول بالوصف البادية وما فيها من خشونة واغراب ، ولم تقتصر الغرابة على الألفاظ ، وانما تعدتها الى بناء الكلمات واشتقاقها ، فأننا نجد مصادر وجموعاً ، وصفات مشتقة ، وأفعالاً لم تنج من الغرابة في الصياغة الصرفية ، مجاراة للوزن والقافية وتمشياً مع قصر الأبيات ، ولذا كانت العبارات قصيرة ، وربما توزعت على أكثر من بيت واحد ، ويؤدي الحرص على الوزن كذلك الى كثرة الجمل الاعتراضية والعبارات المقطعة ، ولقد تجلت الغرابة اللفظية والمعنوية في قوافي الأرجوزة أيضاً ، كما أنها امتازت على القصيد بالدقة والاستقصاء ولا سيما في الوصف وكثر فيها الفخر والاستطراد ، كما أنها تحلت أحياناً بجمال ملحوظ ، بالأخص في النسيب والوصف والفخر ، لأنها فنون غنائية ، فتتجاوب مع هذا الوزن وأصوله[14] .

ولم يترك شعراء الأراجيز وشأنهم في هذا المضمار ، بل كانت هناك منافسات وتحديات بينهم وبين شعراء الحضر ، ولقد روى الأصفهاني قصة تلك الملاحاة التي نشبت بين بشار وعقبة بن رؤبة في مجلس والي البصرة عقبة بن سلم ، وكيف تغلب بشار على ابن رؤبة بأرجوزته التي مطلعها :

يا طلل الحي بذات الصمد واليه خبر كيف كنت بعدي[15]

ويقول الدكتور شوقي ضيف في هذا الشأن : (وليس بشار وحده الذي أثبت أنه يستطيع التفوق على شعراء البادية في أرجازهم المملوءة بالغريب فقد تبعه أبو نواس يحاول أن يهزمهم هزيمة ساحقة في هذا الميدان وكان أبو نخيلة قد سبقه الى صنع أراجيز كثيرة في الطرد والقنص ، يصف فيها الصيد والكلاب والوحش على طريقة القدماء ، فصنع على مثال طردياته طرديات جديدة أظهر فيها براعة وتفوقاً منقطع النظير[16] .

وهذا ما يكشف أمامنا سر تمسك الشعراء باصطناع الرجز في شعر الطرد ، والتزام

---

(13) تأريخ الآداب العربية : 194
(14) تأريخ الشعر السياسي . احمد الشايب : 336-337 (القاهرة ط1966) .
(15) الأغاني : 3-174
(16) الفن ومذاهبه : 126

الغريب فيه ، ليثبتوا لشعراء البادية أنهم قادرون على النظم في هذا اللون البدوي ، وان كان بعيداً عن بيئتهم (ولعل في هذا ما يدل ـ من بعض الوجوه ـ على مدى ما كان يأخذ به الشاعر الحضري في تلك الأزمان نفسه من التثقف ثقافة عميقة بالشعر العربي الموروث واللغة العربية الصحيحة ، يأخذها عن أهلها بالمربى فيهم ، أو الرحلة الى بواديهم)[17] ، وهذا هو الرأي الذي يذهب اليه نالينو أيضاً[18] .

أما الدكتور جميل سعيد فيقول : (أن الرجز أكثر ملاءمة لوصف الصيد من القصيد ، ذلك أننا حين نتبع تأريخ الرجز ، نراه لا يقال الا في المواطن يقلق فيها الانسان قلقاً مادياً ، أو في المواطن يقلق الانسان فيها قلقاً مادياً يصحبه قلق نفسي)[19] ثم ضرب أمثلة لذلك بالاستقصاء من الابار ، والمبارزة ، وعدها (من الأمور التي يقلق الانسان فيها قلقاً نفسياً مع قلقه المادي الحسي ، والصيد شبيه بهذه المواطن ، فالانسان يرى الطريدة ويجري في أثرها) ثم يقول : (ويبدو لي أن أبا نواس حين وصف الصيد بالرجز ، سار وراء طبيعته وعاطفته ولم يقلد غيره)[20] .

ولنا بعض الملاحظات على أراء الدكتور هذه أولاها : أن أغلب الذين وصفوا الصيد والطرد في العصور التي سبقت عهد أبي نواس كانوا سائرين وراء طبيعتهم أمام شعراء الطرد، وثانيتها : أن شعراء الأراجيز أمثال الأغلب والعجاج ، قد نهجوا من حيث الأغراض نهج القصيدة ، وطرقوا أبوابه ولم يقتصر الرجز على موضوعات القلق والارتجال، وثالثتها: اني قد أثبت بالأدلة أن أبا نواس لم يكن مبتكراً ، فلا يجوز تأريخياً القول أنه (لم يقلد غيره) ، ولا سيما قد سبق بأبي نخيلة ، وأبي نجم العجلي ، والشمردل ، والعجاج ، والأغلب وغيرهم ، والحقيقة أنه (تأثر بالقدماء وبخاصة امرؤ القيس ، حين استعار منه بعض صفات الفرس لكلبه)[21] ، ولهذا كله يرجح الرأي الأول الذي يذهب الى أن اصطناع الرجز كان من قبيل المنافسة لشعراء البادية مع قبول أن رأي الدكتور جميل سعيد يصلح أن يكون تعليلاً لانصراف أول شاعر الى وصف الصيد رجزاً ،

---

(17) المصدر السابق : 126

(18) تأريخ الاداب العربية : 193

(19) الوصف في شعر العراق : 320-231

(20) الوصف في شعر العراق : 230-231

(21) شعر الطبيعة : 163

أما أبو نواس فكان متأثراً بغيره ومحاكياً له وطالما كنا ازاء تاريخ قضايا فنية أدبية فالمؤمل ألا ينسينا اعجابنا بأبي نواس محاولات غيره في هذا الفن ، ويبدو أن هذا الشاعر كان محظوظاً في فن الطرد ، حيث نسب اليه الابتكار والابداع ، شأنه في الخمريات اذ تخطى بعض المؤرخين محاولات الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، والذي يمكن قوله في أبي نواس أنه أكثر من وصف الصيد ووسائله وطرائده رجزاً ، وانه كما قال الجاحظ : (كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً ، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب . وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه ، هذا مع الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة)(22) ، ولم يكن في أية حال مبتدعاً لهذا الفن(23) ، بل يصح الرأي لو قلنا : أن فن الطرد قد استكمل جوانبه ، وتبلور ملامحه على يد أبي نواس ، واستقل مكانته بين فنون الشعر العربي في عصر هذا الشاعر القذ .

ويوم كان وصف الطرد غرضاً ضمن القصيدة فقد صيغ شعره وفق البحور المعروفة ، ولم يغلب بحر دون سواه في ذلك ، فتردد البحر الطويل والكامل والوافر والخفيف والسريع والمتقارب عند امرىء القيس والأعشى وعبده بن الطبيب ومتمم بن نويرة وعبد الله بن سلمة وربيعة ابن مقروم والأسود بن يعفر النهشلي والمرقش الأصغر والحارث بن حلزة وعبد المسيح بن عسلة وعلقمة بن عبدة وذي الرمة وغيرهم .

وحين استقل وصف الطرد وصار فناً ، وجدنا الشعراء قد صاغوه في الغالب رجزاً ، خلا بعض طرديات أبي نواس وأحمد بن زياد بن أبي كريمة .

2 ـ بنية الطردية وأركانها

الطردية وحدة تأليفية متناسقة ، تقتصر أبياتها على وصف الصيد والطرد وما يتعلق بها ، ولقد لاحظت من خلال استقرائي لما تيسر لي الاطلاع عليه من الشعر أن ثمة نوعين من الطرديات ، ارتأيت تسميتها : بالطردية الاستطرادية ، والطردية المستقلة والذي يسعفنا بالتمييز بينهما كون النوع الأول جزءاً في القصيدة ، وغرضاً من أغراضها المتعددة ، وعلمنا من بحوثي السالفة أن هذا اللون من الطرديات كان معروفاً لدى

(22) الحيوان 2-27

(23) ذهب الدكتور طه حسين الى هذا الرأي نفسه ، وقال في محاضرة عن أبي نواس : (وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس اجادة مطلقة ، ولعله أول من اتخذه فناً مستقلاً من فنون الشعر ، فنظم فيها القصائد طولها وقصرها ، وهو فن الصيد) انظر حديث الأربعاء 2-117 (دار المعارف بمصر 1964) وأعتقد أن نقاشي في أعلاه يصلح رداً عليه .

الشعراء في الجاهلية والاسلام ، وفي شطر غير قصير من العصر الأموي ، وبقي يطالعنا حتى ظهور الشمردل اليربوعي ومحاولته في جعل وصف الطرد أرجوزة مستقلة ، فكانت ما أسميته بالطردية المستقلة التي يتفرغ الشاعر فيها الى علاج شكل واحد من موضوعات الشعر ، وهو وصف الصيد والطرد وما يتعلق به .

ووجدت أن نوعي الطردية يتفقان في أشياء ويختلفان في شيء وهو الوزن في الغالب ، اذ كانت الطردية الاستطرادية المستقلة تصاغ وفق أوزان القصيدة المتداولة آنذاك ، بينما وجدت شعراء الطردية المستقلة قد أصطنعوا لها بحر الرجز .

أما الاتفاق بينهما فيتجلى في البنية ، وهو ما سأتولى أيضاحه ، معتمداً على النصوص التي استطعت الاطلاع عليها ، ويمكنني أن أحدد أركاناً رئيسة للطردية وهي : وقت الصيد ، مكانه ، الصائد أو وسيلة الصيد ، الطريدة ، الصراع بين الطريدة ووسيلة الصيد أو الصياد ، نهاية الطرد .

والوقت الذي كان يهرع فيه الى الصيد والطرد عادة هو الصباح الباكر جداً ، ولقد صرح بهذا الشعراء ، ولمسناه عند اتخاذهم الفرس وسيلة تبلغهم الطريدة ، فقال امرؤ القيس :

وقد أغتدي قبل الشروعِ بسابحٍ أقبَّ كيعفورِ الفلاةِ مجنَّبِ(24)

وممن انطلق في الغداة يبحث عن الصيد علقمة بن عبدة(25) أيضاً ، وابن مقبل(26) ، وعبد الله بن سلمة(27) ، والاسود بن يعفر النهشلي(28) والمرقش الأصغر(29) ، وعبد المسيح بن عسلة(30) ، وأبو دؤاد الأيادي(31) وحميد الأرقط(32) ، وكعب بن زهير(33) ،

---

(24) شرح ديوانه : 35 ، وانظر أيضاً : 110, 119, 133, 144

(25) شرح ديوان علقمة (مجموعة بيروت) : 31

(26) ديوان ابن مقبل : 426

(27) المفضليات : 1-104

(28) المفضليات : 2-19

(29) المفضليات : 2-14

(30) المفضليات : 2-80

(31) ديوان حميد بن ثور : 43

(32) اراجيز العرب : 21

(33) شرح ديوان كعب : 116

والأخطل(34) ، والشمردل(35) وذو الرمة(36) .

أما أبو نواس ففي وصفه للصيد على الفرس قال :

قد أغتدي والصبحُ محمر الطرر والليلُ تحدوه تباشيرُ السحر(37)

واستعار المقطع « أغتدي » عند وصفه الصيد بالكلاب أيضاً أكثر من ثلاث مرات ، وعبر عن المعنى ذاته بألفاظ أخرى فقال :

لما تبدى الصبحُ من حجابِهِ كطلعةِ الأشمطِ من جلبابِهِ(38)

وقوله :

ربمّا أغدو معي كلبي طالباً للصيد في صحبي(39)

أو قوله :

لما رأيتُ اللّيلَ منشقّ الحُجب عن سائلِ الغرةِ مشهور النقب(40)

أو قوله :

يا ربَّ ظبيٍ بمكانٍ خال صبحته والليلُ ذو أهوالِ(41)

أو قوله :

لما غدا الثعلبُ من وجارهِ يلتمسُ الكسبَ على صغارهِ(42)

وقوله :

لما طوى الليلُ حواشي بردهِ عن واضحِ اللونِ نقي ورده(43)

---

(34) الأخطل (الروائع) : 30
(35) التذكرة الحمدونية (مخطوط) : 5-344
(36) ديوان شعر ذي الرمة : 536
(37) ديوان أبي نواس : 446 ، وانظر : 657
(38) ديوان أبي نواس : 628, 635, 636, 637, 638
(39) ديوانه : 632
(40) ديوانه : 645
(41) ديوانه : 646
(42) ديوانه : 629
(43) ديوانه : 649

أو :

أقـــول للقـــانص حـــينَ غلّسا والصبـــحُ في النقـــابِ ما تنفّسا(44)

ويعود أبو نواس الى استعمال « قد أغتدي » مرة عندما تكون الوسيلة فهـدا(45) ، ومراتٌ عندما تكون جارحاً(46) ، ويشـذ مرة ، عندمـا تكون الوسيلـة بازيا ، عن ذلك المطلع فيقول :

لما رأيتُ الليلَ قد تشزّرا عنّـي وعـن معـروفِ صبـحٍ أسفرا(47)

وغريب هذا الالحاح كل الغرابة، ولست أدري بأي شيء أفسره ، ولا سيما أن تلك المقاطع قد أحالت أغلب طردياته الى تقليد رتيب ، فعساه يريد أن يحملنا على تفهم وتذوق هوايته في الصيد والطرد ، ويقنعنا بأنها أروع ما تمارس في الصباح البـاكر ، أو أن هذا التعبير بات مألوفاً ألفة تلك الوسائل والطرائد ، ولكن الرأي الذي أرجحه وأميل اليه ، هو أن فن الطرد حافظ على شكل معين من الأساليب ، وبقي يدور فيها ، وهذا ما جعلني أنهي دراستي بالقرن الثاني الهجري ، التي ترافق انطواء حياة أبي نواس الذي بقي يعيد صوراً عجز عن تخطيها ، لذا لاحظنا أن الشعراء الذين وصفوا الصيد والطرد قد بقـوا ينظمون وفق منهج أبي نواس ، ولـم يخرجوا الى لون أو ابتكار جديد ، مثل ابن المعتـز وغيره ، فما جدوى دراسة انماط متشابهة ، طالما تعجز تلك الدراسة عن امدادنا بعناصر جديدة .

أما الشعراء الذين انطلقوا الى وصف الصيد والطرد من خلال تشبيههم الناقة بالثور أو الحمار ، فلقد استعانوا بوسائل أخرى في الافصاح عن وقت الصيد ، وهـو الصبـاح الباكر كذلك ، قال ابن أبي خازم :

فبـــاكره مع الاشراق غضف يخـــبُّ بهـــا جداية أو ذريح(48)

ويكرر شعراء آخرون الصورة ذاتها في تحديد وقت الخروج للصيد ، فيقول عبدة بن الطبيب :

---

(44) ديوانه : 644

(45) ديوان أبي نواس : 662

(46) ديوانه : 661, 663, 664, 669, 648, 651, 652, 654, 660

(47) ديوانه : 650

(48) ديوان بشر : 51 ، وانظر : 103

باكره قانصٌ يسعَى بأكلبهِ كأنه من صِلاء الشمسِ معلولُ(49)

وكذلك الأعشى :

حتى اذا ذرَّ قرنُ الشمسِ صبَّحها ذؤالُ نبهانَ يبغي صحبَه المتعا(50)

ويقول كعب بن زهير :

كمطيف الدوار حتَّى اذا ما ساطعُ الفجرِ نبَّهَ العصفورا
رابَهُ نبأةٌ وأضمَر منها في الصماخينِ والفؤادِ ضميرا(51)

ويقول البعيث :

فصبَّحه عند الشروقِ غُديَّه كلابُ ابن عمارٍ عطافٌ وأطلسُ(52)

ويقول الأخطل :

حتَّى اذا الشمسُ وافته بمطلعِها صبَّحه ضامرُ غرثان قد تجلا(53)

ويقول العجاج :

حتى اذا الصبحُ له تنفسًا غدا بأعلى سحر وأجرسا(54)

وقد مر بنا بحث « مواسم الصيد » وفيه أعطيت الوقت حقه ، وما هذه الدراسة والشواهد الا لتحديد الركن الأول من أركان الطردية .

أما الركن الثاني فهو المكان ، وانني لاحظت حرص أغلب الشعراء على ذكر اماكن الطرائد ، واذا شئنا أن نورد بعض الأمثلة وجدنا أمرأ القيس(55) قد ذكر : شربة وعرنان ، وذكر ابن أبي خازم(56) : ارنبيات وقربة ، وعسفاء ، وذكر طرفة(57) : معمراً ، وعروة بن

---

(49) المفضليات : 1 -136

(50) ديوان الأعشى : 105 ، وانظر : 295

(51) شرح ديوان كعب : 166

(52) المصدر السابق : هامش168

(53) الأخطل (الروائع : 16 ، وانظر : 22, 25, 30

(54) شرح ديوانه (مخطوط) : ورقة43 ، وانظر :72:(55) شرح ديوانه : 100

(56) ديوان بشر : 51, 101

(57) ديوان طرفة (بيروت) : 46

الورد[58] : ذا رضوى وعظم ، وصندد ، وزهير[59] : صنيبعات ،وحوامل ، والاعشى[60] : جوا والشيطين والصيفين وعنيبسات ، وعاقل وبيان والبقار ، وذكر الشماخ[61] أمكنة منها الجناب ويأجج واير ، والأخطل[62] : الأنعمين وعاقلا ، وذو الرمة[63] : عين بني بو وعين أثال معقلة ، وأبو نواس[64] : ذات العيص ، ونعمان سهرداز .

ولا يعني ما سجلته هو كل ما ورد في الشعر العربي ، وانما أوردت ما أوردت على سبيل الاستشهاد فقط .

أما الركن الثالث فهو الصائد أو وسيلة الصيد ، فمن الشعراء من تحدث عن نفسه مفاخراً بالطرد وكان يريد اطلاعنا على مزايا فرسه وسرعته ونجابته ، ولم يتعرضوا لصفاتهم ، وربما ذكروا بشيء من السرور تلك الجلسات التي يعقدونها بعد عملية الصيد ، فمنهم من يحتطب ومنهم من يشتوي اللحم الطري ، كما شاهدنا عند امرىء القيس ، والنابغة الجعدي وأبي نواس وغيرهم ، وهم عادة ممن اتخذ الصيد والطرد متعة ورياضة .

أما فقراء الصيادين فما تحدثوا عن أنفسهم ، ولكن الشعراء تصدوا للتعريف بأحوالهم ، فكان الصياد غالباً ذا صبية بائساً ، قد هجر الزينة والرفاه ، يقضي يومه في ناموس يتخذه عند موارد الوحش ومساربها وأولى الشعراء ذلك الناموس عناية خاصة ، فهو ضيق مسقف بصفائح من الحجر أو غيرها ، ويتخذ في مكان منحرف عن مرور الريح في طريقها الى مورد الماء ، لئلا تحمل رائحة الصياد ، فتفطن الوحش اليه ، وقد دخنوا قريباً منه ليعفوا على تلك الرائحة ، وطالما أقلقت تلك النواميس حمر الوحش ، فكلما فكر الحمار بمورد ماء تراءت له أخطار الموت القابعة في هذه الحفرة ، وصوروا الصياد هزيلاً قد أحرقته أشعة الشمس ورياح السموم ، فخشنت بشرته ، يلبس اطماراً ممزقة ، ويحمل

(58) ديوان عروة (دار صادر) : 29
(59) شرح ديوان زهير : 379, 67
(60) ديوان الأعشى : 349, 325, 201, 105, 73, 67
(61) ديوان الشماخ : 30,12
(62) الشذر الذهبي : 22
(63) ديوان شعره : 11, 531
(64) ديوان أبي نواس : 648, 647

نبالاً زرقاً ، وقوساً صفراء ، وهي عدته في حربه مع الوحش ، أو أنهم صنوروا الصياد ذا كلاب يخب بها منطلقاً نحو ثور الوحش ، وفطن الشعراء الى أحوال الصياد ، فطنوا اليه وهو يرتعد حرصاً ونهماً ، وفطنوا اليه وهو يلهف أمه أسفاً على فشله في اصابة الطريدة .

أما وسائل الصيد التي استعان بها الصياد فكانت الحيوان كالخيل والكلاب والفهود وعناق الأرض ، وكانت الطيور كالعقبان والصقور والبزاة ، وكانت الأسلحة كالقوس والنبال ، والرماح والعصي والبندق ، وأحياناً يتحيل على الطرائد بالحبائل والاشراك والفخاخ والزبى واللبابيد وغير ذلك ، وانني عالجت كل هذه ببحثي « وسائل الصيد » واعتقد أن في ذلك ما يكفي للتدليل على أن الوسيلة ركن مهم من أركان الطردية .

أما الركن الرابع : فهو الطريدة وقد تكون حيواناً كالحمار والثور الوحشيين ، والظباء والوعول والأرانب والضباب والثعالب والضباع والأسود والذئاب ، وقد تكون طيراً كالنعام والحبارى والقطا والكراكي والمكاكي والقبر والدراج ، وكانت تلك موضوع بحثي « الطرائد » .

أما الركن الخامس : فهو الصراع الذي ينشب عادة بين الطريدة ووسيلة الصيد ، ولمسنا اهتماماً به عند شعراء الجاهلية ، فقد خطط له الشعراء ، وحددوا بوضوح تصرفها كل من الوسيلة والطريدة ، وخير ما لاحظناه هو ذلك الصراع الذي سجله النابغة الذبياني في معركة ثور الوحش والكلاب ، وبقيت صورة هذا الصراع مألوفة ، اذ أعادها الأخطل وغيره ، أما شعراء الطردية المستقلة فقد دفعهم حبهم للصيد ، وتقديسهم لوسيلة الصيد الى تناسي دور الطريدة ، فأنهم أهملوها ، وصورها مسلوبة الارادة ، وهذا واضح كل الوضوح في طرديات الشمردل وأبي نواس فكل طرائدهما كانت تستسلم لمصيرها بكل خنوع ، وهو يشبه مصير الطريدة في الطردية الاستطرادية اذا كانت الوسيلة فرساً ، أما حين تشبه الناقة بثور أو حمار الوحش فيكون النصر حليف الثور أو الحمار .

أما الركن السادس : فهو نهاية الطرد ، فقد لاحظنا أن الشعراء كانوا يضعون حداً للطرد ، وفي بحثي عن هذا الموضوع بيّنت الدوافع والأغراض ، واعتقد أنه كاف لتوضيح هذه النقاط .

وقد يغفل الشعراء ركناً من تلك الأركان وبهذا تكون الطردية ناقصة سواء أكانت استطرادية أم مستقلة ، وسميتها طردية تامة ان توفرت جميع الأركان .

ومن الملامح الأخرى التي تطالعنا في الطردية بدايتها ونهايتها ، ولقد وفق الشعراء الى بداية للطريدة طريفة ، وهي تختلف اختلاف وسيلة الصيد ، وتتباين تباين الغرض من وصف الطرد ، فاذا كانت الوسيلة فرساً نجدهم في الطردية الاستطرادية ينسلخون عن الجزء السابق من القصيدة ، وينعطفون الى وصف الطرد بعبارة مشهورة رددها امرؤ القيس ، وهي « وقد أغتدي . . . » ورددها معه غير شاعر ، منهم علقمة بن عبدة ، وابن مقبل ، وعبد الله بن سلمة ، والأسود بن يعفر النهشلي ، والمرقش الأصغر ، وعبد المسيح بن عسلة وغيرهم ، وتجاوبت أصداؤها عند الشمردل وأبي نواس وغيرهما من الذين وصفوا الطرد رجزاً ، أي شعراء الطردية المستقلة .

ومن المطالع المبتكرة تلك التي استهل بها أبو نواس طردياته في وصف الكلب بقوله : « أنعت كلباً . . . »(65) .

أما الفئة الثانية من الشعراء الذين وصفوا طرد الحمار ، أو الثور بعد تشبيه الناقة باحدهما ، فلقد انتقلوا الى الطردية الاستطرادية بوسائل منها : كاف التشبيه ، قال عدي بن زيد ، يصف ناقته ويشبهها بثور وحش :

قد تبطَّنتُ وتحتي جسرةٌ تخلطُ المشي تُعَادى كالفرد(66)

ومثله عبيد بن الأبرص مشبهاً ناقته بحمار وحشي :

أجزته بعلنداةٍ مذكرةٍ كالعيرِ موُارةِ الضبعينِ مسراحِ(67)

وقال الأعشى يشبه ناقته ببقرة وحشية :

كعيناءَ ظلَّ لها جؤذرٌ بِقنَةَ جوٍّ فأجمادُها(68)

أو يشبهها بحمار مستعيناً بالكاف أيضاً :

تراها كأحقب ذي جدتين يجمع غوثا ويجتالها(69)

---

(65) ديوان أبي نواس 642, 625, 624
(66) ديوان عدي : 44
(67) ديوان عبيد : 50
(68) ديوان الأعشى : 73 .
(69) المصدر السابق : 165 ، وانظر : 207, 119

وكذلك كعب بن زهير حين شبه ناقته بثور :

كمـــطيفِ الـــدوارِ حتـــى اذا ما ساطـــع الفجـــرِ نَبَّـــه العصفورا(70)

وربما توسل الشعراء عند التشبيه بكأن ، لتتيح لهم الانصراف الى وصف طرد حمار أو ثور الوحش ، بعد تشبيه الناقة باحدهما ، ومن أولئك عبيد بن الأبرص مشبهاً ناقته بثور من وحش أورال :

وكأنَّ اقتـــادى تضمَّـــنَ نسعَها من وحشِ أورالَ هبيطٌ مفردُ(71)

وكذلك عبدة بن الطبيب :

كأنهَّـــا يوم الـــوردِ خامسةٌ مسافـــرُ أشعـــب الروقـــين مكحولُ(72)

ويستعين كعب بن زهير بكأن أيضاً ، حيث يشبه ناقته بحمار الوحش :

كأنَّ جريري ينتحـــي فيه مسحلٌ من القُمْـــرِ بـــين الأنعمـــين فعاقلِ(73)

ويتشبث الشماخ بكأن في كل طردياته الاستطرادية التي شبه فيها ناقته بحمار الوحش :

كأنَّ قتـــودَ رحلي فوق جابٍ صنيع الجســـم من عهـــدِ الفلاةِ(74)

وأحياناً يلجأ الشاعر الى الفعل أداة للتشبيه ، قال الأعشى مستعيناً بالفعل « شبَّه » :

ذلك شبَّهـــتُ ناقتـــي عن يمـــين الـــــــرعـــنِ بعـــد الـــكلال والأعمالِ(75)

وقال مستعيناً بالفعل « تخال » :

كســـوت قتـــود الرحـــل عنســـاً تخالها مهـــاة بدكداك الصُّيفيين فاقدا(76)

وفي اعتقادي أن تلك الأمثلة تفي في اظهار الأسلوب الذي انتهجه الشعراء في ذلك

---

(70) ديوان عبيد : 59

(71) ديوان عبيد : 59

(72) المفضليات : 1 -136

(73) شرح ديوان كعب : 97 ، وانظر : 170, 140

(74) ديوان الشماخ : 23 ، وانظر : 12, 43, 81, 82

(75) ديوان الأعشى : 7 ، وانظر297

(76) ديوان الأعشى : 67

النوع من الطرديات الاستطرادية ، ومما هو جدير بالتنويه ، أن هذه الطرديات التي ينصرف اليها الشاعر متوسلاً بتشبيه الناقة بأحدى الطرائد قد اختفى ، وطغت عليها الطرديات المستقلة التي اصطنعوا فيها الرجز وزناً .

وللخروج من الطردية لاحظنا الشعراء قد سلكوا أساليب شتى ، فامرؤ القيس مثلاً ، يخرج الى الصيد على فرسه ، فيدرك تسع بقرات ، ثم يختم طرديته الاستطرادية بقوله :

كأنَّ دمــاءَ الهــادياتِ بنحرهِ   عصــارةُ حِنَّــاءٍ بشيبٍ مفرَّقِ(77)

وفي أخرى :

كأن دمــاءَ الهــادياتِ بنحرهِ   عصــارةُ حنــاء بشيبٍ مرجَّلِ(78)

وفي حال تشبيه امرىء القيس ناقته بالثور الذي هاجمته كلاب الصيد كان حديثه عن نهاية الطرد بلهجة مختلفة عن الكلاب ؟ اذ أنها دخلت في ظل ملتف الغضى ، وتركت الثور كالجمل الذي ترك لضراب وبرز الى الشمس نشاطاً ومرحاً :

وغــوَّرن في ظلِّ الغضى وتركنه   كفحــلِ الهجــانِ الفــادرِ المتشمَّسِ(79)

أما ابن أبي خازم فيتحدث عن ثور شبه به ناقته ، ولقد تفوق على كلاب الصيد بقرنيه ، وانطلق لا يهاب الشدائد ، تلوح ناصيته كالعاج من بعيد :

وأصبــح ينفض الغمــرات عنه   كوقف العــاج طرَّتــه تَلُوحُ(80)

ويخرج كعب بن زهير من الطردية عند حديثه عن ثور فاجأه الصياد بقوله .

فكأنــي كســوت ذلك رحلي   أو ممــر السراة جأبــا دريزا(81)

ولم يحد شعراء الطردية الاستطرادية عن هذا المنهج كثيراً .

أما أبو نواس فانه يختم بعض طردياته، وهي من الطرديات المستقلة ببعض المقاطع

---

(77) شرح ديوانه : 122

(78) المصدر السابق : 136

(79) شرح ديوانه : 101

(80) شرح ديوان بشر : 53 ، وانظر 57 ,104

(81) شرح ديوان كعب : 170

وهي في الغالب شطر مستقل من بيت ، ومنها :

يا لك من كلب اذا صاد عدل(82)

لم يعط الا مثله النواسي(83)

فالحمد لله على ما أعطى(84)

لكل صياد به مرزوق(85)

يا لك من كلبٍ نسيجِ وحدَهُ(86)

غادره مضرَّج الصفاحِ (78)

وقد تكون أبيات تامة :

أكرم **بهـــذا الكلـــبِ من مختالِ أتيحَ حتف الظبـــي والأوعالِ**(88)

أو يقول في الفهد :

لا خير في الصيد بغير فهد(89)

ويقول في اليؤيؤ :

وكم جميل حطَّــه برغمه وقـــد سقـــاه علـــلاً من شمه(90)

ويقول في الزرَّق :

خمسين مستحيي الى مذبوح(91)

وطرديات أبي نواس ، بل الطرديات المستقلة تكون الغلبة فيها لوسيلة الصَّيد غالباً .

ونستطيع أن نجد أركان الطردية وملامحها في شعر لأمرىء القيس(92) رائد شعراء الطرد ، وفي شعر أبي نواس(93) آخر شعراء الطرد المبتكرين .

---

(82) ديوانه 642

(83) ديوانه 628

(84) ديوانه : 628

(85) ديوانه 625

(86) ديوانه 624

(78) ديوانه 637

(88) ديوانه : 646 ، وانظر : 633, 634, 639, 641

(89) ديوانه 663

(90) ديوانه 669

(91) ديوانه 651

(92) شرح ديوان أمرىء القيس : 119 -122

(93) ديوان أبي نواس : 646 -647 .

الخاتمة

بعد هذه الجولة الواسعة في نصوص الشعر العربي ، وتحليلي اياها ، وعرضي للأفكار التي حملتها ، وتفقدي للصور التي نقلتها ، أشعر بأنني قد توصلت الى مجموعة من الحقائق الأدبية القيمة ، وعساني وفقت في تحديد معالمها ، واثباتها ، وابرزها .

1 ـ نفيت بالأدلة العقلية والنقلية دعوى من يحاول اتهام الشعر بالنحل بحجة ذكره لحيوانات لا نجدها الآن ، وبينت أن خلو شبه جزيرة العرب والعراق والشام منها لا يجوز نفي وجودها ، وأننا نستطيع الاستدلال بالشعر على أن حيوانات كانت ترتع في تلك البقاع ، وعدت عليها العوادي فانقرضت ، والشعر صدى البيئة ونابع منها ، ويحمل ما يمكن أن نجده فيها .

2 ـ ثبت أسماء بعض ممن مارسوا الصيد والطرد من ملوك وأمراء العرب ورؤسائهم وشعرائهم ، وأوضحت أن الصيد من شؤون الرجال ، لحاجته الى القوة والتبذل ، ولذا لم تمارسه النساء فخلا شعرهن من وصفه .

3 ـ توصلت معتمداً على الشعر الى أن الانسان قد مارس الصيد تحصيلاً للقوت ، أو دفاعاً عن النفس ، أو رياضة ومتعة .

4 ـ تتبعت ، في معرض كلامي على كلف العرب بالصيد ، الصلات اللغوية والاجتماعية والدينية ، بين الفتوة والفروسية والصعلكة والصيد والطرد ، والمؤثرات البيئية والروحية عليها ، وتم ذلك في ضوء تقاليد العرب وأشعارهم .

5 ـ دللت على أن الصيد والطرد كانا مما مارسه العرب باستمرار وكلما سنحت لهم

فرصة ، مارسه اشرافهم وصعاليكهم ، اغنياؤهم وفقراؤهم ، كل يجذبه اليه هدف ، قد يكون اللذة ، أو القوت ، أو حماية النفس ، وبينت أن ممارسة الصيد تعد نوعاً من التدريب على القتال يشبه ما تقوم به الجيوش المعاصرة من حروب وهمية في أوقات السلم ، لتحتفظ بقدراتها الحربية بصفة دائمة ، ولتكون تلك الجيوش مستعدة لمجابهة العدو في الحرب الحقيقية .

6 ـ أبرزت مكانة الصياد في المجتمع العربي ، وتجلت تلك المكانة في الشعر ، فقد أوضحت مستنداً الى النصوص اهتمام الشعراء بشخصية الصياد ، وتصديهم لوصف أحواله وظروفه صغيرها وكبيرها ، مما يعطينا فكرة واضحة عن تقديرهم له ، فضلاً عن خروج بعض الشعراء أنفسهم للصيد والطرد ووصفهم له في مجال الفخر والاعتزاز ، ولا سيما الجاحظ ، وفندت ما أورده الجاحظ مدعياً استذلال العرب للصيد ، واحتقارهم للصائد ، وناقشت أبيات عمرو بن معد يكرب التي استند اليها الجاحظ ، ودحضتها في ضوء أخبار العرب وأشعارهم التي نقلت الينا انصرافهم الى ممارسة الصيد والطرد دون أن يجدوا في ذلك غضاضة ، وافتخارهم به ، بل جعله بعض الشعراء كلبيد والخرنق من محامد الميت ، وذكروه في مراثيهم ، وشرحت أن التماس القوت في الصيد بدافع الفقر لا يعد عيباً ، لأن الفقر ليس بعيب طالما هرع من ابتلى به الى الاحتراف بالصيد للخلاص منه .

7 ـ استخلصت من النصوص أن العرب مارسوا الصيد والطرد في أشهر السنة كلها ، خرجوا اليه في الشتاء والصيف وغيرها ، فلم يكن ثمة فصل محدد له ، وبينت ان أوقاتاً حمد فيها الخروج للصيد ، فالصباح الباكر ظرف مناسب لانطلاق القناص ، واختاروه لأنه وقت استسلام الطرائد للنوم ، وستثار وفيها أثر النوم ، فيكون أدعى للامساك بها ، أو رميها .

8 ـ تطرقت الى وسائل الصيادين في اتقاء ضرر الطرائد خشية نفورها وهروبها قبل أن يظفروا برميها ، فتخفوا لها وقاتلوها ، فاتخذوا القترات ، حاولوا سترها عن عيون الوحش بالصفح وغيره ، وعفوا على رائحتهم بالتدخين قرب القترات ، وباتخاذ تلك القترات بعيداً عن مجرى الريح وهي في طريقها الى مورد الماء ، لئلا تنقل روائحهم ، وحرصوا على كتم أصواتهم ، بل أنفاسهم ، ولبسوا اللبابيد في صيدهم الأسود ،

وجعلوا الناقة درية يختالون بها الظباء ، وربما أخفوا أنفسهم في الأشجار فيباغتون منها الطرائد .

9 ـ أما ملابس الصياد فقد أغفلها الشعراء ، واقتصروا على التنويه بملابس الصيادين الفقراء ، فكانت أطماراً بالية ، وما خلا ذلك فسكوت عنه ، وكانت هناك اشارة الى ملابس رماة البندق ، فهي قمصان هفهافة طويلة ، كما أنهم استعملوا القفاز لحماية أكفهم من مخالب الجوارح اذا طفرت عنها ، ولوقايتها من البرد ، ورجحت أن تكون ملابس الصيادين الأغنياء مما اعتادوا ارتداءه في حروبهم أو سفراتهم الطويلة .

10 ـ لم يكن وصف حمار الوحش مقصوداً ، وانما عرض الشعراء له في أثناء حديثهم عن الناقة وتشبيههم اياه به ، ولاحظت أفكاراً رددها الشعراء ، ورافقت صورة هذا الوحش ، منها :

أ ـ تفكيره الدائب بشؤون أتنه ، وأنه تقلقه كثيراً موارد الماء التي يتخذها الرماة مراصد يختلونه وأتنه فيها .

ب ـ اقتصر الصيادون في الايقاع بحمر الوحش على رميه بالسهام وهم قعود قد اتخذوا قتراتهم عند موارد الماء ، أو بنصب الأشراك في السبل المؤدية الى تلك الموارد ، أو بالرماح طرداً على الخيل ، ولم يصطنعوا كلاب الصيد في طردها .

11 ـ وثور الوحش كذلك كان وصفه استطراداً في أثناء تشبيه الناقة به ، ولم يكن مقصوداً ، ولج الشعراء في اعادة صورة معينة للثور منها :

أ ـ صوروه قلقاً يغالب الرياح العاصفة فتميله يميناً وشمالاً ، وهو دان الى أرطاة أو غيرها ، لائذاً بها ، يبيت ليله لا يغمض له جفن ، فالتيار شديد الانصباب ، والرعد أجش الصوت ، والسيل يتهدده بهدم التراب من تحته .

ب ـ حرص أغلب الشعراء على وصف الثور وقت لمعان البرق ، وصوروه وكأنه ملتف بثوب أصفر ، أو كأنه مصطل ناراً ، فيبدو شخصه مصفراً من خلال أشعتها ، وشبهوه بسوار من العاج ، أو بثوب أبيض غطاه التراب .

جـ ـ تجسد الخطر الذي يتوقعه الثور ويسهره ليله ، ويباغته مع خيوط الصباح الأولى في كلاب الصيد التي يخب بها الصيادون ، ثم يغرونها بالهجوم عليه ، فكانت وسيلة الصيد الوحيدة التي كثر ترديدها في وصف طرد هذا الوحش ، الى جانب الطعن بالرماح مطاردة بالفرس .

12 ـ وجدت أن أغلب الشعراء يتعرضون للظباء ووصفها ، وربما صيدها في مجالات ذكر المرأة ، والتغزل بمحاسنها ، واسترعى نظرهم جمال عيني الظبية ، وطول عنقها وبياضه ورشاقته ، وشرحت أنهم اصطادوا الظباء بالسهام رمياً وبالحبائل والاشراك ، وبالنار ، وبالتخدير بنبات الخربق ، وبالكلاب والجوارح ، وبالحذف بالعصا ، وبالرماح على الخيل .

13 ـ تسكن الوعول وتعتصم بالجبال ، لذا كانت رمزاً للحرز والمنعة وتأسوا بموتها ، واعتقدوا أن الانسان لا يقيه واق من الموت طالما عجزت الجبال الوعرة عن أن تدفع الموت عن الوعول ، واصطادوها رمياً بالسهام ، وطرداً بالكلاب ، وبالحبائل ، وهي ما زالت منتشرة في السعودية والمناطق الجبلية من العراق .

14 ـ دللت على أن الأسود كانت موجودة في جزيرة العرب ، في عثر والشراة وضواحي الحيرة في خفية ، مستخلصاً هذه الحقيقة من الشعر الجاهلي والاسلامي ، والأخبار التي تحدثت عن اتخاذ القوم صيد الأسود رياضة ومتعة ، وأنهم تفننوا في وسائل صيدها ، فتصدوا لها بالزبي والأوهاق واللبابيد ،وكانت ممارسة صيد الاسود عنوان الشجاعة والاقدام .

15 ـ شبه الشعراء خيلهم بالنعام متوخين السرعة والنشاط أسوة بالحمار والثور الوحشين ، وكانوا يصطادونه بالطرد ، ويلتقطون بيضه ، واتخذوا ريش النعام زينة ،كما أنهم ثبتوا عظامه على رؤوس سهامهم ورماحهم بأوتار عصبه .

16 ـ عرضت في بحثي (وسائل الصيد) أن العرب لجأوا في صيدهم الى وسائل متعددة ، واحتالوا بها في الايقاع بطرائدهم ، وأدركوا بتجربتهم وخبرتهم أن لكل طريدة وسيلة تناسبها ، فكانت تلك الوسائل أنواعاً أربعة : الحيوان : ومنه الخيل والكلاب والفهود وعناق الأرض ، والطيور : وتشمل العقاب والبزاة والصقور ، والأسلحة : ومنها القسي والنبال والبندق والرماح والعصي ، والحيل ومنها الحبائل والاشراك ، والفخاخ والزبى واللبابيد وغيرها .

17 ـ ومن النصوص التي ذكرت الخيل وحللتها ، توصلت الى انها بقيت عند العربي الوسيلة التي يهرع اليها في حربه وسلمه ، فكانت عونه على أعدائه ، وملاذه في صيده وطرده ، ومعينه في تنقله وسفره ، فاعتزوا بها اعتزازاً بالغاً .

18 ـ تبين لي أن العرب اعتزوا بكلابهم اعتزازهم بخيلهم ، وميزوا بينها بالأسماء ، لأنها كانت وفية لهم ، تشاركهم في حماية أموالهم ، وتنبههم الى أعدائهم ، وتحتفي بضيوفهم ، فمدحوا بجبنها في استقبالهم ، وذموا بنباحها عليهم .

19 ـ اتخذوا الكلاب وسيلة للصيد منذ الجاهلية ، وتردد هذا في شعر امرىء القيس الذى كان يهيم بالطرد ، واصطنع الكلاب فيه الى جانب الخيل والرماح ، وكانوا يعدون من مظاهر نجابتها أنها سلوقية وحمدوا فيها أوصافاً أخرى حبذها الصيادون في العصور التالية كما سيأتي :

دأب العرب في العصور الاسلامية على اتخاذها وسيلة للصيد ، وفضلوا منها المضراة على الطرد ، المتقنة لقواعد الصيد ، تفهم الاشارة والصفير ، واعتبروا من علائم نجابتها ونقاء عنصرها استرخاء اذانها ، وسعة اشداقها ، وتزارق عيونها ، وصفر رؤوسها مع قلة اللحم ، وتباعد ما بين يديها ، وتصميمها على نيل الطريدة ، وكانوا يعمدون الى تجويعها لتكون شرهة نهمة مصممة على بلوغ الصيد ، وحمدوا الهزيلة التي طواها الطرد ، وصنعوا لها القلائد من جلود فرائسها ، وقد يسقونها من دمائها ، واتخذت كلاب الصيد مكانة مرموقة بين وسائل الصيد ولا سيما في العصر العباسي ، اذ ازداد الاهتمام بها ، وعكست طرديات أبي نواس ذلك الاهتمام ، وبلغ حزنه مبلغه لوفاة كلب نهشته حية ، فرثاه بأرجوزة طويلة[1] ، وصادوا بالكلاب الظباء وبقر الوحش والأرانب والثعالب .

20 ـ ولقد تألفوا الفهد ، وعلموه القنص ، مفضلين المسن لأنه أحسن من الجرو الصغير في الطرد ، وذكر أن أول من صاد به كليب وائل ، وقيل همام بن وبرة ، وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية ، واشتهر به أبو مسلم الخراساني ، وولع به المعتصم .

21 ـ حبذوا من صفات الفهد كونه واسع الشدقين أيضاً ، مكتنز اللحم ، قوي البنيان ، غليظ الكفين والرجلين ، ضامر العجز صغيره ، سريعاً .

22 ـ وتوضح لي أن أبياتاً لأبي نجم الراجز يمكن عدها محاولة أولى في وصف الفهود ، ولم تمدني المصادر التي استطعت الاطلاع عليها بشعر لوصف الفهد قبله ، أما أبو نواس فلم يغفل الصيد بالفهد ، ووصفه وكان يتقصد الأغراب والتعقيد شأنه في طردياته ، خلافاً لأبيات أبي نجم التي أتسمت بالسلاسة والايجاز والوضوح ، ووصف الفهد

أيضاً شعراء آخرون منهم الرقاشي ، وابن أبي كريمة ، ثم ابن المعتز الذي حذا حذو أبي نواس ، وعبد الصمد بن المعذل ، مما حملني على الاعتقاد بأن العصر العباسي قد شهد انتشار الطرد بهذا الحيوان والاهتمام به .

23 ـ ورد ذكر الجوارح ونعت صراعها مع حيوان الصحراء في شعر الجاهليين والاسلاميين ، ولكن شعراء المرحلة الثانية ، ومنهم الشمردل وأبو نواس ، وصفوها وسيلة للصيد، وافتنوا بها ، وأكثروا من اتخاذها مداراً لطردياتهم ، وافتخروا بصيدها .

24 ـ وجدتهم قد حبذوا من جوارح الطير ما كان ذكياً ، نافذ البصر ، حاد المنقار معكوفه ، قليل ريش القوادم منكمشه ، متقناً للصيد منذ صغره، يحسن مطاردة الفرائس والفتك بها ، يعرف الاسم الذي ينادي به ، ويفهم الاشارة والصفير في اغرائه بالقنص ، وكانوا كثيري الاعجاب بألوانها الزاهية .

25 ـ ووجدت الشعر قد عكس اهتمام العرب بأسلحتهم ، فكانوا ينسبون الرماح والقسي ، وباهوا بجودتها ، وحسن تقويمها وبريها ، ووجدت شعراءهم لم يكتفوا بوصف القسي والنبال جاهزة ، بل اندفعوا ينقبون عن أصولها ومناقب شجرها ، وما يعانيه الانسان في البحث عنها ، وما يقاسيه في تسلق الجبال التي نبتت فيها ، وما يعترضه من أغصان متشابكة ، وعقبات كأداء ، ثم ما يصبه القواس من اعتناء ، وما يبذله من جهد في بريها وتحديدها واختيار الجلد أو الريش المناسب لها ، وما يبذله صاحبها في حفظها مخافة أن تفسدها رطوبة الندى ، وما يعتريه من حزن عند بيعها، وتعدى اهتمامهم الى ألوانها ، فكانت تعجبهم من القوس صفرتها ، ومن النبال والأسنة زرقتها أو حمرتها ، وكثيراً ما وصفوها مضمخة بالدماء أثر الطعن بها .

26 ـ وألفيت للخيل جانباً مهماً في وسائل صيدهم للايقاع بطرائدهم فلاذوا بالاشراك والفخاخ والزبى واللبابيد والأوهاق وغيرها .

27 ـ في دراستي الفنية لشعر الصيد والطرد تناولت الفكرة ، واستطعت أن أبين بالأدلة المستقاة من الشعر ، أن وصف الطرد كان غرضاً في القصيدة الجاهلية والاسلامية ، ولم يكن له كيان مستقل، ولقد تطرق اليه الشعراء استطراداً وفي مناسبة وصفهم للناقة أو الفرس وتشبيههم لهما بالثور أو الحمار أو الظليم أو انتقالهم الى اثارة معارك

الصيد ليثبتوا القوة والسرعة للمشبه به ، فيدعوها لنياقهم أو خيلهم ، فكانت القصيدة تفتقر الى الوحدة الموضوعية .

28 ـ توصلت الى أن الشمردل بن شريك اليربوعي كان أول شاعر جعل وصف الصيد والطرد فناً يشغل قصيدة كاملة ، ثم جاء بعده أبو نجم الراجز ، وأبو نخيلة الحماني ، وآلت هذه المحاولات الى أبي نواس الذي أبدع في ترصين دعائم الطرديات وأضفى عليها اللمسات الأخيرة التي ظل الشعراء يترسمون خطوطها في وصفهم للصيد والطرد وأوضحت بما لا يدع مجالاً للادعاء بأن أبا نواس هو الذي ابتكر هذا الفن ، وكانت ردودي مأخوذة من النصوص ، وبالاعتماد على الفترة الزمنية التي عاشها كل شاعر .

29 ـ ألفيت أن الطردية قد امتازت بالخصائص التي منها :

أ ـ الوحدة الموضوعية ، اذ تفرغت أبيات الطردية لوصف الطرد ، وهي لم تعالج الصيد فحسب ، وانما تمحضت الى لون من ألوانه أو وسائله ، فكان الشاعر مثلاً يصف صيد الثعلب ، أو الطرد بالكلاب فقط ، ويوقف اهتمامه على ذلك .

ب ـ وجه الشعراء عنايتهم الزائدة الى وسيلة الصيد بحيث شغل وصفها معظم الأبيات ، وأنهم تغفلوا عن الطريدة .

جـ ـ كانت نهاية الطريدة شيئاً مقرراً خلاف بعض طرديات العصور السابقة التي وجدنا الشاعر فيها يكتب النصر للطريدة اذا كان الحديث عن الناقة .

د ـ أن الشعراء استنفدوا معظم وجوه لذة الصيد من احتطاب واجتماع في بيت لطبخ لحوم الصيد أو شيها ، مما يكون جواً نفسياً يربط أجزاء الطردية كلها ، ويشغل وحدة فنية تضفي الوضوح على بناء الطردية .

هـ ـ تنصل بعض الشعراء من الالتزام بالوحدة الموضوعية للبيت ، وبات المعنى يستغرق أكثر من بيت واحد .

3 ـ توصلت الى أن شعر الطرد قد مر بمرحلتين : في الأولى كان غرضاً ينساق اليه الشاعر استطراداً ، واستجابة لدوافع لا تمت الى الطرد بصلات ، أما الثانية فهي التي تمثل طور استقلال شعر الطرد عن أغراض القصيدة الأخرى ، مكوناً ما اصطلح على تسميته بالطرديات ، وأوضحت أن المرحلة الأولى شملت العصر الجاهلي والفترة التي

تلته حتى محاولات الشمردل اليربوعي حيث تبدأ المرحلة الثانية التي استقطب فيها هذا الفن واستكمل عناصره على يد أبي نواس .

31 ـ وجدت أن الشعراء الذين وصفوا الصيد والطرد فريقان :

الأول : وهم من وصفه بدافع الممارسة والمعاناة والواقعية أمثال امرىء القيس وعدي بن زيد وزهير وغيرهم .

الثاني : من وصفه بدافع التقليد مجاراة للوسط الذي يعيش فيه ، واظهاراً للقابلية على مزاولة النظم في شتى أغراض الشعر مثل النابغة وغيره .

32 ـ تبين لي أن شعر الطرد قد توفرت فيه العاطفة زاخرة قوية ، وتجلى هذا في تعاطف الشعراء مع الوحش في محنه ومقاساته الأخطار فوجدتهم يتحسسون حيرة الحمار وهو يتوقعها عند موارد الماء ، وقلق الثور وهو يسهر ليله مفكراً بكلاب الصيد التي ستدهمه مع خيوط الفجر الأولى ، وأولوا البقرة التي يفتك بولدها اهتمامهم ، واستشعروا ثكلها وهواجسها .

وثمة صور كثيرة للحيوان عرضها الشعراء ، وبرزت فيها عاطفتهم بدافع الاعجاب أو الشفقة أو الأسى .

ولم يقتصر تعاطف الشعراء مع الوحش ، وانما وجدناهم يعبئون شعرهم قدراً كبيراً من العاطفة حين وصفوا الصياد أيضاً ، وتحدثوا عن وسائل الصيد بحنان وتودد ، ونظروا اليها مخلوقات لها حس وشعور سواء الحية منها أو الجامدة .

33 ـ وللخيال أثر فعال في شعر الطرد ، فكثيراً ما هرع اليه الشعراء ، لائذين بذاكرتهم التي اختزنوا فيها صوراً ومشاهد عديدة ، ليتخيلوا الحوادث العابرة .

وصادفت أنواعاً من الخيال ، فهناك الخيال الابتكاري ، وأغلب شعر الطرد من هذا النوع ، اذ يصعب أن نتصور مبادرة الشعراء الى وصف الصيد اثناء ممارستهم له ، وانما كانوا يختارون عناصر شعرهم من بين التجارب السابقة ثم يؤلفون الصور الجديدة .

وهناك الخيال التأليفي ، حيث يلائم الشاعر بين حالته النفسية ومصير الوحش التي يفتك بها الرماة ، ويكون ذلك أثر فاجعة تلم بالشاعر ، ومنه ما ورد في شعر الأفوه الأودي والنمر بن تولب ولبيد وأبي ذؤيب وغيرهم .

وثمة أيضاً الخيال التفسيري أو البياني يلجأ اليه الشاعر حين يريد اظهار ثورة ما

وظهر هذا في تشبيه الشعراء نياقهم بالوحش الأخرى ، وانزلاقهم الى معارك الصيد، أو في وصفهم الفرس وسيلة للصيد وادراكها الطريدة ، ووجدت الخيال التفسيري في طرديات المرحلة الثانية حين يروم الشاعر ابراز أوصاف الكلاب أو الفهود وغيرها ، فيركنون الى التشبيهات من ذلك تشبيه ابن أبي كريمة الفهود باللهب، أو تشبيه أبي نواس للفهد بالكوكب وبالحية تارة ثانية .

34 ـ بينت أن خيال الشاعر الذي وصف الطرد كان متأثراً بالبيئة ، وانه انتزع منها صوراً مألوفة كثيرة وشبه بها ، وتجلى تأثير البيئة كذلك في الألوان التي خلعها أولئك الشعراء على صورهم .

35 ـ شرحت فكرة توفر الصدق الفني في شعر الطرد ، وتوصلت الى أن أغلب شعراء الطرد كانوا موفقين في افراغ تجاربهم بدقة ، بحيث اتفق الجو الشعوري لهم مع الجو التعبيري ، أسعفتهم في ذلك مقدرة فنية في اختيار الألفاظ ورسم الصور .

36 ـ أوضحت أن الأسلوب لم يكن بمعزل عن التأثر بشخصية الشاعر وبيئته أيضاً ، واستطعتُ أن أقف على نماذج عكست شخصية بعض الشعراء كالذبياني والأعشى وأبي نواس ، والأخطل والشمردل وذي الرمة ، واستخلصت ذلك بتحليلي هذه النماذج وشرحها ، وخلصت الى القول أن أسلوب شعر الطرد قد حافظ على بدويته في مرحلتيه ، وسوغت ذلك بالأدلة ، فقد ظل شعراء المرحلة الثانية كالشرمدل وأبي نواس ، متمسكين بأساليب شعراء المرحلة الأولى ، ولم يستجب فن الطرد للبيئة العباسية الحضرية كما كنا نتوقع ، وكما حدث لفنون الشعر سواه .

37 ـ في معرض دراستي لنهج القصيدة قدمت دراسة تأريخية موجزة عن الرجز .من حيث تسميته وعلاقتها بالفعل ، وتطوره ، ثم بينت أن الرجز في الجاهلية كان مقطعات في حدود البيتين أو الثلاثة تقال في المخاصمات والمشاتمات حتى جاء الأغلب العجلي فأبتكر الأزجوزة وسلك في نظمها مسلك شعراء القصيد من حيث المطلع والأغراض مع التزام التصريع ، والأكثار من الاستطراد والغرابة في اللفظ والاشتقاق والمعنى ، ثم هجروا هذا اللون ، لمجافاته الطبع الحضري ، ولما فيه من تعقيد وصعوبة في التزام روي واحد في الأراجيز الطولى ، والذي يؤدي الى الملل ، ولتعذر حصر المعنى في بيت واحد أحياناً ، ثم اتخذ الشعراء الرجز المشطور ، وتناولوا موضوعات خاصة ، ومنها الصيد والطرد ، فوصفوا حوادثه ووسائله والظروف التي تكتنفه ، وغلب الرجز فيه على سائر الأعاريض .

38 ـ ظهر لي أن الطردية نوعان : الطردية الاستطرادية وتمثلت في القصيدة يوم كان وصف الطرد غرضاً فيها ، والطردية المستقلة ويمثلها الشعر الذي تمحض لوصف الصيد والطرد وما يتصل بهما من وسائل وحوادث وظروف ، مما يشكل لدينا وحدة موضوعية ، يتوافر فيها جو نفسي متلاحق بانسجام ، فيخلق وحدة فنية متكاملة .

39 ـ وبدا لي أن نوعي الطردية يختلفان في الوزن ، فقد كانت الطردية الاستطرادية تنظم وفق البحور التي التزمت في القصائد العربية عندما كانت تلك الطردية غرضاً فيها ، بينما غلب اتخاذ الرجز بحراً في الطردية المستقلة .

40 ـ تميزت الطردية بنوعيها بسمات محدودة ، اطلقت عليها أركان الطردية فكانت أغلب الطرديات يتوافر فيها تحديد الوقت الذي يخرج فيه للصيد ، والمكان الذي يذهب اليه ، ولا بد من الكلام على الصائد أو وسيلة الصيد ، ثم الصراع ، وأخيراً نهاية الطرد .

وكان للطردية مدخل يتوسل الشاعر به للحديث عن الصيد والطرد ، كما كان لها مخرج يختم به الشاعر هذه الطردية .

وقد تجمع جميع تلك الأركان في طردية ، فتكون تامة ، وربما يغفل الشاعر ركناً أو أكثر من أركانها ، فتكون غير تامة .

مقترحات :

وأخيراً فلي بعض المقترحات التي أرى أن الأخذ بها مفيد فائدة عظيمة للأدب العربي ، وهي تتناول قضيتين :

الأولى : الشعر :

أ ـ سجلت المصادر شعراً طردياً لشعراء غير مشهورين ، ونص على أن بعضهم مارس القنص ونظموا فيه الأراجيز ، ومع ذلك لم أقف الا على نماذج محدودة ، ومن أولئك أبو نجم الراجز ، وأبو نخيلة الحماني ، والشمردل بن شريك اليربوعي ، ومحمد بن بشير الخارجي ، وأحمد بن زياد بن أبي كريمة ، والفضل الرقاشي ، واعتقد أن هؤلاء يمثلون مرحلة مهمة من مراحل الشعر العربي بوجه عام ،ن وفن الطرد بوجه خاص ، ويستطيع الباحث أن يتقصى اخبارهم أو أخبار بعضهم ، فيقدم دراسة قيمة لا تخلو من فائدة كبيرة .

ب ـ قيل أن لأبي نواس بضعاً وثلاثين طردية موثوقاً بصحة نسبتها اليه ، ولكني وجدت في ديوانه طرديات زادت على هذا العدد ، في وقت روى الجاحظ طردية في الكلاب (الحيوان 2، 60-65) تتكون من واحد وعشرين بيتاً وشطر واحد ، كما روى كشاجم طرديتين في صيد البندق (المصائد : 249-252) ونسبت كلها لأبي نواس ، ولم أجدهما في ديوانه ، كما روى ابن حمدون في تذكرته طردية للشمردل تقع في عشرة أبيات وشطر ، ولكني وجدت ستة أبيات منها في ديوان أبي نواس .

أفلا يستحق هذا الارتباك والخلط الى بحث علمي وتحقيق دقيق يثبت لأبي نواس ما له من طرديات ، وتحدد نسبة الباقي الى قائلها ؟

جـ ـ وجدت في الفترة التي تلت عصر أبي نواس شعراء قدموا شعراً في وصف الطرد ، منهم : ابن المعتز وأبو فراس الحمداني والمتنبي ، كما أن هناك شعراء آخرين في الشام ومصر والأندلس نظموا أيضاً في هذا الفن ، ودراسة تلك الفترة تكشف وجود التقليد ، وتبرز نقاط الاستجابة للبيئات المختلفة ، ومهما كانت الحال فأن تلك الدراسة ستكون مكملة لدراستي المتواضعة هذه .

الثانية : دور النثر في ميدان الطرد :

أ ـ لقد اطلعت على رسالة للكاتب عبد الحميد في وصف الصيد (جمهرة رسائل العرب : 2-544, 545 ، جمع أحمد زكي صفوت ، القاهرة1937) ، وربما نجد أخرى لأبي اسحاق الصابي ، أو لغيرهما وهذا من شأنه أن يقودنا الى الصلات بين موضوعات الشعر والنثر ، ويوقفنا على جوانب الاتفاق والاختلاف ، ويتيح لنا مجال المقارنة بين صنوى الأدب في تناول موضوعات واحدة ، وهو في حد ذاته مرحلة أخرى تالية .

ب ـ بين أيدينا سفر عظيم قدمه الجاحظ ، وكان زاخراً بموضوعات الصيد والطرد ، وهو كتاب الحيوان ، ويستطيع الباحث أن يجعله محور دراسة واسعة تتناول « أدب الحيوان » يتتبع جذور كتاب الحيوان في المؤلفات اللغوية التي صنفها علماء سبقوا الجاحظ أو عاصروه ، ثم مناقشة تأثيرات كتاب الحيوان في المؤلفات اللاحقة أمثال : المصائد والمطارد ، تأليف كشاجم ، والبيزرة تأليف بازيار العزيز بالله الفاطمي « ظناً » ، والاعتبار تأليف أسامة بن منقذ ، ومخطوطات أخرى ما زالت محتجبة في خزائنها تذكرنا بها الفهارس .

وختاماً يهمني جداً أن يكون بحثي هذا قد جاء بشيء جديد ، واستطاع أن يجدد معالم فن الطرد منذ نشوئه حتى تبلوره ، وأرجو أن أكون قد قدمت مساهمة مقبولة في خدمة أدبنا العربي الذي هو رصيدنا وأملنا في لم شمل شعوب الأمة العربية الطامحة الى المجد المؤثل .



المراجع

1 ـ المخطوطات

1 ـ التذكرة الحمدونية : ابن حمدون محمد بن الحسن بن حمدون ، مخطوطة معهد الدراسات الاسلامية ببغداد رقم1267 / القسم الخامس .

2 ـ الزهرة جـ3 : أبو مكر بن داود الأصفهاني : مخطوطة مكتبة المتحف العراقي رقم 1345 .

3 ـ شرح ديوان أبي رؤبة : حسن السندوبي ، دار الكتب بالقاهرة رقم517 أدب .

4 ـ شرح ديوان رؤبة بن العجاج : بخط محمود سامي البارودي . دار الكتب بالقاهرة رقم519 أدب .

5 ـ مناهج السرور والرشاد في الرمي والسباق والصيد والجهاد : الشيخ زين الدين عبد القادر بن أحمد بن علي الفاكهي ، صورة المجمع العلمي العراقي عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم2834 .

6 ـ منتهى الطلب : محمد بن المبارك بن ميمون ، مخطوطة دار الكتب بالقاهرة رقم 11846 أدب .

2 ـ الكتب العربية المطبوعة

7 ـ الأدب الأندلسي : الدكتور أحمد هيكل : ط3 ، القاهرة1967 .

8 ـ الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه : معروف الرصافي ، بغداد1956 .

9 ـ أراجيز العرب : السيد محمد توفيق البكري، ط2 ، القاهرة1346 هـ .

10 ـ الأخطل (سلسلة الروائع رقم36) : فؤاد أفرام البستاني ، بيروت1940 .

11 ـ الأغاني : (دار الكتب ، بيروت) أبو الفرج الأصفهاني .
12 ـ أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي : الدكتور أحمد الحوفي ، ط1 ، القاهرة1958 .
13 ـ الأسلوب : الأستاذ أحمد الشايب ، ط4 ، القاهرة1956 .
14 ـ أساس البلاغة : الزمخشري .
15 ـ أصول علم النفس : دكتور عزت راجح ، ط6 ، القاهرة1966 .
16 ـ أصول النقد الأدبي : الأستاذ أحمد الشايب ، ط3 ، القاهرة1946 .
17 ـ أنساب الخيل : ابن الكلبي تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة1946 .
18 ـ أنس الملا بوحش الفلا : محمد المنكلي ، باريس1880 .
19 ـ الامتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي ، ط2 ، القاهرة1953 .
20 ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : السيد محمود شكري الألوسي ، ط2 ، القاهرة 1925 .
21 ـ البيان والتبيين: الجاحظ شرح حسن السندوبي، ط3 ، القاهرة1947 .
22 ـ البيزرة : تحقيق محمد كرد علي ، دمشق1953 .
23 ـ تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري ، ط3 ، بيروت1960 .
24 ـ تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، بيروت1965 .
25 ـ تأريخ الاداب العربية : كارلو نالينو ، القاهرة1954 .
26 ـ تأريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) : الدكتور احسان عباس ، بيروت 1960 .
27 ـ تأريخ بغداد : الخطيب البغدادي (بالأوفست بيروت) .
28 ـ تأريخ الشعر السياسي : الأستاذ أحمد الشايب ، ط4 ، القاهرة1966 .
29 ـ التكملة لشعر الأخطل : نشرها انطون صالحاني اليسوعي ، بيروت1938 .
30 ـ تهذيب اللغة : الأزهري .
31 ـ الكتاب المقدس (التوراة والأناجيل) : بيروت1962 .
32 ـ الجمان في تشبيهات القرآن : ابن ناقيا البغدادي تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي بغداد 1968 .
33 ـ جمهرة أشعار العرب : أبو زيد القرشي ، القاهرة ، 1926 .
34 ـ حديث الأربعاء : جـ2 ، الدكتور طه حسين ، دار المعارف بمصر1964 .
35 ـ حلية الفرسان وشعار الشجعان : علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي ، دار

المعارف بمصر 1951 .
36 ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي : الدكتور احمد الحوفي ، الطبعة الرابعة ـ نهضة مصر بالقاهرة .
37 ـ حياة الحيوان الكبرى : الدميري ، بالأوفست عن نسخة للمطبعة الخيرية 1309 هـ ، بيروت .
38 ـ الحيوان : الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون .
39 ـ خزانة الأدب : عبد القادر البغدادي ، السلفية القاهرة 1349 هـ . ديوان ابن مقبل : تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق 1962 .
40 ـ ديوان الأعشى الكبير : شرح الدكتور م . محمد حسين ، القاهرة 1950 .
41 - المصدر نفسه .
42 ـ ديوان الأفوه الأودي (الطرائف الأدبية) : تحقيق عبد العزيز الميمني ، القاهرة 1937 .
43 ـ ديوان أوس بن حجر : تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط2 ، بيروت 1967 .
44 ـ ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي : تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق 1960 .
45 - ديوان ابن الدمينه : تحقيق احمد راتب النفاخ ، القاهرة 1959 .
46 ـ ديوان ديك الجن الحمصي : جمعه وشرحه عبد المعين الملوحي ومحي الدين درويش ، حمص 1960 .
47 ـ ديوان شعر ذي الرمة : نشره كارليل هنري هيس مكارتني ، لندن 1919 .
48 ـ ديوان الحطيئة : تحقيق نعمان أمين طه ، القاهرة 1958 .
49 ـ ديوان شعر الحارث بن حلزة اليشكري (مجلة المشرق) : نشره فريتس كرنكو ، العدد الثامن آب (أغسطس) 1922 ، بيروت .
50 ـ ديوان حميد بن ثور الهلالي : تحقيق عبد العزيز الميمني ، القاهرة 1951 .
51 ـ ديوان شعر الخرنق بنت بدر : تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة 1969 .
52 ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس : تحقيق عبد العزيز الميمني ، القاهرة 1950 .
53 ـ ديوان سلامه بن جندل : تحقيق فخر الدين قباوة ، حلب 1968 .
54 ـ ديوان الشماخ : مطبعة السعادة ، القاهرة 1327 هـ .
55 ـ ديوان الطرماح : تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق 1968 .
56 ـ ديوان طرفة بن العبد البكري : شاكون 1900 .

57 ـ ديوان طرفة بن العبد : دار صادر ، بيروت .
58 ـ ديوان الطفيل الغنوي : تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، بغداد1968 .
59 ـ ديوان عامر بن الطفيل: دار صادر ـ دار بيروت ، بيروت1959 .
60 ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر ـ بيروت1958 .
61 ـ ديوان عبيد بن الأبرص : دار صادر ـ دار بيروت ـ بيروت1958 .
62 ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : جمع وتحقيق محمد جبار المعيبد بغداد1965 .
63 ـ ديوان عروة بن الورد : دار صادر ، بيروت1953 .
64 ـ ديوان علي بن الجهم : تحقيق خليل مردم بك ، دمشق1949 .
65 ـ ديوان القطامي ليدن1902 .
66 ـ ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب ، بغداد 1962 .
67 ـ ديوان لبيد : بعناية هوبر وتقديم كارل بروكلمان ، ليدن1891 .
68 ـ ديوان كعب بن مالك الأنصاري : تحقيق سامي مكي العاني ، بغداد1966 .
69 ـ ديوان مجنون ليلى : جمع أبي بكر الوالبي وتحقيق جلال الدين الحلبي ، القاهرة1939 .
70 ـ ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني : تحقيق خليل ابراهيم العطية بغداد1962 .
71 ـ ديوان النابغة الذبياني : شرحه عبد الرحمن سلام ، ط1 ، بيروت1929 .
72 ـ ديوان النابغة الذبياني : دار صادر ـ دار بيروت ـ بيروت1963 .
73 ـ ديوان أبي نواس : تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي : القاهرة1953 .
74 ـ رسالة الغفران : لأبي العلاء المعري تحقيق بنت الشاطىء ، ط3 ، القاهرة1963 .
75 ـ روضة السلوان : لأبي اسحق ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجي، ط1، الجزائر1959 .
76 ـ الرياضة البدنية عند العرب : محمد كامل علوي ، ط1 ، القاهرة1947 .
77 ـ شرح ديوان امرىء القيس : حسن السندوبي ، ط2 ، القاهرة1939 .
78 ـ شرح ديوان جرير : محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، بيروت1353 هـ .
79 ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : الدار القومية ، القاهرة1964 .
80 ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح وتحقيق ، احمد طلعت ، بيروت1968 .
81 ـ شرح ديوان علقمة الفحل (ضمن مجموعة فيها ديوان طرفة وعنترة) دار الفكر للجميع ، بيروت1968 .

82 ـ شرح ديوان الفرزدق : تحقيق عبد الله الصاوي ، القاهرة1936 .
83 ـ شرح ديوان الفرزدق : المستشرق جيمس د . سايمز ، بيروت .
84 ـ شرح ديوان كعب بن زهير : السكري : نشر الدار القومية ، القاهرة1965 .
85 ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : تحقيق الدكتور أحسان عباس ، الكويت 1962 .
86 ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : دار القاموس الحديث ، بيروت .
87 ـ شرح أشعار الهذلين : تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة .
88 ـ شرح القصائد العشر : التبريزي ، القاهرة .
89 ـ شرح المعلقات السبع : الزوزني ، القاهرة1948 .
90 ـ شاعرات العرب : جمع وتحقيق عبد البديع صقر ، الدوحة1967 .
91 ـ الشذر الذهبي في شعر الأخطل التغلبي : شرحه الأب انطون صالحاني اليسوعي ، بيروت1925 .
92 ـ الشعر والشعراء : لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة1967 .
93 ـ شعر الطبيعة في الأدب العربي : الدكتور سيد نوفل ، القاهرة1945 .
94 ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : الدكتور يوسف خليف ، القاهرة1959 .
95 ـ شعراء النصرانية بعد الاسلام : لويس شيخو ، بيروت1924 .
96 ـ شعر ابراهيم بن هرمة القرشي : تحقيق محمد نفاخ وحسين عطوان ، دمشق1969 .
97 ـ شعر خفاف بن ندبه السلمى جمع وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، بغداد 1968 .
98 ـ شعر الراعي النميري وأخباره : جمع ناصر الحاني ، دمشق1964 .
99 ـ شعر عروة بن حزام : تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، بغداد 1961 .
100 ـ شعر عمرو بن كلثوم (مجلة المشرق) : نشره المستشرق فريتس كرنكو ـ بيروت تموز (يوليو)1922 .
101 ـ شعر المثقب العبدي : تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين بغداد1956 .
102 ـ شعر النمر بن تولب ، صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي ، بغداد1956 .
103 ـ صبح الأعشى : القلقشندي ، طبعة دار الكتب ، القاهرة1913 .

104 ـ الصعلكة والفتوة في الاسلام (سلسلة اقرأ رقم 111) : أحمد أمين : القاهرة 1952 .
105 ـ كتاب الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، ط 1 ، ـ القاهرة ـ 1952 .
106 ـ الصيد والطرد عند العرب : مؤلف مجهول تحقيق الدكتور ممدوح حقي دمشق1961 .
107 ـ طبقات الشعراء : لابن المعتز ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر 1956 .
108 ـ الطرائف الأدبية : تحقيق عبد العزيز الميمني ، القاهرة1937 .
109 ـ عجائب المخلوقات : القزويني ، على هامش حياة الحيوان الكبرى .
110 ـ العمدة : ابن رشيق القيرواني ، ط2 ، مطبعة السعادة بمصر 1955 .
111 ـ عيون الأخبار : ابن قتيبة الدينوري ، دار الفكر ببيروت1956 .
112 ـ الفتوة عند العرب : عمر الدسوقي ، القاهرة1956 .
113 ـ الفروسية في الشعر الجاهلي : نوري حمودي القيسي ، بغداد1964 .
114 ـ فقه اللغة : الثعالبي ، مطبعة الاستقامة بمصر .
115 ـ فن الوصف : ايليا حاوي ، بيروت1959 .
116 ـ الفهرست : ابن النديم ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
117 ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي : الدكتور شوقي ضيف ، ط6 ، دار المعارف بمصر .
118 ـ القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، مطبعة السعادة بمصر1913 .
119 ـ كشف الظنون : حاجي خليفة ، طهران (أوفست) .
120 ـ لامية العرب « نشيد الصحراء لشاعر الأزد الشنفرى » شرحها وحققها الدكتور محمد بديع شريف ، بيروت1964 .
121 ـ لسان العرب : ابن منظور المصري ـ دار الفكر بيروت .
122 ـ المثل السائر : ابن الأثير الموصلي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1939 .
123 ـ مجموع أشعار العرب « ديوان رؤبة » نشره وليم بن الورد البروس ، ليبزك1903 .
124 ـ مجمع الأمثال : للميداني حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة1955 .
125 ـ المحكم : لابن سيدة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة 1958 .
126 ـ المرأة في الشعر الجاهلي : الدكتور أحمد الحوفي ، ط2 ، القاهرة1963 .
127 ـ المصايد والمطارد : لكشاجم ، تحقيق الدكتور محمد أسعد طلس ، بغداد ، 1954 .

128 ـ معلقات العرب : الدكتور بدوي طبانة ، ط2 ، القاهرة1967 .
129 ـ المفضليات : للضبي تحقيق محمد شاكر ، مصر1361 هـ .
130 ـ النفحات المسكية في صناعة الفروسية : لأحمد بن محمد الحموي.
131 ـ النفحات المسكية في صناعة الفروسية : لأحمد بن محمد الحموي الحنفي تحقيق عبد الستار القرغولي ، بغداد1950 .
132 ـ النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي : ناصر الحاني ، بغداد1955 .
133 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، القاهرة 1933 ، مصورة عن طبعة دار الكتب .
134 ـ أبو نواس : لابن منظور المصري نشره عمر أبو النصر ، بيروت1969 .
135 ـ الوحشيات « الحماسة الصغرى » : أبو تمام علق عليه وحققه عبد العزيز الميمني وزاده محمود محمد شاكر القاهرة1963 .
136 ـ الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين : الدكتور جميل سعيد ، ط بغداد1948 .
137 ـ الوصف في الشعر العربي جـ1 : عبد العظيم علي فناوي ، ط1 ، القاهرة1949 .
138 ـ الوصف في الشعر العباسي حتى دخول السلاجقة بغداد : أحمد أمين مصطفى : رسالة باشراف الدكتور أحمد الحوفي نوقشت في 16 -2 -1969 ، ومنح واضعها درجة ماجستير .

3 ـ كتب مترجمة الى العربية

139 ـ أرض الأنبياء (مدائن صالح) : سنت جون فيلبي ، ترجمة عمر الديراوي ، ط2 ، بيروت1965 .
140 ـ تاريخ العرب (مطول) فيليب حتي ، ترجمة الدكتور أدورد جرجي والدكتور جبرائيل جبور ط3 ، بيروت1961 .
141 ـ الشعر الأندلسي : غارسيا غومس ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ط2 ، القاهرة 1956 .
142 ـ ملحمة جلجامش. أدب عراقي قديم : ترجمة طه باقر ، ط1 ، بغداد ، 1962 .

4 ـ تراجم أجنبية
انكليزية

Bibbiography of Architectuer Arts and Crafts of Islam to Ist Jan. ـ 143
1960. By K. A. C. Creswell, Published by the America(University at
Cairo. Press 1961.

Hunting as practised in Arabic Countries, By Dr. Zaky M. Hassan, ـ 144
Cairo 1939.

فرنسية

SYRIA, Revue d'art Oriental el D'ARCHEOLOGIE Tome XXV. ـ 145
Paris 1946- 1948.

5 ـ المجلات

146 ـ مجلة العربي : العدد114 ، مايو (مايس)1968 ، الكويت . (طيور الفتوة وأثرها في الأدب) بقلم الدكتور مصطفى جواد)

147 ـ مجلة فكر وفن : العدد الرابع 1964 ، المانيا . (الباز الأشهب) بقلم أنا ماري شيمل .

148 ـ مجلة المجمع العلمي العراقي : المجلد الثاني / الجزء الثاني1952 بغداد .
(الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع) بقلم الدكتور محمد أسعد طلس .

149 ـ مجلة المشرق : المجلد العشرون ، العددان8.7 تموز (آب)1922 بيروت .

150 ـ دائرة المعارف : فؤاد أفرام البستاني ـ بيروت1958 .

especially if they used hourses as a means of hunting. 5

5- I found out that al-Tard poetry passed throug two stages. In the first stage it was only one aim in the poem. In the second stage, it became an independent art comprising a full poem. I called it'al-Tardiah Istidradiah' for the first stage. I called it al Tardiah Mustakilah for the second.

6- I found out that the two kinds of al-Tardiah were different in their rhythm. Al-Tardiah Istidradiah was organized in the metre followed by the poems then, while al-Rajaze metre was mostly followed in al-Tardiah Mustakilah. Both were in accord with their elements for I found most of the hunting poems mention the time, the place, the hunter, the means of hunting, the struggle and then the end of the hunting. I also found out that the hunting poems had a prologue for starting and an epilogue to end the poem.

7- I discussed an idea put forward by some scholars who attributed to Abu Nawas the innovation of employing al-Rajaze in describing hunting. I proved from texts that abu Nawas was only an imitator and developer and the real inovator of al-Tardiah was al-Shamerdal Ibn Sharik al-Yaroui.

Finally I have submitted some suggesions concerning the editing of texts of huntming poetry and particularly specifying the hunting poems of Abu Nawas from those of others. I also suggested the study of the description of hunting in the period lator to Abu Nawas to clarify the features imitation and innovation. I also suggested the studying of the prose and its role in the art of hunting. I hope that my research has presented a modest contribution to the world of literary studies.

THE THIRD PART

In this part I studied the means of hunting. They were four kinds and there is a chapter for each. The Arabs practised hunting by using animals such as horses, dogs and leopards . They used also birds like falcons and hawbs; also the weapons like bows, arrows, spears and sticks. In addition, they resorted to tricks such as snares, nets and traps.

THE FOURTH PART

This part is for the artistic study. I discussed the idea of the poetry of hunting, also the emotions, imagination, style and the method of the poem. I explained the relation between'al-Rajaze'and the description of the poem. I explained also the structure of al-Tardiah poem where I found certain features and elements that the poets tried to provide.

I have written a perface and an introduction where I mentioned the areas of the research and its animals. Then I named some of those who practised hunting in the pre-Islamic and Islamic periods. Then I have written a linguistic prelude the expression of hunting. Finally I wrote a summary of the research in which I mentioned the conclusion Ireoched at and they were as follows:-

1- Hunting was practised by the Arabs without blemish.

2- In the first stage, the description of the hunting animals was not aim in itself but the poet mentioned it by the way when talking about his camel, or his horse or his beloved. At the end of the Amawi period and the beginning of the Abbasid period, some poets used some animals as the centrepoint of poems dealing with the description of hunting. I concluded that al-Tard (hunting) poetry passed through two stages: the first from the pre-Islamic till appearance of al-Shamardal Ibn Sharik al-Yarboui during the Amawi period when the second stage strted. The second stage ended with Abu Nawas who was the last of the innovators of al-Tard poets.

3- I found out that the poets described hunting either out of real experience or as a mere imitation to demonstrate their ability in this field.

4- The end of the prey was a decided matter to the poets of the second stage. As for the poets of the first stage, the victory of the prey was decided by most of the poets particularly if the prey was used as a simile, or if was an aim to the arrows of hunters. But they considered the prey as a victim

The Abstract:

The research aims at studying the poetry dealing with the description of hunting. It covers the Pre-Islamic, early Islamic, Amawi and Abassid periods , till the end of the second Hijriah century. It deals with the poets of the Arab peninsula, Syria and Iraq. Egypt and Andalus were beyond the limited period of my research for Arabic there was not taken as a language of literature and culture until later.

The research is divided into four parts:

THE FIRST PART

This Part consists of four chapters. The first chapter deals with the motives of hunting and I found out that the Arabs practised hunting for food or as a self-defence or as merely a sport. In the second chapter I dealt with the importance of hunting to the Arabs and their love for it and their esteem of the hunter. The third chapter deals with the hunting seasons. I found out that hunting was practised all through the year but at certain times of the day especially early in the morning when the prey is asleep. In the fourth chapter I dealt with the habits of hunting such as hiding, getting up early or wearing special clothes.

THE SECOND PART

This part is solely concerned with the preys and its kinds. I mentioned some of its habits and the ways with which they were hunted as mentioned in poems. The preys were of two kinds. The first was the animals such as: zebras, deers, rabbits, foxes, wolves, lions... etc. The second was the birds like ostriches, grause and skylarks. There is a chapter for each kind of these preys.

Dr. Abbas Mustafa Al-Salihy

HUNTING IN ARABIC PEOTRY

TILL

THE END OF SECOND HIJRIAH CENTURY



محتويات الكتاب

الباب الثالث : وسائل الصيد

الباب الرابع : الدراسة الفنية

1981-10-54


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com